مجلة
الثقافة
الوطنية
الديمقراطية

أدب ونقد

العدد
(٢١٢)
إبريل
٢٠٠٣

البرابرة

- نساء يركضن مع الذئاب
- محمد عفيفى.. سخرية التحرر
- ضحك كالبكا
- العرب: عالمية الثقافة
- الأغبياء وسيدهم
- حالم بفلسطين





أدب ونقد

مجـلة الثقـافة الوطنية الديمقـراطية

شـهرية يصدرها حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي

تاسست عام ١٩٨٤/ السنة الثامنة عشر العدد ٢١٢/ ابريل ٢٠٠٣

المراسلات: مجلة [أدب ونقد] ١ شارع كريم الدولة / ميدان طلعت حرب /الأهالي
القاهرة / هاتف ٢٩/ ٢٨/ ٥٧٩١٦٢٧ فاكس ٥٧٨٤٨٦٧

المستشارون

د. الطـــاهر مـــكي / د. أمينـــة رشـــيد

صـــلاح عيسى/ د. عبد العظـــيم أنيس

شارك في هيئة المستشارين ومجلس التحرير الراحلون

د. لطيفة الزيات/ د.عبد المحسن طه بدر

محمـــد رومـــيش / ملك عبـــد العـــزيز

الغلاف

أحمـــد الســـجيني

أعمال الصف والتوضيب

نسرين سعيد إبراهيم

تصحيح : أبو السعود على سعد

لوحة الغلاف للفنانة :

زينب السجينى

الرسوم الداخلية للفنان :

أحمد مرسى

بورتريه : محمد عفيفى

د. عز العرب

موتيفة العدد : بهجت

فوتوغرافيا الغلاف : خالد سلامة

الاشتراكات لمدة عام

باسم الأهالي / مجلة [أدب ونقد]: داخل مصر ٥٠ جنيها

البلاد العـــربية ٥٠ دولارا / أوروبا وأمريكا ٧٥ دولارا

الطباعة

شركة الأمل للطباعة والنشر

الأعمال الواردة إلى المجلة لا ترد لأصحابها سواء نشرت أو لم تنشر

يمكن إرســـال الأعمـــال على العنـــوان البريدي أو البريد الالكتروني:

adabwanaqd@yahoo.com

موقع [أدب ونقد] على الانترنت: adabwanaqd.4t.com

ترجو المجلة من كتابها ألا يزيد عدد صفحات المادة المرسلة عن عشر صفحات أو ثلاثة آلاف كلمة

المحتويات



أول الكتابة

فريدة النقاش

ما أشبه الليلة بالبارحة .. البارحة هى حرب الخليج الثانية حين قام النظام العراقى بغزو الكويت وإهدار سيادته فى أغسطس ١٩٩٠ وعجز النظام الإقليمى عن التوصل إلى حل عربى جماعى لاخراج الجيش العراقى من الكويت سنة ١٩٩١ وحينذاك نشأ تحالف دولى واسع شاركت فيه كل من مصر والسعودية وسوريا لمحاربة العراق وإخراجه من الكويت . وكان التبرير جاهز أمام الحكومات العربية وهو قرارات مجلس الأمن التى تأسست على الباب السابع من ميثاق الأمم المتحدة الذى يجيز لها استخدام القوة.. وقد كان ..وجرى تحرير الكويت بعد مجزرة كبرى ضد العراق ، وتواصل منذ ذلك الحين فرض العقوبات الدولية عليه وتجويع شعبه وامتهانه ذلك الشعب المعذب الواقع بين مطرقة العقوبات الدولية وسندان نظام إستبدادى قمعى لم يعرف له تاريخ البشرية مثيلا لا فحسب فى وحشيته ضد شعبه وجيرانه وإنما أيضا من رعونته السياسية وعجزه عن إجراء قراءة صحيحة للواقع العالمى الجديد والعلاقات الدولية بعد انهيار المعسكر الاشتراكى وانفراد أمريكا بالهيمنة على العالم وسعارها من أجل الهيمنة على منابع الطاقة والتحكم فى اقتصاديات منافسيها الكبار الاتحاد الأوروبى والصين.

والآن ، وبعد عذاب طويل راح ضحيته ملايين العراقيين فقتل منهم من قتل ومات من مات بسبب نقص الأدوية أو قمع النظام وهاجر من هاجر إلى بلاد الله الواسعة .. وأصبح هذا البلد الكبير الذى لعب على امتداد تاريخ الثقافة العربية الإسلامية دورا مركزيا فى إبداعها وتطورها عرضة للافقار والإذلال ، وأصبحت ثروته النفطية الهائلة نقمة عليه لانعمة بعد أن استباحها نظامه للقيام بمغامراته العسكرية الطائشة مرة ضد إيران التى كان قد صالحها فى زمن الشاه ونظامه الاستبدادى الذى كان ركنا ثابتا من أركان السياسة الأمريكية -الإسرائيلية فى المنطقة . ومرة أخرى ضد الأكراد العراقيين الذين يطالبون فقط بالاعتراف بهويتهم الثقافية وبعراق فيدرالى ديموقراطى يعيشون فى إطاره بسلامة.

وضد الشيعة الذين ربما يشكلون أكثر من نصف سكان العراق فضلا عن إنهم شأنهم شأن العراقيين السنة هم جزء من النسيج الوطني لبلد كبير وغنى بتعدده ومنابع ثقافته وثرواته ولكن النظام يمارس ضدهم تمييزا طائفيا صريحا.

ومرة ثالثة كانت قاصمة ضد الكويت التى اجتاحها موجها ضربة كبيرة للقومية العربية ولحلم الوحدة التى تطلعت لها الشعوب كمخرج من سطوة الهيمنة الاستعمارية ، تلك الوحدة التى بات مستحيلا فى العصر الجديد أن تتم عن طريق الضم والالحاق والحرب مثلما كان الحال مع الوحدة الألمانية والوحدة الايطالية فى القرن التاسع عشر ، لقد اختلف الزمان وتغيرت موازين القوة ونجحت أوروبا عبر نصف قرن وبعد حروب طويلة ومريرة فيما بين بلدانها فى بناء الاتحاد الأوروبى عن طريق الاقتصاد قبل السياسة وبدون الحاق أو ضم، وهو ما كان بوسع العراق أن يقوم به لو أن نظامه امتلك رؤية صائبة وقدرة على التعايش مع جيرانه وإدارة علاقاته مع شعبه.

لم يكن النظام العراقى الاستبدادى الفردى القمعى قادرا على قراءة كل هذه الحقائق البسيطة الساطعة كشمس النهار بل إنه انقاذ لغرور القوة وروح العظمة الفارغة التى تميز الطغاة عبر العصور ، ونسى فى غمرة الحالة الطاووسية التى تلبسته أن الامبريالية الأمريكية التى استخدمته لإضعاف الثورة الإيرانية الوليدة حين أطاحت بالنظام الذى شكل سندا للسياسات الأمريكية الإسرائيلية فى المنطقة –نسى أن هذه الامبريالية يمكن أن تنقلب عليه بنفس القوة التى ساندته بها خاصة وأنها كانت قد سلحته وأمدته بالتكنولوجيا الجديدة لتطوير نظامه العسكرى القمعى الوحشى ، وتصور بسبب الغرور والغطرسة أنها يمكن أن تتسامح مع احتلاله للكويت البلد المستقل ذى السيادة وقد تراءى لخياله المريض أنه سيكون «بسمارك» القرب الذى يوحدهم بالقوة كما صور له الأمر بعض الكتاب المنافقين والمرتزقة..

وكانت الكارثة الكبرى التى استنزفت جرءا لا يستهان به من طاقة العرب وثرواتهم فضلا عن الشرخ العميق فى النظام الاقليمى ومخاوف الخليجيين من القوة العسكرية لجار عربى هو العراق ثم استدعاؤهم للقوات الأمريكية لترابط على أراضيهم بشكل سافر لأن النظام الاقليمى العربى لم يثبت أنه جدير بهذا الدور أو حتى قادر عليه».

والآن وقد تغيرت الظروف والملابسات والوقائع وتعذب الشعب العراقى عذابا عظيما ، وقبل

نظامه بكل مقررات مجلس الأمن وبعودة المفتشين الذين شهدوا لصالحه رغم كل الملاحظات ، وبدلا من أن يستجمع العرب قوتهم وينشئوا تحالفات دولية قادرة على اسقاط العقوبات عن العراق خاصة بعد متانة الموقف الأوروبى الذى جعل أمريكا وبريطانيا خارجتين على الشرعية الدولية فى حربهما ضد العراق اكتفى العرب بالفرجة ، ولم يبادروا بإدانة المعتدى الذى إدانه العالم كله ، وانكشفت حالة العجز الفاضح التى أطلقت غضب الشعوب من عقاله ، وبات واضحا أننا نشهد ولادة عصر جديد ، عصر سوف يعود فيه الاستعمار العسكرى التقليدى لاحتلال أراضى الغير بالقوة كما فعلت أمريكا فى أفغانستان وتفعل الآن فى العراق ، عصر يغير فيه الاستعماريون بقوة الجيوش نظم الحكم التى لا يرضون عنها ويفرضون نظما عميلة لهم يأمرون فتطيع ويشاورون فتركع ، عصر عنوانه عسكرة العولمة الرأسمالية التى تفتح الأبواب الموصدة بالجيوش لاب الاتفاقيات غير المتكافئة والشروط المجحفة فقط كما هو الحال مع صندوق النقد الدولى والبنك الدولى وإتفاقية التجارة العالمية وهى المؤسسات التى أغرقت البلدان الفقيرة فى الديون ودمرت اقتصادياتها وأفقرتها لست مهزوما ما دمت تقاوم.

هكذا علمنا المفكر الشهيد «مهدى عامل» حين كتب عن الثقافة والمقاومة ..والمقاومة شأنها شأن الثقافة هى عملية إبداع متوال ومتجدد أبدا للحياة ذاتها ، هى روح النقد والوعى العلمى النزيه المتقد ، هى سعينا المشترك لتغيير واقعنا البائس لتكون الحياة جديرة بالعيش ويكون الشعب قادرا على السيطرة على مصيره ومواجهة البرابرة الغزاة من الخارج والمستبدين الفاسدين من الداخل.

وسوف يفاجئنا الشعب العراقى تماما كما حدث مع الشعوب التى حشدت طاقاتها لمواجهة الاستعمار من الصين لكوبا ،ومن فيتنام لفلسطين ومن السود الأمريكيين لجنوب أفريقيا ، ومن الجزائر لنيكاراجوا سوف يفاجئنا بإبتداع أشكال جديدة للمقاومة وإنتاج قيم مواكبة لها مستلهمة الثقافة الوطنية ذات الأفق الإنسانى وهى تنسج ببطء وصبر تلك الوشائج المتينة مع الكفاح المشترك للشعوب بوجهيه الوطنى والاجتماعى.

وإنه لشرف عظيم للشعبين الفلسطينى والعراقى أنهما معا أضاءا مجددا شعله التضامن الأممى ، وتتسع رقعة هذا التضامن يوما بعد يوم ضد العولمة الرأسمالية متطلعة لتجديد

الاشتراكية ، مستفيدة من الخبرات المتراكمة للبشرية من النجاحات الكبرى ومن الاخفاقات من ثورة أكتوبر إلى ثورة الصين إلى تراث حركة التحرر الوطنى التى هزمت الاستعمار القديم ، وحققت الاستقلال ، وأطلقت الأحلام وأنتجت ثقافة غنية فى مفرداتها الأدبية والسينمائية والمسرحية وفى قيمها ومثلها العليا وأشكال تحالفاتها السياسية وأنماط حياتها جعلت بعض كبار المبدعين الأوربيين والأمريكيين الذين بحثوا عن إلهام جديد بعد أن بدا لهم أن الحداثة استنفدت نفسها يذهبون إلى افريقيا وأمريكا اللاتينية وآسيا مواطن التحرر الوطنى والابداع الثقافى الطازج والأحلام الجديدة والمثل العليا الإنسانية ولاهوت التحرير والرواية السحرية وانتفاضات الشعوب وروح المقاومة والفداء والتضامن الإنسانى والرحمة وهى جميعا قيم كانت الرأسمالية الوحشية قد داستها بالأقدام مطلقة روحا عدمية كلبية مخيفة تتغذى على الحدود القصوى للمنفعة واللذة العارية.. سوف يتألم الشعبان العراقى والفلسطينى وسوف يطول زمن التحرر الوطنى الجديد فى مواجهة الاحتلال كما تتألم الشعوب العربية كافة تحت وطأة الاستغلال والاستبداد لكن أركان الاستغلال والاستبداد سوف تتقوض حتما وإن طال الزمن تحت ضربات الغضب الشعبى والحركة الجماهيرية التى ستخرج أن آجلا أو عاجلا من قبضة الوعى الزائف وقيود الجلادين وسوف تعين هذه الحركة المثقفين على إستعادة عافيتهم وبوصلتهم والخروج من المتاهة والانخراط فى الكفاح من أجل إصلاح جذرى شامل هو الخطوة الأولى لمساندة العراق وفلسطين ولسنا مهزومين ما دمنا نقاوم .. وسوف نقاوم.

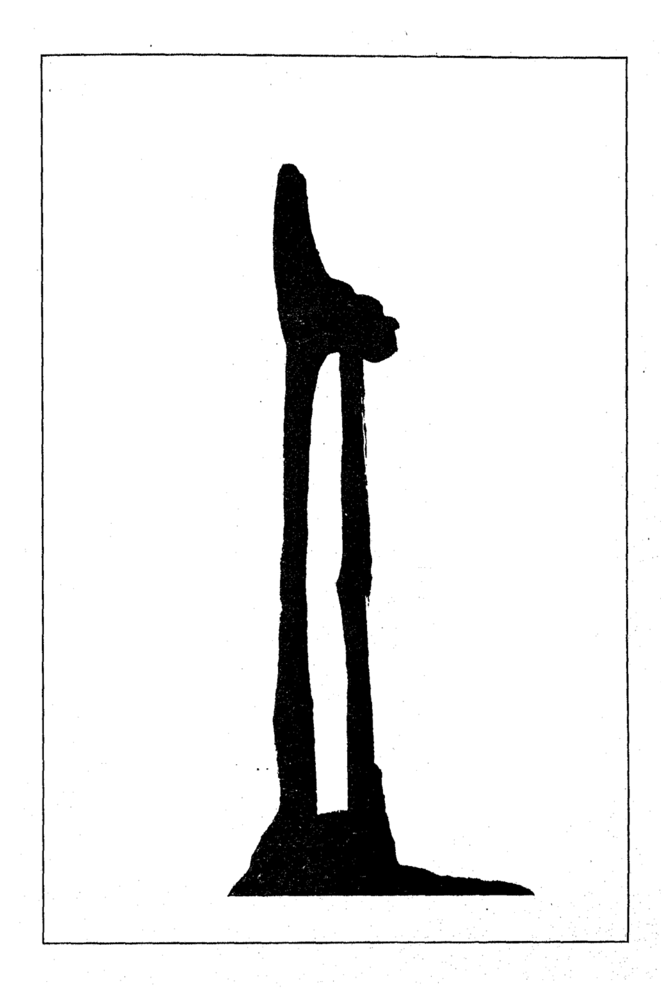
شعر

بانتظار البرابرة

كافكى

ترجمة: سعدى يوسف

ماذا ننتظر فى الساحة ، مزدحمين؟
البرابرة سيصلون اليوم
ولم مجلس الشيوخ معطل؟
الشيوخ لا يشرعون القوانين
فلم هم جالسون هناك إذن؟
لأن البرابرة يصلون اليوم
أى قوانين سيشرعها الشيوخ الآن؟
عندما يأتى البرابرة، سيسنون هم القوانين
لم يستيقظ امبراطورنا ، مبكرا هكذا؟
ولم يجلس الآن ،معتليا عرشه ،معتمراً تاجه
عند البوابة الكبرى للمدينة؟
لأن البرابرة يصلون اليوم
والامبراطور ينتظر استقبال قائدهم
والحق انه تهيأ ليوجه إليه خطبة
خلع عليه فيها كل الأسماء والألقاب
لم خرج منضلانا معا ،والقضاة
بقبائهم الحمر ، وأقبائهم المزركشة
لم هذه الأساور ،وكل هذا الحجر الكريم؟.
كل الخواتم ذات الزمرد المتألق؟.
لم يحملون اليوم صولجانهم الثمينة؟
ذات المقابض الفضة، والنهايات الذهب؟
لأن البرابرة سيصلون اليوم
وأشياء كهذه تدهش البرابرة.
لم لم يأت الخطباء ، المفوهون ،هنا ،كالعادة
ملقين خطبهم ، قائلين مما ينبغى أن يقولوا؟
لأن البرابرة سيكونون اليوم ،هنا
وهم يسأمون البلاغة والفصاحة.
لم هذا الضيق المفاجئ ،والاضطراب ؟.
لم غدت عابسة وجوه القوم؟.
لم تخلو الشوارع والساحات ، سريعا؟.
والكل يعود إلى داره ، غارقا فى الفكر؟
لأن الليل قد هبط ، ولم يأت البرابرة
ولأن أناسا قدموا من الحدود
وقالوا أن ليس ثمة برابرة.
والآن.. ماذا نفعل بدون برابرة؟.
لقد كان هؤلاء نوعاً من حل.



الأغبياء وسيدهم

شعر: ألن جنسبرج

ترجمة: أحمد عمر شاهين

الغبى يدير العالم

الغبى هو النتاج الآخير للرأسمالية

الغبى يدير المباحث الفيدرالية

منذ عينه روزفلت

ولم يطارد –قط– المجرمين الحقيقيين

الغبى يقرض النقود لشرطة الدول النامية

من خلال بنك الاعتماد الدولى

الغبى يقرر حرق القمح

لتظل الأسعار مرتفعة فى الأسواق

الغبى يزرع الأعضاء البشرية

فى سويسرا

الغبى يستيقظ فى منتصف الليل ليرتب

أوراقه

يقول أنا غبى

وأحكم الولايات المتحدة وروسيا

وإنجلترا ويوغوسلافيا وبولندا والأرجنتين

والسلفادور وأتضاعف فى الصين.

الغبى يملى أوامره للزراعة الكيماوية

فى مناطق إفريقيا الصحراوية

ويأمر بتخفيض مستوى المياه فى كاليفورنيا

لصالح البنوك المالكة لمزارع البرتقال

الغبى يدير وزارة الدفاع

وأخوة يدير وكالة المخابرات المركزية

الغبى يحرر ويكتب التايمز والنيوزويك

والوول ستريت والبراندو الأزفستا
الغبى هو الرئيس ورئيس الوزراء
والمستشار والسناتور.
الغبى ينتخب رئيس الولايات المتحدة
**
الغبى يصنع الأسلحة فى الأرض المقدسة
ويبيعها للعنصريين البيض فى جنوب إفريقيا
الغبى يزود جنرالات أمريكا الجنوبية
بطائرات الهليوكبتر
وتقتل الهنود الحمر
الغبى يرسل طائرات الصهاينة
لضرب مخيمات اللاجئين خارج بيروت
**
الغبى أصبح شاعراً كبيراً
وجال فى العالم متغنياً بأمجاد الغبى
وأعلن انتصاره فى مسابقة الشعر
الغبى بنى المركز العالمى للتجارة
على شاطئ نيويورك
دون اعتبار لمكان تصريف النفايات
الغبى بدأ يقطع أشجار نهر الأمازون
ليبنى مصنع أخشاب على شاطئه
ومن إنسانيته فقد بنى غرفة قوس قزح
على قمة مركز «روكفلر»
حتى يمكن أن نرقص على أنغامها .

* ألن جنسبرج أحد أشهر الشعراء الأمريكيين فى العصر الحديث ، أسس ما يسمى بـ شعرية البيت» عبر دواوينه «قاديش» و«عواء» و«أمريكا».

ومن الغريب أن جنسبرج لم يحصل على جائزة «بولتيزر» وهى أشهر الجوائز الأدبية فى الولايات المتحدة ، نظراً لموقفه المعادى للإمبريالية الأمريكية.

وقد توفى «جنسبرج» فى عام ١٩٩٧.





العرب وعالمية الثقافة

د. محمد زكى العشماوى

ليس شئ أقدر على جمع شتات هذا العالم ولم شمله والتوحيد بين أجناسه وشعوبه من انتشار الثقافات والحضارات ، فهى الشئ الوحيد الذى يهب نفسه للتاريخ . وواجب كل قادم جديد إلى الأرض أن يصيب قدراً من هذا التراث الذى تسلمه الإنسانية إلى الشعوب جيلاً بعد جيل مهما اختلفت لغاتهم وأزمانهم .فإن ثمرة الفكر تتجاوز حدود الزمان والمكان ، وليست بحاجة إلى جواز سفر أو إلى تأشيرة دخول. فالأدب والفكر وكذلك العلم أجنحة طائرة تهبط فى كل أرض وتجتاز كل مكان ، وتحط بأجنحتها فوق ما تشاء من بلاد، مخترقة الحواجز ، تنفذ إلى قلوب من يريدها وتعانق فكر من يهواها.

فالأديب والمفكر والعالم هم جميعاً أبناء هذا الكوكب .. وانتماؤهم دائما إلى الإنسان..إلى العالم الفسيح الذى تعيش فيه ومن ثم فإن كل نتاج لأديب أو عالم أو مفكر ، بعد أن يصدر وينشر فى الناس يصبح ملكا لجيله وللأجيال كلها : فكل نتاج من هذه يهب نفسه للتاريخ ويصبح ملكا للإنسان.

ولعلنا نتفق على إن جانبا مهماً من جوانب الحضارة الإسلامية والذى يمكن أن ندعوه حجر الأساس الذى قامت عليه عظمة هذه الحضارة هو فى قدرتها على تحقيق ما نسميه بالتواصل بين الحضارات والحوار الإيجابى معها والذى يقوم على التأثير والتأثر وعالمية الفكر واستيعاب أفضل ما فى الحضارات والثقافات تم الإبداع الأصيل عطاء وأخذا.

وغنى عن البيان أن أول من أرسى دعائهم الحوار والأخذ والعطاء هو القرآن الكريم الذى أفسح

صدره ، وفتح كل الأبواب للحوار مع الأديان الأخرى بكل الوسائل الحضارية من مناقشة وتحكيم للعقل ، والطرق العلمية فى تفسير المواقف وطرحها بالمنطق والإقناع حتى ليشغل هذا الحوار جانباً كبيراً من كلمات الله فى الوحى المنزل .قد يصل إلى ثلث الآيات الكريمة أو أكثر. بل إن القرآن الكريم ليؤكد أن إيمان الإنسان المسلم لا يمكن أن يتم على وجهه الصحيح إلا إذا آمن بكل من سبق رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنبياء والرسل.

هذا فضلا مما قدمه الخلفاء المسلمون حين تزايدت مسئوليات الدولة واتسعت رقعتها فاقتبسوا أفضل النظم لإدارة الدولة وتطوير أساليبها على نحو ما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه من تطوير دواوين البريد والخراج ونظام التفتيش على الولاة ومحاسبتهم.

وعلى نحو ما فعل أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز حين أبدى اهتماماً كبيراً بالعلوم وعلى الأخص ما بقى فى الإسكندرية وانطاكية من علوم اليونان وما كان عندهم بلغتهم من علوم أمم أخرى.

وفيما يتصل بالاهتمام بالعلوم وتطويرها فقد بذل العرب فى ذلك جهوداً كبيرة خلاقة وفاعلة أثرت المعارف وطورت العلوم، ونهضت بالأمة نهضة ثقافية عالية، ولم يدخر العرب جهدا فى هذا المجال الذى يمثل التواصل الحقيقى بين الثقافات والتزود بالمعرفة واتجاهاتها المختلفة حيثما وجدت منذ القرن الأول للهجرة ، منذ ترجم الأمير الأموى خالد بين يزيد أول كتاب من علوم الأوائل إلى اللغة العربية وفطن إلى أهمية علم الكيمياء فى تطوير علم الصيدلة.

منذ ذلك التاريخ بدأت الجهود تتوافر لترجمة كتب العلوم من اللغة السريانية حيث كان أوائل المترجمين من السريان ،كما أوجدوا نظاما تعليميا يكفل نشر تعلم لغات الأمم السالفة المتقدمة فى العلم لنقل ما لديها من معرفة وعلم وفكر عن لغاتها الأصلية من يونانية وقبطية وسنسكريتية وهندية وفارسية وصينية فكانت ثورة علمية حقيقية للتزود بثمار الفكر الإنسانى ومحاولة تيسيرها وتقريبها والعمل على استيعاب العقل العربى لها حتى يمكن توظيف هذه العلوم، واستثمارها فى إطار واقعها الثقافى والاجتماعى.

وكان من نتيجة هذه الجهود المتصلة للترجمة أن نشأت كتائب من المترجمين من أشهرهم ماسرجويه (أوماسرجيس) ، وأبو يحيى البطريق ،وآل حنين، وابن لوقا ، ومحمد بن إبراهيم الفزاوى الذين ترجموا فى الفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء والصيدلة والطب والجغرافيا والهندسة والموسيقى.

وقد استطاعت حركة الترجمة هذه منذ القرن الأول الهجرى وما يليه أن يعقبها تحول كبير فى الثقافة العربية وأبرز مظاهر هذا التحول كان فى الإبداع والتجديد والابتكار وظهور علماء تركوا آثارا باقية حتى الآن فى مختلف نواحى المعرفة والإبداع علماء وفلاسفة أفذاذ من أمثال الفارابى و ابن سينا وابن رشد وعمر الخيام والبيرونى والطوسى نصير الدين ثم فخر الدين وجابر بن حيان والحسن بن الهيثم والرازى ،والخوارزمى ،والتونسى ،والساعاتى، ومنهم اليهود من أمثال أبو العشائر وموسى بن العازار ومنهم ، ثابت بن قرة الصائبى ،والمسعودى ، والإدريسى، وغيرهم كثير منهم العربى والبربرى والهندى والفارسى

أو التركى أو الروسى أو القبطى المصرى أو السورى أو الحبشى الأصل وكان بينهم مسيحيون ويهود ومجوس كلهم خدموا العلم والفكر والثقافة .هؤلاء هم الذين أقاموا الحضارة الإسلامية وجعلوا منها ثقافة مستنيرة ذات حضارة عظمى تستطيع أن تدخل فى حوار حضارى مع العالم عطاءً وأخذاً. كل هذه نتاج محاولة جادة ومتجددة للتواصل بين الثقافات والتحاور بين الحضارات من خلال جانب واحد هو الترجمة التى هى الباب الشرعى لهذا الحوار وهذا التواصل ،واستطاع هذا الباب أن يكون قادراً على تحقيق التفاعل البناء بين حضارات وثقافات الشرق و الغرب.

ولقد سادت حركة الترجمة عند العرب على مرحلتين :الأولى كان يعمل فيها العلماء فرادى كل بحسب مزاجه ودون أن يكون للدولة شأن بهم ، والثانية كان للدولة فيها شأن عظيم إذ أنشأ المأمون ما يسمى ببيت الحكمة حيث يجتمع القائمون على الترجمة تحت رعاية الخليفة ، وكان نتيجة ذلك أن أصبح بين يدى الدارسين ترجمات لمعظم أعمال أرسطو ، وما كتبه الشارحون للافلاطونية المحدثة وبعض محاورات أفلاطون ، ومعظم مؤلفات جالينوس ، وأجزاء مما كتبه غير جالينوس فى الطب.

كل هذا قد تحول عند العرب فى القرن الرابع الهجرى إلى ألوان جديدة ومبتكرة كانت ثمرة لما تمثله العرب واستساغوه من ثقافات ثم طبعوه بطابعهم ..انظر مثلا إلى أبى حيان التوحيدى تجد نفسك أمام فكر جديد لا عهد للعربية به من قبل فلا هو يشبه ما سبق من تراث عربى ولا هو يعتبر نقلا كاملا لما ورد من فكر أجنبى وافد، وإنما هو مزاج جديد فريد- ولم يكن أبو حيان وحده بل كان لكثير غيره أثر واضح بعد ذلك فى عصر النهضة فى أوروبا حينما تحول هذا الفكر إلى الغرب عن طريق الترجمة فآتى ثماره عند المفكرين من علماء الغرب وأدبائه -من هذه الاسماء اللامعة فلاسفة كالفارابى وابن سينا وابن رشد ، وشعراء كبار كالمتنبى وأبى العلاء ،ونقاد مشهورين تركوا بصماتهم على مسار التاريخ مثل عبد القاهر الجرجانى ، وعلماء فى الرياضية والفلك والكيمياء والطب وغير ذلك من شتى مجالات العلوم والآداب.

وإذا نظرت فى« ألف ليلة وليلة» وجدتها حكايات معظمها ينتمى بجوها إلى القاهرة فى العصر الفاطمى ، أو إلى بغداد فى أواخر العصر العباسى . وهى جزء من تراث الأمة العربية ، وعندما تتمعن أكثر فأكثر تجد أنها جزء من تراث الإنسانية ، ولذلك عندما ترجمها الكاتب الفرنسى «كالاند» ونشرها لأول مرة سنة ١٧٠٤م ومن الفرنسية ترجمت إلى الانجليزية فى الحال ،فظهرت الترجمتان معا فى باريس ولندن شعر الناس فى كل مكان أنها جزء من تراثهم وهم لا يدرون به، فاقبلوا عليها بلهفة عجيبة ، بحيث طبعت مرات عديدة ضمن مدى زمنى قصير وما زالت تتوالى طبعاتها.

وكان أثر «ألف ليلة وليلة» فى الرواية الانجليزية والفرنسية كبيراً جداً بوجه خاص فى القرن الثامن عشر وهولا يزال كبيراً حتى اليوم كان أثرا قد لا يفوقه أو يساويه إلا أثر التوراة والأساطير والملاحم فى نوع التركيب ، وفى نوع العواطف والأحلام والنزعات التى تسير الأحداث وتتحكم بحياة الأشخاص بل إن هناك روايات عديدة كتبت بالضبط على الطريقة القريبة القليلة من ألف ليلة وليلة يومئذ نذكر منها روايتى فولتير «كانديد» و«صادق».

فألف ليلة وليلة عن طريق القصة وعن طريق الحلم بشخصياتها وأحداثها ورموزها غدت منذ ذلك

اليوم جزءا من ثقافة كل إنسان فى العالم منذ طفولته لأنها تغذى هذا التوق إلى عالم أمثل وأعجب عن طريق أناس من كل ندع فيهم الأخيار والأشرار.

وإذا انتقلنا إلى دور الترجمة فى التأثير والتأثر وعالمية الأدب فى عصرنا الحديث فسنجد أن قضية الإيصال أو الترجمة قائمة بكل خطورتها عبر الأجيال منذ رفاعة رافع الطهطاوى إلى يومنا هذا .. فبالنسبة إلى أدبائنا المعاصرين فقد نقلت بعض كتابات طه حسين إلى الإنجليزية والفرنسية هناك مثلا أكثر من ترجمة إنجليزية واحدة لكتاب «الأيام» وكذلك نقل مسرح الحكيم وبعض أعمال نجيب محفوظ وغير هؤلاء وجدير بالذكر هنا مجموعة القصص العربية المعاصرة التى اختارها وترجمها دنيس جونسون ديفيز ونشرتها مطبعة اكسفورد فى السبعينيات من القرن الماضى. وكان رد الفعل مثيراً لدى الطلاب الأمريكان والانجليز وهم على قدر عال من النضج والذكاء.

وهناك العديد من الروائيين والشعراء المغربيين والجزائريين استطاعوا أن يقتحموا السوق الأوربية برواياتهم وقصائدهم المكتوبة بالفرنسية مع أن مواضعها كلها كانت عربية محضا.

وإنه ليصعب حصر أسماء الذين نشروا وما زالوا ينشرون فى لغات الغرب رواية وشعرا ونقداً أدبياً ومن هؤلاء ادوارد سعيد فى أمريكا ومصطفى بدوى فى إنجلترا.

وفى هذا دليل على أن الطاقة العربية على إثارة الانتباه إلى عطائها قائمة دوما.

ومن العرب كتاب كثيرون كتبوا ويكتبون لسبب أو لآخر باللغات الأجنبية وبخاصة بالانجليزية والفرنسية ويجدون لهم مكانة ربما كانت فى الصدارة . فجبران خليل جبران على سبيل المثال تقرأ أعمال كتبها بالانجليزية على نطاق واسع لا يتحقق إلا لكتابات نقد قليل من أكبر الكتاب المعاصرين وقد جاءت فترة كان يباع فيها من كتاب« النبى» لجبران حوالى مائة ألف نسخة سنويا .كما أن جورج شحادة كتب شعره ومسرحياته بالفرنسية وخطى بشهرة بين الكتاب الفرنسيين الأعلام.

ونود فى النهاية أن نخلص مما قلناه آنفا إلى بعض الحقائق فما من شك فى أن لغة ابتدعت «ألف ليلة وليلة» ستبتدع مالا يحدد للإنسانية من الانتباه إليه ولكن لابد من التأكيد أيضا أن العالمية ليست صفة لأدب أمة ما دون الأمم الأخرى ، أو لغة ما دون اللغات الأخرى فالمنزلة الحضارية لأية أمة تلعب دورها . وهذا لاريب فيه وإنما المسألة فى صلبها إنما هى رهن بظهور أفراد أفذاذ هم من خلق مجتمعهم وتراثهم وهم فى الوقت ذاته من خلق عبقرياتهم الخاصة. من سندباد ألف ليلة وليلة إلى هاملت شكسبير ، ومن دوشيوفسكى إلى صوفوكليس فتغدو رموزا تتعامل مع البشرية فى محاولة لفهم الوضع البشرى ، وهى محاولة لا تنتهى إلا بانتهاء الإنسان موضوع هذه العالمية العزيزة المطلوبة ، وما أعمال هؤلاء الافذاذ على تباين لغاتها إلا جزءا من حضارة واحدة وما هى إلا أوجه متعددة لهم إنسانى واحد أو هموم إنسانية واحدة.



هيجل والمطلق الفلسفى

د. ربيع الدبس

بقى القرن التاسع عشر يتفاعل مع الفكر الهيجلى ،كأنه لم يعرف العيش فى أوروبا إلا مع هيجل أو ضده، ولعل أولى محاولات الانعتاق من منظومة الفكر الهيجلى جاءت مع الفيلسوف الدانماركى كيركيجارد، وهو الأب الحقيقى للوجودية ،فقد رأى صاحب المؤلفات المشبعة بالفردية والمؤسسة عليها أن فلسفة هيجل تجرد الإنسان ومن وجوده الحقيقى ، وتجعل منه هيكلا عظميا بفعل الفكر التجريدى الذى أبعد الإنسان عن واقعه الحقيقى حينما ألغى اعتبار ماديته وتاريخيته وصيرورته(١) .أما اليسار الذى كان يطالب بتغيير الواقع تغييرا جذريا خصوصا فى أواسط القرن التاسع عشر، فقد عبر كارل ماركس عن رأيه(أى اليسار) فى المنهج الهيجلى بقوله: «وجدت هيجل واقفا على رأسه فأوقفته على قدميه» . وواقع الأمر أن ماركس حاول أن يدمر للهيجلية بوصلتها حين نفى تماهى الفكر والواقع ،وحاول فى أبحاثه التاريخية والاقتصادية إثبات مادية التاريخ والفكر . ولم يحتفظ ماركس من هيجل فى فلسفته بأكثر من المنهج الجدلى والنزعة الديناميكية الصادرة عنه ، التى تنتقل بموجبها المجتمعات من المشاعية إلى الشيوعية ، مروراً بالعبودية فالاقطاع فالرأسمالية ثم الاشتراكية (٢).

والمنطلق الهيجلى ذاته يقول بوحدة محتوى الدين والفلسفة بالرغم من اختلاف ظهور« الفكرة اللانهائية» بصور و أمثال فى الدين ،وتجليها بمفاهيم العقل فى الفلسفة ،وهى عند هيجل «فلسفة الحق» .فما هو عقلانى هو واقعى وما هو واقعى هو عقلانى ، ويضيف هيجل أن الدولة توجد

لذاتها أو أن الدولة هى الحياة الأخلاقية . ويعتبر الدولة «الكلى الأخلاقى والحقيقة الواقعية للحرية»(٣) .كما يرى هيجل أن العقل حاضر فى الدولة إذ المواطن هو «الضمير الفردى الخاص المتعالى إلى كليته» والدولة هى إرادة الإنسان كما يريدها بعقل . يقول هيجل «الدولة هى الحقيقة الواقعية للفكرة الأخلاقية ..فالدولة بما هى حقيقة واقعية للإرادة الجوهرية ، حقيقة واقعية يملكها الفرد فى ضميره الفردى الخاص المتعالى إلى كليته **universality**. هذه الدولة هى المعقول بذاته ولذاته . وهذه الوحدة الجوهرية هى هدف بذاتها ،مطلق وثابت، هدف تبلغ فيه الحرية حقها الأعلى ، بالإضافة إلى أن هذا الهدف النهائى يملك الحق الأعلى تجاه الأفراد الذين واجبهم الأول والأسمى أن يكونوا أعضاء فى الدولة(٤) وحدها الدولة لها أهداف واهية وكلية فى الوقت عينه ،والأفضل القول انطلاقا من ماهيتها أن لها أكثر من الأهداف ، لها هدف واحد ، هدف يمكن التفكير بأى هدف غيره: العقل وتحقيق العقل ، أى الحرية ،فالدولة هى العقل المتحقق ،وبما أنها عقل متحقق فهى الحرية الايجابية التى لا تعلوها أية حرية عينية(٥) .وفى زعم هيجل أن الألمان وعوا الحرية على حقيقتها وميزوها عن الانسياق وراء النزوات .أما اليونان فوعوا الحرية لكنهم لم يعتبروها للجميع فاتخذوا لهم عبيدا .وأما المشارقة فى رأى هيجل التاريخى فلم يكونوا واعين حريتهم ، ولذلك لم يكونوا أحراراً.

ويستخلص هيجل من تاريخ العالم« أن تطوره كان مسارا عقليا وأن التاريخ يشكل المجرى العقلى الضرورى لروح العالم» .وكأنه يقول إن الدراسات التاريخية لا تقدم سوى فكرة واحدة هى أن العقل يحكم التاريخ . ويرى إمام إمام (الذى يفتقر تعريبه إلى الدقة) إن فكرة العقل تحتل فى فلسفة هيجل مكانة مركزية حتى أن فلسفته لا تدرس موضوعا واحداً فى مجالات مختلفة: العقل الخالص فى المنطق ،والعقل فى حالة اغتراب عن نفسه فى الطبيعة ،والعقل حين يعود إلى نفسه فى فلسفة الروح(٦).

ولابد من التمييز بين مراحل ثلاث على الأقل فى حياة هيجل ، مرحلة هيجل الشاب النازع إلى اللاهوت ، ومرحلة هيجل الفيلسوف المشرب فى البداية أفكار حركة التنوير(خصوصا ليسينج وهردر) وأفكار كانط ، ومرحلة الفيلسوف الذى تنضج مقولاته المطلقة فانداحت على مدى العالم. ففى أجواء المرحلتين الأولى والثانية أصبح هيجل فى جامعة توبنغن الصديق الحميم لهولدرلن . ومعلوم أن هولدرلن مشغوف باليونان والفكرة شبه الوحيدة التى كونها عن اليونانيين القدماء انهم شعب بطولى وخالد الشباب ، وإنهم الشعب الوحيد الذى عرف كيف ينمى سائر ملكاته الخلقية والجسدية بطريقة منسجمة ، والشعب الوحيد الذى عرف كيف يخلق حياة جميلة حقاً .. وترسخ الإعجاب الذى كان هيجل يشعر به لاتجاه الاغريق ، بسبب احتكاكه بهولدرلن ، فكانت الحرية السياسية فى المدن اليونانية تستوقفه دوماً ، فيرى فيها مدماك الإنسانية السامية التى تنامت فى تلك المدن .وخضع هيجل فى جامعة توبنغن لتأثير حركة التنوير **Enligtenment**الذى لم يملأ كلية الفلسفة وحسب بل كلية اللاهوت أيضا(٧) . ثم طور هيجل مفهوماته بل مشروعاته للحياة والحب والحرية فعارض حركة التنوير وكانط وتجاوزهما .وفى مجال حرية الفكر رأى هيجل أن الفكر يكون حراً عندما لا يكون مستعبداً لمعطى خارجى ، بل يتحرك بذاته واضعا ، داخل ذاته ، تعيناته الخاصة.

صحيح أن هيجل وصف مذهبه بالمذهب المثالي ، وتحت هذا الشعار يصنفه دائماً مؤرخو الفلسفة ، لكن عبارة المثالية فضفاضة .لذلك ينبغي أن ندرك بأي معنى اتخذها هيجل . ينبغي قبل كل شئ أن نستبعد المعنى الشائع للكلمة ومفاده أن نقابل باستمرار المثالي بالواقعي ، أي ما يجب أن يكون بما هو كائن .ولعل هدف الفلسفة الحقيقي هو أن نفهم الواقع وأن نجعله معقولا بالتمام . يجب أن نسلم بأن كل شئ هو عقلي «فكروي» أي أنه قابل للتعقل بصورة مطابقة ، وأنه من طبيعة أفكار العقل ذاتها. أما لهيجل «فليس ثمة شئ في ذاته ، وليس ثمة واقع مستقل عن الفكر .غير أن هذا لا يعني أنه لا يوجد سوى كائنات مفكرة على شاكلة ما يبشر به بيركلي الذي يصفونه غالبا بالمثالي .إن صورة المثالية هذه التي تعتبر أن الأشياء الحسية ليست سوى عالم ذاتي ، أي عالم الوجدان ، يرفضها هيجل باعتبارها موقفا سطحيا . ولكي نقتنع بذلك فلنفكر بهذا المقطع من كتابه (محاضرات في الاستطيقا).

«إن ريش الطيور المتعدد الألوان يلمع ، حتى لو لم يره أحد، وصداحها يتردد حتى ولو) يسمعه أحد، وهذه الصبارية التي لا تزهر إلا ليلة واحدة ، وتلك الغابات الاستوائية التي تشتبك فيها أجمل النباتات وأخصبها وتفوح منها أعذب العطور ،كل ذلك يذوي ويسقط مهترئا دون أن يستمتع به أحد».

إن المعنى الذي يعطيه هيجل لكلمة «مثالية» هو الذي يجعل الفكرة الشاملة هي المطلق أو المبدأ الأعلى . فماذا يجب أن نفهم من ذلك؟ نحن نعرف أن الفكرة- المثال بالنسبة لأفلاطون هي الماهية المفارقة للمحسوس ، أي النموذج العام الذي تشارك فيه الكائنات الجزئية في العالم الحسي .غير أن مثال أفلاطون متعال ، ومذهبه ثنائي لأنه يقابل بصورة جذرية بين العالم المعقول والعالم المحسوس .أما الهيجلية ، بعكسه، في رأي **Rene Serreau** فهي فلسفة المحايثة:

فالمطلق هو الذات الكلية التي تحتوي على كل شئ وليست الأشياء كلها سوى تناميها الديالكتيكي . فهذه الذات الكلية التي يسميها الفكرة الشاملة أو الأفهوم.فالأفهوم هو المفهوم الكلي الذي يشتمل على تعيناته في تنام ديالكتيكي .وبهذا المعنى أنه ما هو عيني على الإطلاق .. إن ما هو أول بالنسبة لهيجل هو الفكر . ولكن ليس الفكر الذاتي ، أي مجرد الظن ، بل الفكر الموضوعي الذي يتماثل مع الكلي .أما الكلي الحقيقي أي كلي العقل فهو الأفهوم ، أي الفكر الذي يتحدد ويتعين ويتخذ مضموناً.

إن المنظومة الهيجلية هي شرح موسع لديالكتيكية واسعة: الفكرة، الطبيعة ، والروح . وبتعبير أدق ، إنها تدرس الفكرة الشاملة، أي المطلق، وذلك في اللحظات الثلاث للمنهج الديالكتيكي : الوضع (القضية) والنفي(النقيضة) والتوحيد (التأليف أو الجميعة كما يسميها عبد الله العلايلي) .فالفكرة الشاملة، أي المطلق ،هي قبل كل شئ الفكرة المحض ، أي أساس كل وجود طبيعي وروحي ،وهي بذلك تعادل ما يسمى في الفلسفة الروحانية بالفكر الإلهي قبل خلق العالم. ثم انها بعد ذلك الفكرة المتخارجة التي تخرج من ذاتها لتظهر في الزمان والمكان على أنها الطبيعة. وأخيرا ، إنها الفكرة العائدة إلى ذاتها بعد هذا الاغتراب ، فتصبح عندئذ روحاً واقعياً ، أي فكراً واعياً لذاته(٨).

وإذا كان هيجل قد رد كل نشاط إلى العقل فالوجود في جوهره روح مطهر من كل واقع مباشر يتسامى دائما إلى تصورات من هنا تغدو الفكرة التي تجمع في ذاتها الفكر والوجود ، الذات والموضوع ،هي الواقع الوحيد . وتنطلق هذه

الفكرة نحو الله ،وهو الروح الخالق للعالم . وكانتنا بهيجل جعل المنطق لاهوتياً يبين فيه تطور الفكر بحيث يغدو عقلا كاملا وفكرة مطلقة. وتكشف الفكرة المطلقة عن ذاتها في صور أولية ،في الطبيعة التي تغدو نقيضا لها، ثم تكشف عن ذاتها في التاريخ ، الذي تعمل فيه متحررة من الواقع الموضوعي ، معتبرة هذا الواقع تعبيرا عن جوهرها وتصل الفكرة المطلقة إلى أسمى مقام لها في الفن والدين والفلسفة كأنما هيجل قد غلف العالم كله بغلاف عقلي تتحقق فيه وحدة الفكر والوجود.

على أن تطور العالم لا يأتي عفواً ، وإنما هو تعبير عن حركة عقلية ، وتضم هذه الحركة في صميمها الفكر والوجود ، فهي ذات وموضوع في أن واحد . ووظيفة العقل عند هيجل تختلف عن تلك عند كل من ديكارت وكانط، فالعقل عند ديكارت يجمع اليقينيات التي بلغت من الوضوح والتميز حداً أقصى ، وعند كانط يشرع العقل للتجربة بمقولات أولية مطلقة ضرورية . وإذا كان كانط ،كما ديكارت ، يغفل التجربة، فإنه كان حريصا على أن يكون العقل الخاص هو المقنن لها. أما هيجل فينظر إلى الطاقة البشرية بوصفها طاقة تطورية مستمدة من المادة لكن العقل يبقى أسمى شأنا من المادة.. وتاريخ البشرية هو تاريخ الفكر ،وحركة التاريخ هي حركة الفكر ، وعلى ذلك فتفسير الواقع لا يكون إلا بالفكر المبثوث فيه . من هنا أهمية التاريخ لدى هيجل ففي التاريخ يتم اتحاد الفكر بالواقع .وقد يبدو لأول وهلة أن التناقض يفضي إلى تدمير الواقع ويؤدي إلى بث الفوضى في نشاطه، لكن التناقض عند هيجل إيجابي بناء فهو شرط جوهري لتطوير الواقع . ويمكن أن يكون التناقض هداماً لو أدى إلى أن يدمر الطرفان النقيضان أحدهما الآخر ، ولكن من هذا التناقض بين الطرفين ينبثق طرف ثالث متمثل في شئ جديد ،وكأن هذا الشئ الجديد أشبه بلحظة متمخضة عن لحظتين متصارعتين ، وتلك سمة أساسية لما نلاحظها في الواقع الإنساني من صيرورة. فالتناقض عند هيجل معين لا ينضب من إمكانات التطور وحوافز التقدم.

واستبعاد التناقض ينم عن فهم سطحي للواقع . والتغلغل في صميم الواقع يكشف عن تلك الحركة الأساسية التي تتبدى في الصراع بين المتناقضات وتتمثل في عملية التنافس وهي عملية كيانية في صميم الوجود الإنساني . هذا التنافس يفضي إلى تأليفات مثمرة تؤدي دورها ولا تقف عند حد ، بل تنجم عنها حوافز جديدة للصراع وتنبثق منها أفكار جديدة متناقضة ، وبذلك نرى التراث البشري زاخراً بتصورات تحمل في طياتها لحظات ثمينة في تطور الحياة الإنسانية(٩).

وفي المعتقد الهيجلي أن العقل الكانطي فارغ لأنه ينتظر الاحساسات حتى يمتلئ فالوعي الذي ثمرته التصور ليس موازيا بالضرورة لليقين الحسي . وما يكاد الوعي يتيقظ ويرتقي حتى يتبين أن موضوعا ما ليس هو الحقيقة .فإذا قلنا:«الآن يبسط الليل جناحه» ربما أعقب ذلك مباشرة : «الآن لاح الفجر» ففي غمضة عين انتقلنا من موضوع محسوس إلى موضوع محسوس آخر . وإذا قلنا «هنا شجرة» ثم استدارنا فقلنا «هنا منزل» ، ففي المكان نفسه تغير الموضوع ،ومثل هذه التصورات : الليل ، الفجر ،الشجرة ،المنزل ،،هي معان أعمق من أن نحيط بها ونحن محصورون في نطاق الوعي الحسي ، ولا يمكن أن نصل إلى هذه المعاني إلا إذا تطور وعينا وارتقى .فالوعي الحسي، على هذا ، قاصر عن الإنطلاق نحو آفاق تفتحها أمامه التصورات .إذا لابد لهذا الوعي من أن يتطور حتى يمكنه أن يتغلغل إلى

أعماق التصورات .وهنا يحضرني نقد هيجل لزميله شيلينخ في النتائج التي توصل إليها .فالمطلق لدى الأخير يشبه ليلة جميع الأبقار فيها سوداء.

ويرمى هيجل من هذا يمكن توضيحه كما يلى . فحيثما قلنا، هنا شجرة» يمكننا أن نقول «هنا لا شجرة» (بيت أو حديقة) .فقولنا «هنا» ينطوى أيضا على «اللاهنا» .وحين نقول «منزل» ينطوى قولنا أيضا على« اللامنزل» فنفكرة السلب ماثلة دائما في لحظة الإيجاب .ولابد من مثول هذه الفكرة إذ بها وحدها يمكن أن يتسع مجال النظر عندنا، فلو اننا وقفنا عند فكرة الايجاب وحدها لكان معنى هذا اننا انتهينا في تجربتنا عند حد لا نتخطاه .لكن مثول فكرة السلب أي بروز التناقض هو الذي يمكننا من أن نخطو من دائرة الوعى الحسي إلى دائرة أوسع منها .فبالتناقض والتناقض وحده يتيقظ الوعى ويرتقى .واليقين الحسي أن هو الا خامة تتشكل في ظواهر تزداد وضوحا كلما تبدت المتناقضات وبرزت المباينات(١٠).

المنطق الذى استخدمه هيجل إذا هو المنطق الديالكتيكى القائم على التناقض والتقدم. وقد نظر هيجل إلى العلم والأدب والشعر والفن والفلسفة من هذه الزاوية الديالكتيكية ، فبحث في أشكالها وتطورها معتبرا إياها وسائل من وعى المطلق لذاته(١١).

وبرغم محاولة الفلاسفة المثاليين أن يخففوا من حدة التناقض الهيجلي أو أن يفسروه تفسيراً جديداً بحيث يكون تضاداًأوتضايقاً أو مجرد تقابل بين فكرتين ،فإن الباحث إمام إمام يرى فى كتابه الثانى عن« تطور الجدل بعد هيجل» أن الماركسيين لم يحاولوا قط تأويل التناقض الهيجلى بل على العكس أخذوه بحرفيته . يقول ماوتسى تونغ على سبيل المثال: «تصوروا هل يمكن لأى شئ من الأشياء المتناقضة أو أى مفهوم من المفاهيم المتناقضة فى الفكر البشرى أن يبقى مستقلا ؟ كلا بالطبع إذ بدون حياة لا يوجد موت وبدون موت لا توجد حياة .بدون أعلى لا يوجد أسفل وبدون أسفل لا يوجد أعلى .وبدون شقاء لاتوجد سعادة وبدون سعادة لا يوجد شقاء . بدون عسر لايوجد يسر وبدون يسر لا يوجد عسر. وبدون ملاك للأرض لا يوجد مستأجرون وبدون مستأجرين لا يوجد ملاك للأرض، وبدون برجوازية لا توجد بروليتاريا وبدون بروليتاريا لا توجد برجوازية .والأمر على هذا النحو فى جميع الأضداد وفى ظروفها المحددة تعارض الأضداد بعضها بعضا من ناحية ، وترتبط وتتداخل بعضها مع بعض من ناحية أخرى وتتبادل التأثير والاعتماد على بعضها من ناحية ثالثة»(١٢) ..طبعا هذا الطرح المادى يجد أصله فى الأفلاطونية لكنه مشدود إلى المنهج الهيجلى وإن كان الأخير أكثر عمقا وتعقداً ، ذلك أن هذه الحركة التكرارية إذا أمعنا النظر فيها تبينت ضداً لنفسها .فهى تقيم فرقاً ما هو بفرق ، لا فى نظرنا وحدنا ، بل هى ذاتها تلغيه بما هو كذلك.. فالأمر لا يتعلق بالوحدة العارية التى تنتفى فيها جميع الفروق ، بل على الأصح بالحركة التى يظهر فيها يقيناً فرق ما ، لكنه إذا لم يكن فى الحقيقة فرقاً ، لا يلبث أن يبطل أيضا من جديد.

أما فى القلب الآخر وفى كتابه «فلسفة النفى» .يقول غاستون باشلار :«يجب أن نضع فى اعتبارنا ان التجربة الجديدة تقول: لا للتجربة القديمة وبدون ذلك فلن تكون هناك تجربة جديدة .لكن هذه اللا، لا تكون قاطعة أمام عقل يجدل**Dialectise**مبادئه(١٤) .وهنا يؤدى بنا إلى مقولة أهم عند بشلار وهى أن كل

معرفة أياً كان نوعها هي بالضرورة معرفة ضد معرفة أخرى ، وإن كل معرفة علمية وكل ثقافة علمية لابد أن تبدأ أولا بعملية تطهير عقلى ، ثم تبقى بعد ذلك المهمة الأكثر صعوبة وهى أن نجعل الثقافة العلمية فى حركة مستمرة وأن نستبدل بالثقافة المغلقة الساكنة ثقافة مفتوحة متحركة وأن نجعل جميع المتغيرات التجريبية جدلية وأن نعطى أخيرا مبررات التطور والنماء.

أما لينين فيبدى إعجابه بالعقل الهيجلى الخلاق لأنه يحلل مفاهيم تبدو وكأنها ميتة فيظهر ان فيها حركة.... المتناهى؛ أنه يعنى التحرك نحو نهاية . ويرى أن هيجل هو بالضرورة محق كلياً من حيث مباينته لكانط . فكر يتقدم من العينى إلى المطلق ، شرط صحته ، لا يبتعد عن الحقيقة ، بل نقترب إليها(١٥) . إن أى طرح أو اقتراح عندما يؤخذ معزولا عن الآخر ، مجردا، هو باطل. ولكن إذا أخذ كل منهما كممم للآخر فهو الصحيح أو الأحرى أحد وجهى الحقيقة . إن بطلى الاقتراحين فى راى هيجل هما كفارسين فى قصة تمحورت حول مسألة ما إذا كانت الدرع من الذهب أو من الفضة وفى الحقيقة كان أحد الجانبين من الذهب والآخر من الفضة . لكن كلا من الفارسين نظر إلى واحد فحسب . هذه هى الجدلية التى اعتبرها هيجل كما فعل أفلاطون من قبل، الطريقة الأسلم للفلسفة ، لأن العالم يتشكل فى الواقع من متناقضين متصالحين فى الوقت ذاته(١٦).

اللون والصوت والحرية أفكار عند هيجل وكأنه يقول إن كل ما فى الكون هو تعبير أو تعريف أو مثل عن فكرة الفكرة. إن المطلق الأصلى الذى قصده هيجل هو المفهوم الأساس للفلسفة وكل فلسفة أصلية هى بالضرورة مثالية. فالمتناهى (الحقيقة) يمكن وصفه بلحظة من اللامتناهى أو المطلق (العقل) علماً أن هذه العلاقة لم تحسم أبدا عبر التاريخ بشكل صحيح (١٧).

يعنينا أيضا من هيجل اعتباره أن الفلسفة قوامها الأفكار ، لا ما هو موصوف عادة بمجرد «مفاهيم» واعتبر «أن علم الحقوق جزء من الفلسفة ولذا فعليها أن تطور الفكرة ، التى هى الشأن العقلى ضمن شئ ما(Gegenstand) بمعزل عن المفهوم ». كما أن حقوق الوعى الذاتى تتضمن لا صناعة القوانين المعروفة للعامة فحسب ، بل أيضا إمكانية معرفة كيف يتحقق القانون فى حالات خاصة، أى معرفة مسار الأحداث الخارجية والدعاوى القضائية والنقاشات القانونية وما إلى ذلك(١٨).

خلاصة القول أن هيجل استبق بعضا من الاتجاهات المهمة التى اقترنت بفلسفة ما بعد الحداثة . فحتى هربرت ماركيوز استند فى كتبه إلى الجدل الهيجلى واعتبر ماركيوز أن كتاب(ظاهريات الروح) هو المحاولة الأولى والأخيرة لتأسيس لا تأريخية المعرفة المطلقة. وإذا كان كتابا (المنطق) و(موسوعة العلوم الفلسفية) يعتبران الكتابين الأرشد لفهم هيجل ، لا فى مقولة المطلق فحسب بل فى مقولة الحرية نفسها . فالحرية فى رأى هيجل لا تولد بغير القانون، والقوانين التى لا تتغير هى قوانين سيئة. من هنا ، وقياسا على فكرته المركزية عن التغير فاننا نعتقد أن هيجل هو فيلسوف التغير بامتياز . لكن هذا التغير يجرى بشكل ديالكتيكى . والديالكتيك لا يتوقف .فما دام ثمة شئ فهناك نقيضه وهناك التركيب وهذه الثلاثة هى تعريفات للعقل؟ وكل موجود هو تعبير عن العقل الديالكتيكى المطلق وكل تركيب Syn- thesis يعود فيلعب دور الفكرة المطروحة Thesis رقم ٣ وكل SYnthesis يصبح Thesis لنقيض جديد وهكذا.

المراجع

١- هنا غانم ، نيتشه بين حديث ومعاصر تجاوز هيجل؟ مجلة عالم الفكر، الكويت العدد ٤ المجلد ٣٠ ، أبريل -يونيو ٢٠٠٢ ،ص٨.

٢- المرجع نفسه ص٩.

٣- هيجل ،ج. ف : محاضرات في فلسفة التاريخ ، الجزء الأول ، العقل في التاريخ تعريب إمام إمام، القاهرة ، ١٩٨٦ ، ص ٧٩ ، ١١١، ١٢١.

٤- هيجل ، فلسفة الحق، الفقرة ٢٥٨.

٥- ، ابل ، اريك ، هيجل والدولة ، تعريب نخلة فريفر ، دار التنوير ، بيروت ١٩٨٦ ، ص٥٣.

٦ - هيجل ، محاضرات في فلسفة التاريخ- الجزء الأول :العقل في التاريخ ، تعريب وتعليق إمام إمام، دار التنوير ، بيروت ١٩٨٣ ، ص ص٤٢ ٤٤.

٧- انظر مدخل المعرب جرجي يعقوب إلى كتاب هيجل بعنوان :جان سوع ، دار التنوير ، ١٩٨٤ ، ص١٦، ١٧.

٨- أنظر سرو ، رنيه ، هيجل الهيجلية ، تعريب أدونيس العكره ، دار الطليعة ، بيروت-١٩٩٣ ، ص ص٢٤ ٢٥ ٢٦ ٢٧.

٩- عويضة ، كامل محمد، هيجل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٣ ، ص ص١٨-٢١.

١٠- نفسه ، ص٢٤.

١١- سبيتي ، حسن محمد ، التيارات الكبرى للفكر الإنساني ، دار المواسم ، بيروت ٢٠٠٢ ، ص١٠٨.

١٢- أنظر إمام إمام ، تطور الجدل بعد هيجل ، الكتاب الثاني :جدل الطبيعة ، دار التنوير، بيروت ١٩٨٤ ، ص ص٥٣ ،٥٤.

١٣-أنظر هيجل ، علم ظهور العقل ،تعريب مصطفى صفوان ، دار الطليعة ، بيروت ٢٠٠١، ص١٢١-١٢٢.

١٤- Bachelard G : la philosoplie du non, Essai D'une nouvel Esprit Scientifique, P. U. F,1949, P10.

15- See Reader in Marxist philosophy: From the Writings of Marx,15-engels and lenin ed .H.Selsam & Martel ,NewYork Int'puplishers,1973, p .331. 339

16- Webb, Clement C. J A history of philosophy,Williams & Norgate LTD, London, 1924 , P.221.

Haj-Ismail., Haydar : The Genuine Infinite: The Fundamental Notion of philosophy :A Research published in "philia" magazine puplished at Arkin University, Ohio , 1997.

18-See Hegel , G.W.F, Elements of the philosophy of Right Cambridge texts in the History of political thought, Ed. Allen Wood, Tr.H. b. Nisbet, Cambridge University Press, 1991, PP25, 26, 254.

حالم بفلسطين



أحقا الكتابة خطرة ومقلقة؟ ، إجابة السؤال عند، جاك دريدا، الذى قال، إنها خطرة ومقلقة، لأنها «بدئية» أو تدتشينية، بالمعنى الأكثر فتوة.

ألهذا يا ترى حدث الهجوم والاحتفاء معاً بهذا الكتاب «حالم بفلسطين» الذى كتب بعين شابة صغيرة؟ لكن وقبل الغوص في عالم الكتاب والاشتباك مع ما أثاره من قضايا، يجدر بنا ذكر بعض المعلومات والتى صارت بدهيات عن الكتاب ومؤلفته –

عندما شاهدت راندة الفتاة الإيطالية المصرية السمراء التى لم يكن عمرها قد تجاوز الخامسة عشرة ربيعاً – الطفل الفلسطيني محمد الدرة يقتل أمامها على شاشة التليفزيون برصاص جندى إسرائيلى، تأثرت بوحشية ما رأت وهى الفتاة الرقيقة ذات الحس الأدبى المرهف، لم تصدق عينيها، لم تكن تعرف عن القضية الفلسطينية إلا القليل مما ينقله الإعلام الغربى، لم تصدق أن مارأت يقع على مرأى ومسمع العالم كله، حتى سمعت بأذنيها ذاك الجندى يقول متفاخراً: قتلت الابن وتركت الأب حياً حتى يتعذب» ذهلت وقررت أن تبحث عن الحقيقة راحت تسأل والديها، وتقرأ فى الكتب وتبحر عبر صفحات الإنترنت، اكتشفت وفهمت الكثير وكتبت قصة قصيرة فازت عنها بجائزة أدبية للأطفال فى إيطاليا، حولتها بطلب من الناشر الإيطالى إلى رواية لاقت إقبالاً كبيراً، فطبعت ثلاث مرات، وكتب عنها أكثر من مائة عرض وتعليق ثم بدأت

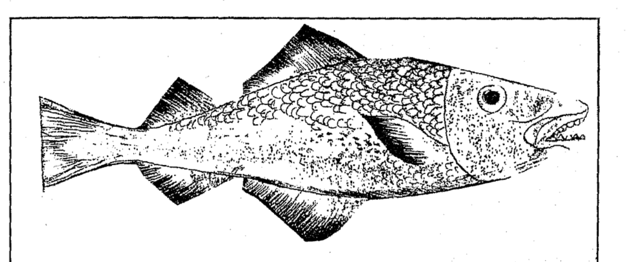
ترجماتها تظهر، وبدأت معها الشهرة الدولية والمهاجمات من اللوبى اليهودى الذى لا يريد أن يقرأ العالم أو يرى أو يسمع إلا وجهة نظره وحده.

هذه في عجالة وخطوط عريضة بعض ما أثير عن الكاتبة وملابسات تأليف الكتاب أو القصة حسب تعبير المؤلفة. ولسوف نبدأ من هذه الكلمة «القصة» رغم سخونة الأحداث ومعرفتها بمكانها ومراحلها وتطورها، إلا أن الكاتبة أطرتْ هذه الأحداث والوقائع التاريخية بإطار فنى، ولنقرأ ما جاء فى كلمة الإهداء صفحة ٢٣٩؟ «اهدى هذه القصة، التى تعد كل شخصياتها وأحداثها باستثناء بعض الأحداث المنقولة عن وسائل الإعلام، من صنع خيالى بالكامل – إلى محمد الدرة جمال الدرة، الذى مات مثل أحمد، مثل وليد، بدون سبب، بشجاعته، أهديه هذه القصة وأدعو لأجله أن يحظى أينما كان، أينما وجد، بشئ أفضل من الكراهية والموت فى تلك الحرب» أحمد، وليد ، نضال، جهاد، وابراهيم، ريهام، رامى. هم أبطال هذه القصة الطويلة لكن هل هذه قصة حقاً، أعنى هل بها تقنيات وفنيات كتابة القصة؟ أم أن الفنيات والأسلوب والبناء بصفة عامة، عوامل تأتى فى الدرجة الثانية أو الثالثة فى هذا العمل، لا شك أن الملمح السياسى لعب دورا كبيراً فى شهرة هذا الكتاب، ولا شك أيضاً أن الكاتبة، صغيرة السن، لعبت دوراً، كذلك مكان النشر واللغة المكتوب بها الكتاب – اللغه الإيطالية –وبالتالى فى قلب المركزية الأوربية، حيث الميديا الجبارة. إضافة الى ما سبق ذكره، يمكن القول، أن البكارة فى الكتاب وتدشينه لعده أسئلة، صارت الآن، تحرك الضمير البشرى هذا الغم الذى ومنذ فترة طويلة، دخل فى ليل طويل، كما وصفه الكاتب العالمى جارثيا ماركيز، فى بيانه ضد شارون ومجازره فى حق الشعب الفلسطينى

تلك الأسئلة التى دشنها الكتاب، أتت عن طريق الحوار أو الحوارات الكثيرة لذا، سأتوقف عند (الحوار)، قلب الثمرة فى «حالم بفلسطين».

الحوار يرتكز علي سؤال، وجواب، والأسئلة يثيرها أطفال وشباب صغار، يحلمون بالعيش فيسلام، إجابات أسئلتهم، تأتى عن طريق المجازر التى يرتكبها الجيش الإسرائيلى، فهؤلاء الأطفال، «رجال بالغون في مواجهة الحرب.. أطفال يلعبون أدوار الكبار، لأنهم مجبرون على اللعب. كبار يتمنون أن يصيروا صغارا، أجساد و أفكار كبار، لكن مشاعر وضعف ومخاوف صغار»ص١٩، هكذا يتحول الأطفال إلى رجال مسروقة منهم طفولتهم، ويتمنى الرجال أن يصيروا أطفالاً.

الخصيصة الثانية في العمل، (المشهد / الحرب)، لقد أفلحت الكاتبة فى أن تجعل الكتاب، مشاهد وحوارات داخل ساحة معركة، حرب شرسة، لدرجة أن أحد الأطفال يخشى الذهاب إلى البئر ، كى يشرب، «وماذا إن قابلت جندياً؟ وماذا وإن أصابت رأسى رصاصة؟»ص١٣، حرب يحمل فيها الجيش الإسرائيلى الأسلحة الفتاكة وفي المقابل الفلسطينيون يحملون الحصى والحجارة. الخصيصة الثالثة، سرد الأحداث التاريخية فى نسيج الكتاب – مذبحة قانا واحتلال لبنان، إيلول الأسود، فوز حزب العمل فى



الإنتخابات، اندلاع الانتفاضة الفلسطينية الخصيصة الرابعة، نشر الآيات القرآنية وطقوس وعادات المسلمين وأسماء الأماكن الإسلامية المقدسة. هذه الخصيصة على بساطتها مهمة جداً، لتأكيد الهوية العربية الإسلامية وحق الشعب الفلسطيني في أرضه. خامساً، رغم مشاهد العنف والقتل إلا أن هناك مشاهد الحب، ليس بين الفلسطينيين وحسب، بل بين رامي الفلسطيني والفتاة الإسرائيلية «سارة»، ورغم فشل هذا الحب، وسط دوامة الأحداث الدامية والحرب والكراهية من الطرفين إلا أن معناه ومغزاه ودلالته لا تخفى، فالتواصل والتعايش السلمي، أمل، لا يزال قائماً، ويمكن تحقيقه سادساً، مشاهد الحياة اليومية البسيطة وسط ساحة وأهوال الحرب،نقلتها لنا الكاتبة بعين ذكية، توحي لنا بأن الحياة لابد أن تستمر، وأن مقاومة الإنسان البسيط للظلم والقهر والموت، غالباً تكون بسطة مثله، «وجد ابراهيم عملاً في جزارة واستعاد بشاشته،كان يخرج صباحاً ويعود مساء، كانوا يأكلون معاً ثم يتبادلون الشاي أثناء تبادل الحكايات حول ما فعلوه طوال اليوم» ص١٤٣، هكذا وبكلمات قليلة وأفعال أقل بساطة نقلت لنا الراوية، جمال العلاقات الحميمة وتوق الإنسان الفلسطيني، أن يعيش في سلام، رغم ما يمارس عليه،

والسؤال يظل مطروحاً، ألن يحل السلام رغم أن اتفاقيات السلام لم تعد سوى سراب ولاسيما وأنهم يمسكون بكل الكروت الرابحة، كما تقول الرواية؟ وهل سيأتي يوم سوف يتوقف فيه الإسرائيليون عن حرق وتدمير الأراضي وقتل الفلسطينيين؟ هذا اليوم سيأتي، لا محالة، كما يقول «إبراهيم»، لأنه وببساطة لن يبقى شئ للتدمير ولن يبقى إنسان للقتل.

ولكن ألا يوجد؟، وهل سنقف متفرجين ومعنا الشعب الفلسطيني؟، حزمة الأسئلة هذه، ترد عليها «راندا غازي» عبر كلمات أبطالها:«تسألني كيف يمكننا الانتصار، وأنا أجيبك بالإيمان وعدم التخلي أبداً عن الإيمان ولا لحظة واحدة.

حتى لو قهرتنا المعاناة وحتى لو بقينا وحدنا في المحنة. يجب ألا يكون لدينا هدف آخرسوى الدفاع عما نملك.. عن أرضنا».



إبرة مكسورة

صفاء النجار

وحدها تحمل خوفها فى أحشائها ،يضطرب أمنها ويتمزق الستر الذى عاشت ترتق ثقوبه ، إحساسها بالمسئولية ، يدفع برأسها فى بحر من الهم ، تتقاذفها الأمواج السوداء إلى جزر العزلة والأشباح.

وكامرأة خاطئة تجرب كل الوصفات تدق بطنها ، تقفز من فوق السرير مرات ، يعاندها ويزداد بها التصاقا تتشبث بمحاولاتها ، لكنه يغلبها ، فتجلس على بلاط حجرتها الرطب وبكم جلبابها تجفف عرقها ، تركن ظهرها إلى الدولاب وتمد ساقيها على الكليم المضفر بقصاقيص الأقمشة.. قصاقيص تعودت جمعها من تحت ماكينات الخياطة فى المشغل المجاور ، تذهب أمها بالكيس المنتفخ وتعود به كليماً مستطيلا ، أقمشته كأيامها مختلفة الألوان والخامات لكنها فى مجملها باهتة.

تمر شتاءات عدة ومن برد إلى مطر تحصل على دبلوم التجارة المتوسطة ، ويصبح المشغل مصنعا تجلس على واحدة من ماكيناته.

ومن بين من تقدم لها من العرسان ، تشير أمها

ابن خالتك .. يسندك وتسنديه

تكتسى بالفرحة جدران البيت الذى ولدت فيه، يخرج سريرها القديم وتدخل حجرة نوم كاملة سرير ودولاب وتسريحة ، دفع فيها عريسها خمسمائة جنيه مقدم.

وفى كل مساء يعود يمسح رأسه فى صدرها ويضع فى يدها يوميته القليلة، فتضحك فى وجهه



وتقول.

-ولا يهمك ومرتبى راح فين.

يزداد ضغطها على الموتور ، وتتطلع إلى المشرفة ، تتمنى البالطو البيج الذى ترتديه وأوامرها .

الهمة يابنات ..الطلبية لازم تتسلم النهاردة.

الاف الأثواب تدخل وتخرج مفصلة بانحناءة ظهور وتدقيق النظر ،فساتين تتبختر بها نساء وفساتين ترنو إليها أخريات من خلف «الفتارين».(سألت شيخا أزهريا وغلفت السؤال بواحدة صاحبتى، وكان الرجل حاسما وإن بدى فى عينيه خيط إشفاق بعد أن مزقت مجادلتها واندفاعه الجزء العلوى من جسدها «غطاء واحدة صاحبنى» ،وصرخ.. توتر الوجه ولخمة اليدين بماذا أفعل؟.

فى المرة السابقة واصلت عملها وهى فى التاسع ، يضغطها بطنها ، وتضغط هى أكثر على الماكينة تنكسر إبرة بسرعة ، تستبدلها بأخرى ويستمر المكوك فى الدوران تسألها المشرفة وكأنها لاتعرف الحال.

-مش تستريحى بقى فى البيت.

حان موعد ولادتها ،وتأخر عنها الطلق ، قلقها على مرتب الشهر كاملا يبقى صغيرها فى مكمنه تتعاطف معها زميلاتها.

-هى أولى بكل يوم.

وبمجرد أن تفك سلك «العملية القيصرية» تترك لحمها فى حجر أمها، وتطل برأسها من باب المشغل ..لاشئ ينتظر فتاة أخرى تتشبث بماكينتها.

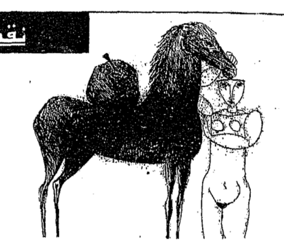
تترجى المدير ، يوافق

-دى آخر مرة تتركى فيها العمل ده مكن داير

منحنية تجمع القصاقيص أو منتصبة تحمل أثواب القماش كانت تتطلع إلى ماكينتها القديمة ، أحيانا تتحسسها وفى آخر النهار قد تمسحها بالقصاقيص حتى فاجأها سرها الجديد.

تتقوقع على نفسها ، مخافة أن يشم أحد رائحته ، وكلما لمحت الماكينة ، أشاحت بوجهها إلى الجهة الأخرى ومن خلف زجاج النوافذ العالية، تتفاعل كآبتها مع سحب الخريف المثقلة بدموع مؤجلة.

نقد



فى« نبوءات الطوفان .. والفلك المفقود»

الوعى بالزمن

عذاب الركابى

عبارة للشاعر والناقد «ماثيوأرنولد» تقول إن الشعر لايعكس الحياة إنما هو يبدع الحياة، وظللت أسير هذه الرؤية ، وتحضرنى كلما قرأت قصيدة أو ديوان شعر. وها هى تتجدد فى ذاكرتى ،وتوقظنى مرة أخرى وأنا أجمع أجزاء جسدى ..وشياطينى..وجنود أفكارى وأنا أقرأ «نبوءات الطوفان ..والفلك المفقود» لصديقى الشاعر د. وصفى صادق ، وأجد نفسى في حالة نشوة شعرية ، هيئتها ، عن جدارة ، قصائده رغم قتامتها ، وحزنها الشديد الذى يمكن تصنيفه من النوع الذى يوقظ ، ويغير ، ويجدد، ويفعل ، ويدق ناقوساً ، بل عدة نواقيس للخطر.. وهو الحرص الشفاف والحميمى من خطر الإلغاء ..خطر اللاوجود ..خطر الموت البطئ واليومى للروح العربية.. خطر الصمت المبرمج أحياناً والذى يفعل فعله فى إخراج الإنسان العربى من التاريخ ..من الوجود ..ومن الحياة أيضا ..هذا الصمت القاتل الذى وضع الشاعر وصفى صادق عليه أصابعه المرتعشة ، وتغلغل فى أسبابه ،ومسبباته ، أن نظل بدون ذاكرة ،من أجل هذا يحزن الشاعر ..يصرخ ..يتمرد ..يعرى ..يفضح ..ويلقى بشتائمه الملائكية التى لا تعكس الحياة كما أشار أرنولد إنما تجدد ،وتبدع الحياة ..وتوجد لها أبجدية جديدة:

لماذا فى غمرة الطوفان
كل منا .. يصنع فلكه الخاص؟.
(من أديم الجلد.. وحتى رياش الفراش)
يخشى أن تمس شعرة واحدة من رأسه
وتهون تحت أقدامه ..رؤوس تداس

وبقايا من أنفاس ص٧

الشعر من أشرس أدوات المقاومة، والدفاع عن النفس ،والوجود .ولحظات الحب، والتعلق ،والانتماء ، وإذا ما لجأ الشاعر إلى الصراخ بكل حبال حنجرته لا يعنى الخوف ،والخضوع والاستكانة ، إنما يريد أن ينفي عن نفسه تهمة اليأس ، والإحباط ،والسقوط في بئر الهزيمة ، هذا ما قرأته في كلمات الشاعر وصفي صادق الدافئة:

أحبابى الباكين فى قلبى الحزين
غنيت فى كفني لكم..
غنيت ..منتظراً قيامتكم غدا
لكن سدى..
فبكيت أزمانا وأزمانا
على هذا الزمان
وعبدت باسمكمو إلها..
اسمه الذل.. والهوان ص١١
إنه حزن على حزن ..!

وهو الوعي بالزمن.. فالذين لا يملكون وعيا بالزمنلا يضجرون ولا يحزنون حسب تعبير (سيوران» وسوداوية قاتلة**Melancholie**، وألم غير مسبوق ،حرقة غير مشهودة ، فارسها قلب نحيل النبض مرتجف ، رئتان من قماش الفصول ، أصابع ترتعش كأغصان وجلة ، على ثمرة يانعة ، مهددة بالعواصف والسقوط.. حنجرة صافية ..مشحونة بنغم، الطبيعة والكون ..إنه حزين حتى البكاء ..فبكى حتى الاختناق .وخانق حتى الموت..هذه الشفافية**transparency**الجارحة لاتكون إلا للشاعر:

أنا المحارب القديم
صرت رهين المحبسين:
الخوف .والميتتين،
سيفى المعلق على الجدار
يبكى هزيمتى .وخوفى المقيم
تسيل من جفون غمده الدموع
ترسم ظلا..
لجواد فى الدجى يهيم..

شاعر يفجر من خلال لغة شعرية مكثفة ، هادئة موحية ، وجارحة ،هو لا يسعى لخداع القارئ ووضعه فى حقل من الإلغام كما يتبادر إلى الذهن فى بادىء الأمر ، إنما يستحدث كلمات وعبارات قابلة للتفجير لمجرد اقتراب قلب نابض منها ، أو خفقة عين ، أو إرتعاشة إصبع ..هذه الكلمات «غيوم بلاماء» و«نجوم تائهة» و«نهر جائع» و«شجرة بلا ثمر ولا ظل» ، الهدف منها تفجير الواقع ، وتغييره بالإضافة إلى تفجير اللغة .وتطويعها لهم شعرى جديد.. ورؤية جديدة:

وشجرة التين ..
مورقة خضراء
لكن بلا ثمر .. بلا ظل..
أراها فى كل حين
تدعى الإثمار كذبا
وتخدع الجائعين ..
وتخدع الناظرين
بأوراقها الخضراء!
كاذبة هذه الأوراق
كفن أخضر ..
على رأس ميته!! .

«وصفى صادق» يعيد الدفء ،والحنان ، والشوق للكلمات .والقصائد التى تقوض مدنا ، وتقلب الممالك وتشعل الحرائق ،وكأنى به فى هذه النستولوجيا الجميلة يقول: إن القصائد التى لا توجع .ولا تقلق .ولا تزعج .ولا تغير .ولا تكون إنسانا .وأوطانا .. وسنابل .وحقولا .ومواعيد عشق ..علاقات صباحية ..ليست قصائد ..هى أشبه بالهتاف البارد.. والإعلان المكرر والرحلة السياحية التى تبعث الضجر .والملل ،،لأجل كل هذا يقول:

فصرخة الذبيح..
إن لم تقتل السكين : موت
أرخص موت!
وصرخة الذبيح ..
إن لم تجعل القبر..
بسره يبوح: موت ..
أسعد موت!

الشعر أرض النبوءات .والشاعر نبى العصر المدجج بالأسئلة والصانع الأمهر للعديد من علامات الاستفهام ..إذا كان متورطا وغارقا فى واقع ميت .ورث .ومهادن .ومتخاذل ، ساكن) حتى الموت ، غابت فيه شمس الفروسية والحماسة .. ساد الدمع .وانتحر الرغيف .واختفت الزغاريد.وتقاعدت السيوف .. وصارت الشجاعة والفتوة فى الأوطان ذكرى.. وهاهى الأوطان التى تغنت بأضوائها القصائد ..(تلد الفئران) والليل الطويل المظلم الحالك .والرياح قاسية.. صلفة .وغريبة.. وجدبة .وهنا تتناسل الغربان .ويستأسد الجراد فى انتظار (المهدى المنتظر) ولن يأتى هذا الفارس الكسير القلب ،ما دامت الأرض رهناً للجراد.. والغربان .والفئران .والفرح صار(أسود يتلألأ).

من أين ..؟
فى قبو دمى أتمدد فى الليل ..خرائب إنسان

يبكى فوق خرائب أوطان
من أين؟.
نفسى بيد الفئران
ذائقة الموتين
نفسى تنزف أنفاس الموت الملعون
اثنان أصابهما الطاعون
أنا والوطن المطعون..!
والشعر أقرب الفنون إلى الرسم!

فالقصيدة تبنى بالعديد من اللوحات التشكيلية (الرائعة واللوحة توحى بعدد لا يحصى من الكلمات ..والقصائد ،وهذه حقيقة أشار إليها أكثر من كاتب وفنان ..(الشعر رسم ناطق ،والرسم شعر صامت)قالها أحد الفلاسفة اليونانيين فصارت حاضرة عند الحديث عن علاقة الشعر بالرسم!

والصديق الشاعر« وصفى صادق» فى ديوانه الأخير (نبوءات الطوفان ..والفلك المفقود) يشكل ببراعة وحنكة ،وخبرة ،واحتراق ، يرسم بالكلمات عذابات نفسه القلقة الحائرة .. والتى هى عذابات جيله الذى عاش سويعات الوطن الجريح وهو يتحول إلى خراب **Ruin**وظلمة .. ودهاليز لا تنتهى ،والحياة العربية الخانقة المطرزة بالهزائم المتلاحقة –حسب تعبير جبرا إبراهيم جبرا كوارث ، وموت ..وخيانات .. وأوطان تباع بالمجان وخوف من الموت(بالسكتة العربية):

أبتى ..
أنا لا أخاف الموت
السكتة القلبية
فالموت ..حق .. ملكوت
لكننى لكم أخاف أن أموت
بالسكتة العربية

أو بشاعة الدخول فى الغياب الطويل ..والاستسلام للنوم الصناعى:

فلا أرى على المدى .. أحد
سوى وباء «اللاأحد»
أصاب أمة بأسرها إلى الأبد ..
إلى الأبد..

يقولون : تحيا القصائد بالنبوءات!
وأقول : يخلد الشاعر بحنجرة الله .. وروح نبى مطارد!!

والصديق الشاعر «وصفى صادق» يراهن على نبوءة القصيدة ..وفعل الطوفان ..وببراعة يبدل حزنه القاتم بالأمل الضرورى الذى يلد من رحم «الخراب الضرورى» الذى نادى به ، وباركه بصرخة موجعة الشاعر الفرنسى العبقرى «آرثو رامبو» ومن الطوفان حامل البشارة ..وآيات

الخلاص .جسدها الشاعر فى قصيدته : «دائرة النهر الفلسطينى» ..فى الطفل الجديد الذى فطم فى المهد على صوت الرصاص.. ولهيب الحجارة وصلف ورعونة وبشاعة المحتلين ..وإيقاع الشهادة اليومى ..الطفل الذى صار رجلا فى المهد ..رمز الوطن.. ويبشر بالوطن الجديد الذى لاتحده الأسوار ، ولا يعرف الشرطة ..واللوائح الجائرة ..والمخبرين ..وطن بحجم الطعنة .. وبسعة الأمل والابتسامة المفقودة ..مطرز بدعاء الأمهات .. وطن للعشاق والفقراء ..والمقاتلين ..تبزغ فيه الشمس على غير عادتها ..يسقط المطر اللؤلؤى ..تتناسل السحب ..والعصافير ..والأشجار على رقصات الطفلة– الحرية ..هذا الطفل المبارك بأدعية وتعاليم «الحكيم سليمان» هو الوطن الجديد ..الصباحى الندى.. الذى تصنعه القصائد.. ونبوءات الطوفان .. يركض بقدمين لولؤيتين على مساحات كبيرة من الأوراق الخضراء ..وفى وعى وذاكرة الشاعر:

هذا الطفل الرابض فى حضنى

هو ابنى ..فلذة كبدى

حلمى ..جائزتى للأبد..

فى بيت السماء حبلت به

وعلى أرض كنعان

كان الوعد ..وكان العود

طفلى عاد إلى اليوم

كما كان معى فى الأمس..ص٩٧

«أبانا القدير العلىّ

أبانا الذى فى دجى الوطن العربى ،

لك الحمد ..والشكر فى كل آن

لك الألف آمين

لك الحمد ..والشكر فى كل حين

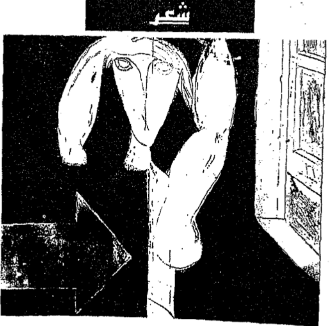
إلى أبد الآبدين ..

إلى أبد الآبدين.. ص١١٥

وبين آهات الروح الجريحة والأمل المتباعد ..وبين هم الشعر وعسل الطوفان المزلزل بالنبوءة ..وبين السجن الانفرادى الممتد فى اللازمن ومساحة الحرية الضيقة ..بين كل ذلك حالة عشق فريدة يعيشها الشاعر «وصفى صادق» بشجاعة وجرأة ..لوطن بنفسجى ..ليس كل الأوطان ..وطن حالم بمساحة القصيدة ..وقلب المرأة العاشقة ..والشجرة الحبلى بالثمار ..والعصافير الزرق .. وطن يحكمه الشعراء فيه الصباح منغم ..وكذلك الرغيف ..والأمل ..والعلاقات ..من أجله فقط يشرع نوافذ القلب ..ويفتح ممرات الجسد ، ويرفع آيات الشكر والامتنان.

* نبوءات الطوفان ..والفلك المفقود –شعر –وصفى صادق الهيئة المصرية العامة للكتاب –٢٠٠٢ القاهرة.

شعر



محاورات أمشير

عبد الرحيم يوسف

بكل احترام

ح اقطفك من قلبى ..

وبحرص بالغ

ح الفك ف ورقة بيضا

واتفرج عليكى وانتى بتغوصى ببطء فِ بير الذكريات

حلوه «بير الذكريات» دى!

أكيد بتفكرك بكلام زى :—

العمق، والعطش، والجفاف، والرحيل

لكن بالنسبة لى

مابتفكرنيش غير بالوهم

لإنى عمرى ماشفت بير حقيقى!

طبعا أنتى شاطره حبتين فى الهجوم المضاد

وح تعرفى تتجاوزى النقطة دى

بابتسامة تليق بملاك عجوز

بس أنا مصمم المرة دى أكمل الحدوتة بطريقتى

وأعرىّ كل الحاجات .وأقول...

والله ما أنا عارف أقول إيه

وأنا برفع كاسى بآخر حبة بيرة

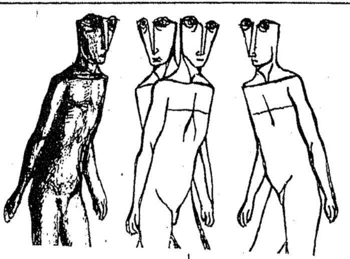
مع أنى مابحبش طعمها نهائى

لكن يظهر أن الحياة والحلاوة ضدين

وأنا .مضطر أعيش

زى المهرج ؟ لأ ..

زى الممثل ؟ يمكن..



وإيه الفرق ؟ ما اعرفش!.
لكن الأكيد
انى ح أعرف أكون رؤية حقيقية للموقف
بعد خمس دقايق
وح اسمعك أحلى كلام
بس أنتى صبرك علىّ .وما تستعجليش
لإنى باتوتر.. وبيسقط منى الكلام
الكلام اللى بقى لى ٣٢٠ يوم باعالج
مفرداته
واضبط زواياه
علشان يطلع– ف التحليل الأخير–
بشكل يليق بفيلسوف متحنط
داير يتسكع ع القهاوى
وبيادل أفكاره بـ: تمن ودان، وتلات سجاير
، وكوباية شاى
واما يروح ..ما يلاقيهش
فيشك ف تلات حاجات:– خلل المنهج،
أوجدوى النظرية، أو وجود البيرا.
معهلش سرحت بيكى شويتين
ويستحسن نرجع تانى لموضوعنا
بس يا ريت الأول تشيلى ايدك من قدامى

عشان اعرف اركز..
لو تعرفى ق دايه صعب علىّ الطلب ده..
خصوصاً وأمشير بيمارس هوايته الأزلية
ف تجميد أطرافى
لكن.. ما باليد حيلة!
ولازم الموضوع ياخد شكل موضوعى .بره
المشاعر والحاجات
وبعدين أنا كمان تعبت من ثنائية القرارات
والتراجع
وبدأت أحس بأهمية الأحادية، والحدية ،
والتحديد
حتى امبارح بالليل ، وأنا داخل البلكونة
بعد تلات أشهر غياب
بصيت للسما.. وعديت النجوم
كانوا سبعة بالضبط– شايفه فايدة
التحديد؟.
بيربشولى بحنيه مبالغ فيها
لدرجة أنى صعبت على نفسى .. ودخلت ..
وقفلت الباب ورايا .. بشويش
معلهش ..ممكن منديل لو سمحتى ؟..



بانت وفاء

صلاح اللقانى

حين التقينا ..
كان وجهك خارجاً
للتو من حمامه
الدموى
باغتتنى شهاب أيقظ
الأحياء والموتى بصدرى
كنت مزدحما تفيض
على المدى نفسى
وظل الروح مرتعش
رأيت الله يخرجنى
إلى صحراء عمرى
ألتقى نفسى بنفسى
ليس ثمة حاجز غير
السؤال الصعب،
مامعنى وجودك ؟
لم تكن فى عين عينى
قدرة حتى أصيد غزالة
الزمن المشاكس
لم تكن أحشاء كوكبنا
على كفى .. كى أتنصت
العزف الخفيف،
وأبصر الطير المراوغ.
حينما انفصلت عظام
الركبة الكونية
انهارت خيام من تراب
تحت أنفى،

كل ماجمدت مفاصله
تقوض
كل ما التأمت عراه
انحلَّ
صار الصخر زبدا
سائلا،
وانفكت الأيام ذرواً
هائما فى مستطيل الضوء
هل يكفى..
لكى يتوحد المضمون والشكل
انفجار الروح؟
أو تفجير غيم القلب ؟
هل يكفى..
انفصال يدى
لتلمس راحة الله ؟
الكلام سطا على جسمى
لينبت أحرفاً فى كل زاوية
فلا يبقى ..
سوى تمزيق هذا النص
حتى تصعد الأرواح فوق
سلالم المعنى
فتبصر ..
كيف أجزاء الحديد
تبيت فى بطن النسيج
الرخو ..
كيف الرمل أو

قطع الزجاج تسد
أفواه الجراح
وكيف ينمو القطر مخضرا على
سطح اللغات
وكيف يحمل وحده عصب
شريد وزن أهرام
من الآلام
كيف تكون لعبتنا مع الأيام
خاسرة، فنترك
فوق طاولة الزمان النرد
والعسل القليل..
ونكتفى بالموت
كانت شمس شارعنا تذوب
كأنها شمع على
جلدى ، وكان الخوف
يأتى فى قطار مسرع فيدس
بين أصابعى ..
وعلا جريحا
ثم يترك رغوة الصابون
بين رموش أحلامى.
هجرت طفولتى..
لأقيم فى زنزانة ..
المعنى.
رأيت الكوكب الأرضى
تحت ملابسى
رمانة ،



فأخذت أحصى : كم
من الأشلاء تكفيه
ليصنع من دمى
جبانة ؟
وأقمت وحدى ..
كوكبى ، ومدينتى
وسرير أفراحى.
رأيت هناك ميزاناً
وقردا..
قلت : لايكفى لكى
يختل نظم العقد أن
تثب القرود على
مفاتيح البيان ،
وليس يكفى أن يهز

الثور قرنيه لكى
تتطاير القارات فى
صدر الجريدة
بيد أن الدمع فى
أيقونة العذراء سال
وأشعل البرق الركاز
وذكريات اللحم
والنسغ الموزع فى
لحاء النخل
وانتشرت على الميدان
رائحتى..
وغنى تحت جلد
الثور ..
بستانى ،



فصل النحيب

محمد القيسى

نلتقى
قلت فى اللاذقية

قبل ذلك فى حمص قلت ،
وهانحن فى باب توما
نحاول فصلاً أخيراً
من المسرحية

نحتسى قهوة مرة ،
بالقليل من الكلمات ،

ونأسف عما اقترفنا من الوقت
فى حق هذى الضحية

نلتقى لنغيب
نلتقى
ليطول النحيب
بين يوسف والمجدلية.

اسير الكلام

يتيم الحرير أنا والمتيم ،
ماطرزتنى فتاة
على كمها
أو حظيت بخيط،
على قبة الصدر ، أو
نقطة فى الحزام

وجدت حياتى على رسلها
ووجدت أليسا
على طرف البحر،



تندب قرطاج،
بعد حلول الظلام

فقلت لها :
طرزينى ضحى يا أليسا
على جهة من مخدة رأسك،
أحرس أحلام ليلك،
حين تنامين ولا
أستطيع أنا أن أنام

وقلت لها : طرزينى على الشال ،
أنهر عنك الرياح،
إذا غازلت حول عنقك ،
ريش النعام

ولكن وجه أليسا اختفى فجأة
واختفى البحر ،
بينا حياتى على رسلها
لايطيب جناح لها
أو يطيب مقام

يتيم الحرير أنا
وأسير الكلام.

دون حريرها

أستدير عن البحر،
دون حرير أليسا
أميرة صور

أستدير وعشرون ضلعا
يئن على باب صدرى
وثمة خصلة شعر،
من الماء تلمع وهاجة
من بعيد العصور،

أستدير عن اللاذقية ، أخت نشيدى
تؤثث عزلتها
بين سور وسور

كيف لى أن أقول إذن
عالجينى بعقرب وقتك،
حتى أدور هنا
والبلاد تدور !

قصة



المطفأة

محمد حسن إبراهيم

انعكست أشعة الشمس على الأطقم والمصنوعات الكريستالية ، مصدرة تناغمات جذابة من ألوان قوس قزح ،من خلف زجاج واجهة المحل وقف الدكتور خالد يتأمل بشغف المعروضات التى رصت بأناقة ،ولم يلبث أن خطى داخلا.

كان قد حضر إلى باريس للمشاركة فى مؤتمر علمى لدول البحر الأبيض المتوسط ، فى أول زيارة له لأوروبا بعد حصوله على درجة الدكتوراة فى تخصصه العلمى.

أهتم أن يرى المعالم الثقافية لعاصمه النور، فأنتهز كل فرصة تتاح له للتجول وزيارة المتاحف الفنية وبخاصة اللوفر ، فهو بطبعه يعشق الفن ويتذوق الجمال بحاسة نقدية رفيعة.

لم يكن فى نيته الشراء عند دخوله المحل ،أحب أن يستزيد من الفرجة على التحف المعروضة فى داخله ، فأخذ فى تفحص كل قطعة متمهلا ويده فى جيب سرواله حتى لمح مطفأة سجائر أستوقفت نظره بفخامتها ونقوشها التى يتلألأ الضوء على حوافها فتكاد تضئ وهى تتوهج بالألوان القزحية الرائعة.

قرر أن يشتريها ولم يعبأ بغلو ثمنها ، وخرج يحملها فى علبتها سعيدا بها ،وقد أعجبه أن يجدها ثقيلة بأكثر مما ظن ، دليلا على متانتها وقوة تحملها.

على منضدة صغيرة قوائمها من الخشب المذهب وأعلاها قرص من الرخام الفاخر، استقرت المطفأة فى ركن من الصالون وتعمد خالد أن توضع بعيداً عن متناول الأيدى وكراسى الضيوف حتى لا يقترب منها أحدهم وهم كثيرون برماد سيجارة ، أو يتهور فيطفئ فيها العقب بعد تدخينها.

تسطع أضواء النجفة ، فتشع المطفأة الباريسية فى ركنها الأنيق والأحاديث تدور تصبغ الجو بعبق العلم وجديته عندما تنعقد جلسة الزملاء المنشغلين بأبحاثهم وكتبهم المتخصصة ، بينما يتسع الحوار عند حضور الأصدقاء إلى رحاب الفن والأدب ويتشعب إلى مختلف مجالات الثقافة، وتطل السياسة واختلافاتها فتنال نصيبها من الحوار دون أن تعكر صفو النقاش بنغمة تعصب . أو حدة تخرج عن اللياقة ، لحرص خالد البالغ فى انتقاء أصدقائه منذ الصغر ،حتى بالنسبة لزملائه لم يكن يسمح إلا لبعضهم ممن يوليهم الثقة والاحترام بدخول شقته الأنيقة المطلة على النيل.

بدورها تسطع الشمس فى الصباح فتتألق المطفأة تعكس أشعتها الملونة بكثافة تخطف أبصار صديقات شاهيناز زوجة خالد، فى جلستهن الصباحية، عندما تدعيهن لزيارتها ، ولا تتوقف ثرثرتهن التى تدور حول صيحات الأزياء ومشاكلهن الصغيرة مع الأولاد والأزواج المشغولين دائما بأعمالهم ،عادة ما يبدأ اجتماعهن بالشاى الذى تعده فتحية الشغالة ، ثم بفناجيل القهوة التى يصاحبها سيجارة تدخن برهافة لا تنال المطفأة ذرة من رمادها ، بينما تمتلئ الأخرى والموضوعة فى المنتصف بالرماد والأعقاب.

بقطعة قماش مبللة فى يد فتحية المدربة تمسح قطع الكريستال المتدلية من النجفة لتزيل عنها الغبار فيعود لها رونقها ، ثم تتناول المطفأة بعناية لتدلكها برفق من تحمل هم تلك اللحظات التى ترفعها فيها بعد أن بالغ الدكتور فى تحذيرها وهو يوصيها بالحرص على تلك التحفة، إذا اقتربت منها عندما يحل الموعد الأسبوعى لنظافة المنزل.

فى حركتها الطفولية اقتربت نهى ببراءة وهى تتعلم أولى خطوات المشى ، فتعلقت بحافة المنضدة الصغيرة ،ولما لم تستطع الإمساك بالشئ الغريب الذى يلمع فوقها ، أخذت تحاول وهى تدفع الأرجل الخشبية بكل جسمها ،وفى نفس اللحظة التى بدأت المنضدة تستجيب فيها للتأرجح التفتت فتحيه تبحث عن نهى لتوجسها من شقاوتها، وفى لمح البصر أسرعت لتلحق بها فترفعها بيد وتثبت المطفأة بالأخرى قبل أن تهوى على الأرض وهى تحمد الله على سلامة الاثنين معا .

ارتفعت من مكانها وأفسح خالد لها موضعا على أحد أرفف مكتبته بحيث لا تطولها شقاوة نهى ، وتوارت عن الأنظار وحجب عنها الضوء فى انعزالها فكفت عن إرسال بريقها إلا من جزء يسير يصله شعاع خافت ولايكاد يلحظه أحد.

أخذت الخطوات المتعثرة تنتظم ويقوى وقعها ، ويأخذ الادراك حيزا فى عقل الطفولة المتفتح بالأسئلة الكثيرة التى لاتنتهى ، وقبل أن يبدأ التمييز بقيمة الأشياء يحكم أفعال الطفلة كان أخوها عمرو قد وصل الدنيا وليدا .

لمعة بارقة خاطفة تنثر جزءاً من شعاع تسلل من الشباك لحظة أن أمسك خالد بالمطفأة ليحملها إلى داخل الحاوية التى تضم طقم الصينى ، وضعها فى جانب بجوار رصة الأطباق ، وأغلق الضلفتين ليعود مسرعا إلى مكتبته ينظم ترتيب مجموعة الكتب الجديدة التى اقتناها ولم يجد لها موضعا سوى ذلك الذى تشغله المطفأة.

من قلب الظلام ، انتشلت يد رقيقة المطفأة ، ثم تأملتها صاحبة اليد وهى ترفعها أمام الضوء الباهر الذى غمر المكان من النافذة ، بدت الغرفة مكتظة بالتحف الخزفية وكان أكثرها لفتا للنظر تلك الزهرية الضخمة التى احتلت مساحة كبيرة عند المدخل ، وتميزت الجدران بلوحاتها الثرية التى تنتمى للعديد من

المدارس الفنية.

التفتت نهى لوالدتها وقالت بلا مبالاة.

– لابأس بها ، تنفع ، ممكن أن أضعها فى صالون شقتى.

– لابد أن نستأذن والدك أولا فهى عزيزة عليه ، اشتراها فى أولى سفرياته قبل أن تولدى أنت .

قالت نهى فى مرح وهى تضحك من جدية والدتها.

– إنه لن يمانع ، ثم أنه لم يعد لها مكان فى البيت الذى أصبح يشبه المتحف.

– ردت الأم بنفاد صبر على سخرية ابنتها.

– أنا لم أقل إنه يمانع ، فهو لايدخل عليكم بشئ . لكن من الواجب أن تستأذنيه.

– لم تشأ نهى أن تعكر صفو مرحها بحدتها المعتادة مع أمها ، وأرادت أن تمضى الأيام القليلة الباقية بسلام قبل أن تغادر إلى بيت زوجها ، فانصاعت بهدوء على غير عادتها.

– حاضر يا أمى سأفعل.

مع حقائب الملابس والأمتعة الكثيرة التى أخذتها العروسة ، انتقلت المطفأة الى مكانها الجديد لتوضع على منضدة فى وسط الصالون وتصبح لأول مرة فى متناول الأيدى.

أشعل طارق سيجارة وجلس ينتظر عروسه حتى تنتهى من تغيير ملابسها بعد أن رفضت فى حياء أن يبقى فى غرفة النوم ، وضع سيجارته على حافة المطفأة ليتمكن من خلع الجاكت ، وعاد والتقطها بعد أن ألقاه فوق أحد المقاعد.

فى النادى التقيا ، كان هو من شبان النادى المتميزين ، بطل جودو واسع النشاط والحيوية ، رغم افتقاده إلى الوسامة الا أنه كان محط الأنظار بجسده الرياضى الضخم وعلاقاته العديدة مع الشباب من الجنسين على حد سواء ، ثراء أبيه التاجر المعروف يزيده جاذبية فى عيون الفتيات . ولم يكن ينافسه فى ذلك إلا عمرو خالد.

منافسه الرئيسى اللدود يماثله فى الطول لكنه أكثر رشاقة ، ويتميز عنه بوسامته الملحوظة التى تجعله أشبه بنجوم السينما .

لم تكن المشاحنات تنقطع بينهما وهما صغار ولكل منهما شلة وأصدقاء ، يتنافسون فى الألعاب الرياضية بروح فيها الكثير من الشراسة ، ويتنافسون على الفتيات فى حكايات وصراعات المراهقة التى لم تنته الا على أعتاب الجامعة ، ويبدأ التقارب يأخذ طريقه شيئا فشيئا مع بدايات النضج ، ولاسيما بعد أن حقق طارق عدة بطولات جعلته جديرا بالاحترام بين أقرانه.

كما تدخل عامل لم يكن فى الحسبان ، ليخفف طارق من غلوائه ويستكين هائما بعد أن ملكت نهى جوارحه بجمالها الأرستقراطى فأحبها ، وزاده ترفعها الذى يصل لحد الغرور إصرارا على الوصول اليها فسعى الى صداقة شقيقها بقلب كسره العشق فلان ورق حتى يقترب متلمسا خطاه ، محاذرا البوح بيكنون نفسه ، مظهرا أريحية لم تكن من طباعه ، ويبدى من الود مالم هو نفسه يعتقد أنه يستطيعه.

انفتح باب غرفة النوم ، فسحق سيجارته وقام متلهفا .. تسبقه أشواقه.

صباح اليوم التالى نشطت الحركة ، متفائلة بالسعادة ، تتوثب بالحماس الذى يصاحب الاستعداد

السفر ، أطفأ أكثر من سيجارة قبل أن يحمل الحقائب ، ويرحل العروسان لقضاء شهر العسل فى جولة تبدأ على شواطئ جزر اليونان.

ثلاثة أعقاب ، وسيجارة لم يدخن الا أقل من نصفها ، ترقد فى قاع المطفأة وقد تناثر رمادها ، وأثار سحق أطرافها المشتعلة تركت بقعاً سوداء ، دائرية تأكلت حوافها ، يختلط سواد التبغ المحترق باصفرار نتف من بقايا لم تلحقها الجمرة المتقدة وتحيلها الى دخان ورماد.

الحقائب الأنيقة تعود ، وبداخلها ملابس فاخرة ، رابطات عنق من الحرير وقمصان ملونة ، فساتين وسراويل ، شورتات بحر ، بلوزات ، حمد الله على السلامة ، يقولها البواب وهو يضعها الواحدة تلو الأخرى لصق حافة الباب . همهمة وهزة رأس قد تعنى ردا على تحيته ، الشابة الجميلة تحمل حقيبتها رغم ثقلها وتسرع بها إلى الداخل ، يستحى الرجل فيغادر هابطا درجات السلم دون انتظار للبقشيش السخى الذي تعوده من الشباب ،وقد استغرب أن يجده واجما كمن يرجع من سرادق عزاء ،كيف يحزن من انعم الله عليه بكل متع الحياة؟ صمت متكلف ،ملبد بجو ثقيل تجثم سحب قاتمة فى سمائه ، التعب يبدو ظاهرا فى كل ملمح على الوجهين ، والارهاق يقبض على الأغوار البعيدة فى النفس ، تظل الحقائب مغلقة، والملابس تخلع وتلقى بأهمال فوق المقاعد ،والتحفز يكمن تحت حجب الصمت ، العيون لا تتلاقى ، تتصنع الأنشغال ، يعرف وتعرف أن كل حركة وكل خطوة تتظاهر لتبدو طبيعية والتصنع يملأها، رغم المحاولات لم ينطق أحدهما ، مجرد كلمة قد تكفى لتفتح باب الحوار ، وبعده أبواب الجحيم والغضب ، وجدل هستيرى لا يكفى قدوم الصباح لينتهى سعيره.

لم ينتصف الليل بعد ، ورغم الاجهاد يستحيل النوم، لا يريد أن يضجع بجانبها على نفس الفراش ، قميصها القصير الخفيف لا يحرك فى نفسه أدنى رغبة ، يراها ولا يحس بأنثوية جسدها ، يبصرها كنحت جامد ، خشبى رائع التكوين ، لكنه بارد ، ميت ، لا روح فيه ولا مشاعر ، تحس بالحب والدفء.

يسحب مخدة صغيرة ويضجع فى الظلام على أريكة الصالة يشاهد التلفزيون يبدو الفيلم مثيرا مشوقا ، وقد بدأ لتوه ، يتحمس ويفكر فى كوب شاى لتكمل متعة المتابعة ، يقفز مسرعا نحو المطبخ وفى ثوان تدوى الغلايه بصفيرها ليعود ومعه الكوب يتصاعد منه البخار الذكى الرائحة ، يتتبع الأحداث بشغف ، يظنها نامت ، فيرشف الشاى مسترخيا فى رقدته ، تتصاعد سخونة الصراع على الشاشة ، فيشغل سيجارة ، يبحث عن مطفأة فلا يجد ، ليس هناك إلا تلك الضخمة .العتيقة ، التى فى الصالون ..ما أسخفها ، كيف فاته أن يشترى عددا من المطفأت ليستخدمها.

صوت فى المطبخ ، لم تنم بعد، لا يهم ..لتذهب إلى الجحيم.

لم تلبث أن قدمت وفى يدها فنجان نسكافه ،جلست على الكرسى المقابل وأدارت وجهها نحو الشاشة. أنبعث ضوء أنار فراغ المساحة بينهما ، من مشهد نهار مشمس صحو ، لمع طرف المطفأة.

-طفاية بابا ، من فضلك لا تستعملها .

-................................؟

-إزاى تأخذها من مكانها.

-وبعدين .

- وبعدين معاك أنت، أتعلم الذوق .

-متشكر .
-يعنى مش عاجبك ، لو سمحت رجعها مكانها.
لم يكن طارق ضعيفا ، ولا يصلح بحال لأن يكون زوجا تحكمه زوجته وتملى عليه أرادتها ، رغم مظاهر الثراء العريض الذى يحيط بأسرته والفيلا التى يقيمون بها والتى شهدت صباه وشبابه فى أحد أرقى أحياء القاهرة بين صفوة الأثرياء وأصحاب الجاه والنفوذ من جيرانهم وتشربه بالعادات المهذبة فى التعامل وإنتقاء فى التعامل وأنتقاء الألفاظ اللائقة فى الحديث ،إلا أن مولده فى حارة ضيقه بحى السبتيه حيث ما زال أفراد من أقربائه يقيمون ،والثلاث السنوات التى قضاها من طفولته هناك، طبعت فى نفسه أثرا لا ينكر من صفات أولاد البلد، رغم حرص والده الصارم فى تربيته وتعليمه فى مدارس اللغات الخاصة، ليتوافق أبناءه مع صعوده المبهر فى عالم التجاره وأدارة الأموال وذيوع نجمه كأحد أقطاب المشاريع الاستثمارية الناجحة، بعد بدايته كمجرد محاسب يعمل فى شركه ذات نشاط محدود فى الاستيراد.
ظل طارق فى دخيلة نفسه حتى بالرغم من اختلاطه المحدود بأقاربه فى الحارة يحمل بعضا من نظراتهم الخاصة إلى الحياة ، خصوصا تلك التى تتعلق بالمرأة وطبيعه دورها فى الحياة كزوجة وأم.
أمتدت كفه الضخمة ، لتطبق أصابعه الغليظة على المطفأة ورفعها ببطء ،وهو معبأ ..مشحون ، ألا يكفيها العصيان ، وتمردها عليه ، فتبدأ فى إهانته ..فى إصدار الأوامر ..إليه ، رغم تحمله كل ما بدر منها ،كما ينبغى لرجل مهذب أن يفعل فى تعامله مع فتاة راقية أو سيدة مهذبة.
تغاضى على مضض عن ارتدائها الشورت القصير وغلاله بلا أكمام ، ولكنه لم يتحمل أن يراها تنزل الشاطئ بالمايوه البكينى الذى لا يكاد يخفى شيئا من جسدها ، وكانت أشترته خفية منه من محل يبيع ملابس وأدوات البحر بالفندق ، ثم فاجأته ترتديه وهو جالس ينتظرها على الشاطئ.
ردت على ثورته الغاضبة ببرود.
-وفيها إيه؟ خليك متحضر .
-وهل العرى هو التحضر فى نظرك يا هانم
-ما أنت قاعد تبحلق فى البنات حولنا .
-أعوذ بالله ، أنت مالك بهم وبسلوكهم ، نحن مختلفو عنهم وعن طباعهم ، ثم أنا لم.. قاطعته ولم تدعه يكمل.
-قل متخلفين أحسن.
لم تتحمل أعصابه أكثر ، فقام وغطاها برداء ،ولولا حرصها على تجنب الفضائح فى مكان عام، لما أستجابت له وهو يكاد يدفعها إلى حجرتهما، وقبل أن يغلق بابها أنفتحت أبواب الجحيم وتراجعت محاولاته لاسترضائها أمام قوه الغضب التى تملكتها ، وانحسر فيض الحب ساحبا تدفق العاطفة الحار، وأطفأ التوهج الذى يملأ أيام المحبين الأولى بحلاوة العشق وبهجته.
إنكمشت فى مقعدها وهى ترى يده تقبض على المطفأة ولمحت رغم الظلام شرر الغضب يتطاير من عينيه ، حاولت أن تبدو متماسكة ، وأبت كرامتها أن تسمح لها بالفرار ، لكن الذعر المطل من عينيها كان أقوى من أن تخفيه عن زوجها الذى ظلت يده معلقة بحملها وهو يرمقها وقد بدا من صوت أنفاسه

المسموع حدة الفوران العصبى المتأجج فى صدره.

أول ما خطر له ويده تمتد لتمسك المطفأة ، أن يقذف بها التلفزيون ثم يقوم إليها يشبعها بعلقه لا تنساها مدى عمرها ، تعلمها الأدب ، وتكن ذكراها حاجزا يمنعها من تجاوز حدود الاحترام.

وبعد أن أحكم قبضته على المطفأة ، تداعى عليه خاطر عقل تهوره ، دوى انفجار الشاشة لابد وأن يوقظ الجيران وقد يتصل أحدهم بالنجدة، ساعتها الفضيحة قد تصل للجرائد وتمس سمعته أو بالأحرى سمعة أبيه ،وهو الأمر الذى لا يطيق مجرد التفكير فيه.

يقذفها هى، يشج رأسها العنيد ، أم يحطها ،تلك الطفاية السخيفة العتيقة، عزم أمره ، أستجمع قوة ذراعه وهى ترتفع ببطء ، ليهوى بها نحو الأرض ، فيكسر كبرياءها فى عنف الارتطام وتناثر الشظايا ،معلنا عن قوته ،عن قدرته الهائلة على الغضب ..على الإيذاء لو أراد.

فى نفس اللحظة التى أصبحت فيها المطفأة كالقذيفة المهيأة للانطلاق ، لمح تراجعها ..انكماشها ونظرة الرعب المطلة منها انحسار الثوب عن ساقيها بالكامل وقد ضمتها إلى صدرها بحركة غريزية لتحمى نفسها ، لأول مرة يراها خائفة ، مستكينة ، وقد هبطت من برج عنادها وتكبرها، تراخت قبضته ، راجع نفسه وهو يلمس ضعفها .. انكسارها أمامه واستسلامها وهى ترقد بلا عراك ، عارية لاحول لها ولاقوة ولاعناد يتحدى رجولته ويؤجج نار الغضب فى صدره.

لم يكن يعانى من أية مشاكل نفسية ، ولاهو بالضعيف الذى يحتاج أن يظهر قوة زاجفة ليست فيه ، فيندفع فى ثورة ينفس فيها عن شعور بالنقص أو الحرمان بلا مبرر حقيقى.

نزلت يده برفق ، وهو يلحظ الرعشة التى تملكتها ، بدنها المرتجف ، وسرى اليه احساس أثيرى بأنه امتلكها وأنه رجلها .. سيدها ، وأنها امرأته التى تلذ بحماه ، وتلتمس عفوه.

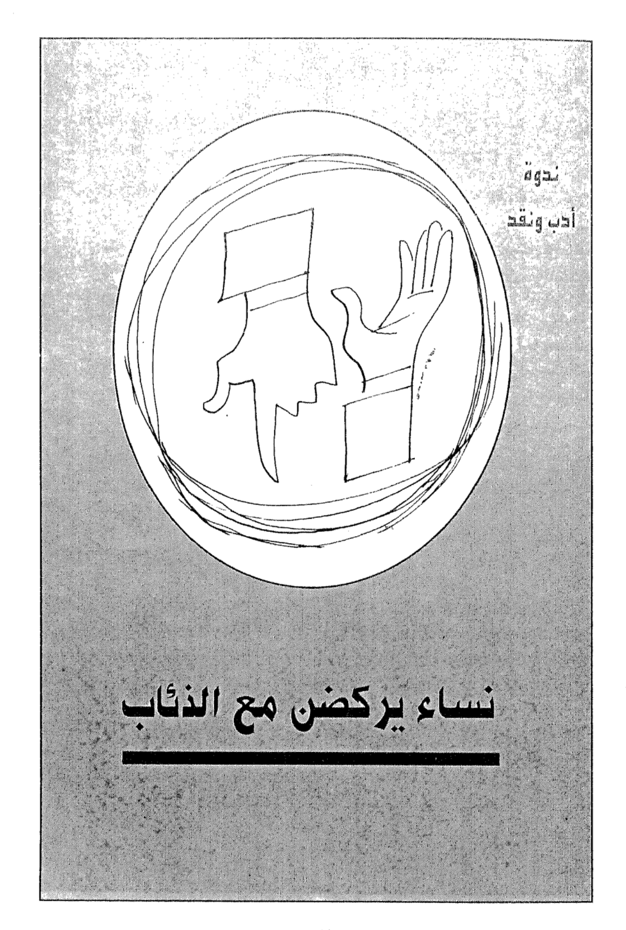
بكل الهدوء والثقة أعاد المطفأة لموضعها ، وقد استعاد هدوءه والسيطرة على أعصابه وزال عنه الغضب ، بل تبدل إلى حنو فجائى جاشت به نفسه وهو يقوم اليها ويقترب منها رويدا .. عائدا.

وما أن وضع يده على كتفها حتى انسابت الدموع من عينيها ، تخلل خصلات شعرها بأصابعه فاستجابت بوداعة لمداعبته ، فانحنى يقبلها على جبهتها كأنه يسترضيها ويعتذر عما بدر منه من تهديد لها فقالت من خلال دموعها

- كنت عايز تموتنى ياطارق.

فركع ليضمها بين ذراعيه ويمحو ما اعتمل فى نفسها من خوف وخشية ، احتضنها ليحتويها متعجبا ، فما زالت حكمة الأجداد ومقولتهم عن ذبح القطة صحيحة بليغة ، ذات أثر لاينكر.

لكنه فى غمرة انشغاله واندفاعه اليها وقد غلبته أشواقه ، لم يلاحظ ولا كان يمكن أن يلاحظ ذلك البريق اللامع فى عينيها بالكبرياء .. بالثقة .. بالانتصار وهى تحتويه فينوب بين يديها مستسلما ، غارقا فى بحرا لاقرار له.


ندوة
أدب ونقد
نساء يركضن مع الذئاب

«نساء يركضن مع الذئاب»

نجوى على

«نساء يركضن مع الذئاب» كتبته دكتورة كلاريسا نيكولا استس التى انحدرت من أصول مكسيكية وتبنتها عائلة مجرية وتعيش حاليا فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وهذا أتاح لها فرصة أن تكون ملمة بعدد من الثقافات ،كما يجمع الكتاب بين دفتيه عدداً من العلوم الإنسانية بدءاً بالانثروبولوجيا وانتهاء بعلم النفس.

وقد صدر الكتاب مؤخرا عن المشروع القومى للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة وترجمة مصطفى محمود محمد.

عقدت مجلة« أدب ونقد» ندوة عن هذا الكتاب تحدث فيها الكتاب د. سحر الموجى ، عبد الحميد حواس ، حسن سرور إلى جانب مداخلة طويلة للناقدة فريدة النقاش .. أدارات الندوة نجوى شعبان.

التى أشارت إلى أن هذا الكتاب يجعل القراء المدربين على القراء السريعة ينحون إلى التباطؤ لأن الكتاب على أسلوبه الأدبى الأخاذ يتسم بالعمق ويثير التأمل . «وتنشغل مؤلفة الكتاب بانبعاث القوة الغريزية للمرأة لتتصالح مع نفسها ومع الحياة وتعامل ناضج مع عالم خارجى هو فى الغالب معاد أو منتقص من قدر المرأة.

أضافت نجوى شعبان أن كلاريسا إلى جانب كونها محللة ومعالجة نفسية فهى تتمتع بمواهب أدبية فهى شاعرة وقصاصة ، وظلت لسنوات ترأس رابطة المحللين اليونجيين (كارل جوستاف يونج) فى أمريكا الشمالية .

وحسب ما ورد عن المؤلفة فى مواقع شبكة الانترنت فإن كلارسيا نيكولا استس تعتبر الحكاية وسيلة للعلاج ولها فى هذا الصدد كتب وشرائط كاسيت .من كتبها :« النار الخلاقة»، مسرح الخيال ، تدفئة طفل الحجر ،ومن شرائط الكاسيت بصوتها :«كيف تحب امرأة » «عن الحياة الحميمة والحسية للمرأة» ،منزل المرأة العجوز» «عن النموذج الشائع فى أحلام النساء».

بين يونج وفرويد

وتحدثت د. سحر الموجى فأشارت إلى أنه ينبغى ادراك الفروق الأساسية بين مدرسة فرويد ومدرسة يونج لدى قراءة هذا الكتاب الذى يعد من الاسهامات الأساسية التى تقدمها المؤلفة فى اعتمادها علم النفس التحليلى لمدرسة يونج ونستخدمه بشكل مختلف له علاقة بالحكايات التى توردها.

وفرويد هو أول من أسس علمياً لفكرة اللاوعى وتفسير الأحلام ..إلخ .وجاء بعده يونج الذى أنشق عن فرويد وأسس مدرسة علم النفس التحليلى وتوجد فروق أساسية ما بين الرائدين فيما يتعلق بالفن تحديداً، فمع كل إسهامات فرويد المهمة الا أن أفكاره عن الفن كانت افكاراً مسبقة ضد الفن ، حيث رأى أن الفن هو تعبير عن الشياطين المكبوتة داخل الإنسان ، وأن الفنان سواء كان كاتباً أو فناناً تشكيليا

يعبر عن هذه المكبوتات ، وفى الوقت نفسه ذهب إلى أن الأحلام هى وسيلة للتعبير والتنفيس عن المكبوتات والعقد القديمة.

ومن هنا تأتى أهمية مدرسة يونج فقد اعتبر كلا من الحلم والفن رؤية صوفية فهما الطريق إلى الروح ،ومن ثم أعلى من قيمة الفن وقيمة الحلم خلافا لمدرسة فرويد ، فالفن عند مدرسة يونج هو تعبير عن رحلة الإنسان الروحية خلال حياته كلها ، علاوة علي تأسيسه فكرة اللاوعى الجمعى مقابل فكرة فرويد عن اللاوعى الفردى .

ومن هذه الصور الموروثة صورة المرأة البرية التى يكرس لها هذا الكتاب.

وأضافت د. سحر عن المرأة البرية –أؤكد على ترجمة كلمة «برية» وليست وحشية فهى موجودة داخل كل امرأة وكل رجل حيث أرى خطاب الكتاب موجه لكليهما فى آن واحد. والمرأة البرية هى تلك الأنثى فى المطلق التى لا تزال تحتوى داخلها كل قوى الطبيعة الحقيقية ، كل قوى الحدس وليست الغريزة فى معناها الحيوانى ولكن الغريزة فى معناها الروحى أى: الإحساس والاستشعار والرؤية عن بعد والتواصل مع الآخرين والاحتواء والضم إلى آخره . وهذا باختصار تسطيح وتبسيط لصورة المرأة البرية ولكن الكتاب يطرح مجموعة من الحكايات الشعبية والأساطير ، بعضها نعرفه وبعضها لا نعرفه لأنها أساطير وافدة من حضارات وثقافات أخرى ويجرى لها تحليل نفسى على أساس افتراض يونج الذى يقضى بأن كل الشخصيات التى تظهر فى الأحلام والأسطورة والحكاية ، كلها شخصيات داخلنا.

وأشارت د. سحر الموجى إلى أن أهم القضايا التى يطرحها الكتاب فكرة القهر المجتمعى الواقع على المرأة ، ولا توجد هنا حاجة للايضاح بأن المؤلفة أمريكية ، صحيح أنها من أصول مكسيكية ومن أوروبا الشرقية ، لكنها فى النهاية أمريكية» تنتمى إلى الحضارة الغربية، مما يعنى أننا لابد أن نأخذ فى الاعتبار درجات ونسب مختلفة فى القياس ما بين القهر المجتمعى الواقع على المرأة الغربية وذلك القهر الحاصل فى مجتمعنا ..كما أنها تتحدث عن فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

–والافتراض الأساسى المبنى عليه الكتاب هو التماهى والتوازن ما بين المرأة والذئبة التى نراها من خلال الذاكرة العامة على أنها حيوان مفترس وكائن شرس ولانعى إطلاقا الخصال النبيلة الموجودة فى الذئب والذئبة فى عالم الحيوان.

وحاليا فى الغرب تقارن الحركات النسوية ما بين قهر المرأة وقهر الطبيعة عبر قتل الأشجار واجتثاثها وكذلك الغابات والمساحات الخضراء . فثمة اتجاه فى الغرب الآن يقارن بين قتل الأرض الأم والطبيعة الأم باعتباره أيضا قتلا للنساء فى آن واحد.

دلالات متكررة

علقت مقدمة الندوة نجوى شعبان على مصطلح الغريزة لدى فرويد المرتبطة بالبهيمية ليصبح الإنسان الفرويدى يعيش الحاضر بلا ماضى أو مستقبل، لا يتذكر ماضيه كجثة ضائعة ولا مستقبله .

أما يونج حسب تعريفه للغريزة فى كتاب« نساء يركضن مع الذئاب» فيقول إن الغرائز منبعها اللاوعى النفسى وهى الطبقة أو الشريحة التى يمكن أن تتلاقى عندها البيولوجيا مع الروح).. أى أنها تقع فى نقطة التماس بين اليومى المعاش وبين المطلق /الروح.

ولكن لأن المؤلفة إنسانية جداً وواقعية فهى تفرق بين نوعين من الألم : ألم ينضج ويدفع للابداع وألم يشرخ ، والألم الذى يشرخ هو الذى تعتذر تجاوزه ، وهذا أمر وارد للجميع ،ومن هنا أفردت قصتها وحكايتها عن «عشيرة الندوب».

تزييف الوعى

أما د. عبد الحميد حواس فقد أشار إلى أن الكتاب يتناول مقاربة أدبية غنية وفيها فيض من العاطفة والمعرفة فى الوقت نفسه ، وهذا أحد أسرار أن الكتاب جاذب للقراءة ..بل يدعو ويوصى -رغم ما يأخذه عليه من الناحية المنهجية والفكرية- إلى قراءته ، شريطة الوعى بأن فكرنا كأصحاب ثقافة أننا حصلنا معرفة تتجاوز ما فعله فرويد على سبيل المثال، إذ لنا رؤية فى منهجه أو الموقف الفكرى خلفه ، لكن هذا لايمنع من أن نقر بأن كتاباته جيدة .والأمر نفسه ينطبق على قراءة كتاب «نساء يركضن مع الذئاب» نظرا لقيمته الأدبية لأنه يعتمد على مجموعة القصص الفلكلورى والأسطورى، فهى قصص غنية من أنحاء العالم بدءاً من مصر القديمة ونهاية بقصص الهنود الحمر واليابان وأوروبا الوسطى والشرقية ومنطقة سيبريا وأمريكا اللاتينية وخاصة المكسيك.

والفكرة التى يطرحها الكتاب بها جانب مهم لا نستطيع إغفاله وهى ما يمكن أن يسمى مواجهة المرأة لذاتها بأن تقدر قيمة نفسها ، هذه الفكرة الأساسية ، وبالتالى تجاوز المحبطات والقيم التقليدية السائدة التى تشييئ المرأة وتبخسها .ومن ثم تستنفر المرأة قواها المبدعة ، وعلى مستوى الحياة تستشعر قدرتها الابداعية على صنع الحياة يوميا، من خلال علاقاتها بالآخرين.

والكتاب يركز على هذه الجزئية باعتبار أن المؤلفة منشغلة بالتحليل النفسى وتستخلص فى كل فصل نصائح لتكيف المرأة مع الواقع وتلتقى مع ذاتها الحقيقية وتنفى عن نفسها الاغتراب الذى صنعته التقاليد الاجتماعية المختلفة.

واستدرك عبد الحميد حواس وتحدث فى مآخذه على الكتاب فقال: (ولكن المؤلفة وهى تفعل ذلك لجأت لعدة أمور أولها أنها استسهلت طريقة النصائح والتوجيهات ، وهذا تقليد فى الكتابة الأمريكية البرجماتية ، ثانيا: تعدد قصص وحكايات وعناصر من أماكن مختلفة وتنتمى لعصور مختلفة مثل قصة (ايزيس وأوزوريس) إلى جانب قصصى فلكلورى حديث، مزجت بين عناصر قصصية تنتمى إلى عصور مختلفة وبيئات وظروف نشأة متباينة ، هذا من أجل بناء فكرة واحدة ، لكن هذا الأمر يجعل الفكرة وكأنها مبنية على أساس ملفق ، فكل الحكاية لها سياقها ودلالاتها كما فى «ايزيس» التى تنعكس فى رمزيتها ، وعندما ينزع جزء من الأسطورة، تأخذ معنى آخر ودلالة أخرى تضفيه هى عليه.

من هنا ، وحتى فى علم النفس يرفض البعض نتاج فرويد لأنه قائم على تحيزات ، لأنه علم فردى يعتمد على ذكائى وبصيرتى وحدسى وقدرتى على النفاذ إلى وقائع جديدة يراها آخرون شيئا آخر. فالتحليل النفسى يعتمد على بصيرة المحلل وثقافته.

وما ذكر آنفا يرتبط بفكرة العرفانية ، إذ أن هناك طريقين فى فهم العالم ورؤيته أولهما قائم على البرهانية أى القياس المنضبط أما الآخر العرفانية فليلجأ إلى الحدوس والإلهام .

وتقدير أن المسألة مقذوفة فى القلب .. وأن نموذج المرأة الوحشية هو النموذج الغريزى الفطرى الذى ولدت به المرأة.. وفى هذا الصدد أعاد عبد الحميد حواس إلى الأذهان ارتباط كارل جوستاف يونج بالثقافة الغنوصية.

وثالثا: إن هناك خطرا منهجيا له تأثيره على الوعى ..حيث أن التركيز على فكرة ما هو غريزى باعتبارها تحكماً فطرياً يوجه الرغبات (علماء النفس يرفضون مصطلح غريزى) . وأن الحل عندها تشكل فى الغريزة بديلا عن أن تكتسب المرأة وعياً بالظروف الاجتماعية (بالمعنى الواسع) التى تحدد ظروف قهرها .

قراءة الأسئلة

وتناول الباحث الفلكلورى حسن سرور طريقتين مختلفتين لقراءة الكتابة وتبنى الطريقة الثالثة التى هى طرح لأسئلة جوهرية وبعض المفاهيم التى نشأ عليها الكتاب.

أكد سرور أن هذا الكتاب له أكثر من اقتراح للقراءة، أولا : يقرأ باعتباره نصاً أدبيا فنيا من طراز رفيع، وذلك بأن نسمى الكتاب «نساء يركضن مع الذئاب» ونحذف العنوان «الاتصال بقوى المرأة الوحشية» من على الغلاف المطبوع ونتجاهل التكملة «أساطير وقفص عن نموذج المرأة الوحشية» ونحذف عناوين الفصول والعناوين الداخلية التى هى فى وسط الصفحات والهوامش والقائمة البيلوجرافية.

ثانيا: ان نقرأ النص /الكتاب من منظور الانجاز «الروحى /الغنوصى البروتستانتى» للحصول على المعرفة بدون أى نظام نظرى أو أى تأملات تجريدية فى الواقع ، ولنبدأ من الذات (الأنا) كمدخل للخلاص من هذا فيما يخدم أفكارنا.

وأضاف حسن سرور أن الكاتبة ركزت على الأسطورة والحكاية والقصة والحلم والرمزية على اعتبار أن هذه مجالات يمكن أن ندرس فيها بسهولة النشاط الحر للعقل الإنسانى، وللمرأة على وجه الخصوص، واحتل مبدأ «التعارض الثنائى» مركز الدراسة ، ومن بين هذه التعارضات الثنائية : الطبيعة والثقافة ،المرأة والرجل ، المرأة السوية والمرأة المريضة ، المرأة الخبيرة والمرأة الساذجة ، الداخلى والخارجى.

درس عميق

وكانت أولى المداخلات للناقدة فريدة النقاش التى قالت: (هذا كتاب ممتع ومدهش ومفيد وكاشف ،جعلتنى هذه المرأة أحب الذئاب وأفكك وانتقد الحمولة السلبية عنها وأنتشى بتمجيدها للفرح الحياة ،إنه كتاب يشد من أزر النساء ويترك أثرا كذلك الذى يترتب على الخروج من حالة البراءة أو السذاجة كما تسميها المؤلفة إلى المعرفة .والمعرفة ألم ولكنه الألم الجميل ، هذا ما يقوله الكتاب الفياض بالتجربة والصدق والمحبة للنساء ، كل النساء ،وللبشر كافة .. وأن كان الحديث عن الإنسان كإنسان رجلا كان أو امرأة هو نادر فى هذا الكتاب الذى يطلق صرخة مدوية من أجل الحرية الحقة، من أجل الانسجام والتناغم مع طبيعتنا الأصلية العفوية المفعمة بالمشاعر وطاقات الابداع التى جرى طمس معالمها- طبقا للمؤلفة -تحت وطأة الحضارة.

والكتاب جميل لدرجة يصعب على الإنسان نقده ،وهو درس عميق عن ما نسميه : قوة الإلهام.

ولكن الكتاب مع ذلك يطرح مجموعة من التساؤلات تحتاج إلى البحث والتدقيق والتقصى والاضافة ، وقد حمدت الله أنها قالت أغلب الظن أن كل النساء والرجال يولدون موهوبين .. وأول تلك التساؤلات هو العلاقة بين الطبيعة والثقافة ، الثقافة التى هى طبيعة جرى تهذيبها وصقلها ،وكانت المرأة غالبا مربوطة بالطبيعة أى بالحالة البدائية الأولية ، وهى الفكرة التى راكمت الثقافة الطبقية الأبوية فوقها تلالاً من التحيزات ضد المرأة بدءاً من الأساطير مروراً بالأديان وانتهاء بالفلسفات لكى تحرم المرأة من المساواة وتنتقص حقوقها.

وأحد الأسس التى بنى عليها هذا الكتاب هو طبيعة المرأة رغم ما يرتبط بهذه الطبيعة من تمجيد يشابه التقديس.

إن تتبع مسيرة البشرية على هذه الأرض يدلنا أن الإنسان كان وحشا وكأن يمشى على أربع قبل أن يصبح إنسانا ، ودون أن تفض المؤلفة الاشتباك مع هذا التاريخ تحول الوحشية إلى كلمة ساحرة ولاتقول شيئا عن وجود شبيه لها فى طاقات الرجل، ويمكننا أن نستنتج إذا امتدت الفكرة لنهايتها أن بقايا

الإنسانية الأولى ظلت عالقة بالمرأة وحدها تساندنا فى ذلك فكرة «طبيعتها» وتجعلنا نسأل إذا –اتفقنا مع استخلاصات العلم حتى الآن حول الطريقة التى تطور بها الإنسان –إن كانت هناك حقا طبيعة ثابتة، وإن كان الأمر كذلك هل هجر الرجل المرأة فى رحلته إلى الحضارة وبقيت هى هناك مع هذه الطبيعة الثابتة التى توغلت فى لاوعيها وجرى قمعها.

* ولكن ما الذى يطمسها ويقمعها هل هى الحضارة بالمطلق أم حضارة معنية التى تحكمها القوة المفترسة والوحش الضارى أو الحضارة المريضة ، هى من وجهة نظرى الحضارة الرأسمالية القائمة على المنفعة العارية.

* وهذا يقودنى إلى تقصى تأثير المجتمع الطبقى على الضمير الجمعى وعلى اللاوعى الجمعى والذى يبقى تحليله نفسيا قاصرا إذا لم يتقص انعكاس المجتمع وعلاقاته أساسا على هذا.

*كان نقدها الذى سبقتها إليه مدرسة التحليل النفسى النسوى للفرويدية يمكن أن ينفتح على آفاق أوسع لو أن المجتمع كان حاضرا وليس فقط اللاوعى النسوى الفردى والتعويل الكلى على الارادة الفردية النسوية وقواها المقموعة «إن تسفيه فضول النساء واعتباره لاشئ أكثر من كونه نوعا مملاً من التطفل ، ينكر على المرأة بصيرتها وحسها الباطن وحدسها الغريزى ، أنه ينفى عنها كل مشاعرها ، فهو محاولة لمهاجمة القوة الأصولية فيها» .

وهذا نقد عميق لكنه لم يكتمل لقول فرويد أن الأحداث التراجيدية فى الحكايات القديمة هى عقاب سيكولوجى للشغف الجنسى عند النساء.

ثنائية تيار الوعى وعمليات المخ

وتحدث المترجم مصطفى محمود عن ظروف ترجمته لهذا الكتاب فقال: رغم أنه ليس من وظيفتى أن أدافع عن الأفكار التى وردت فى الكتاب ، لكن ما لفت نظرى من ضمن ما قيل فى الندوة أن الكتاب هش من الناحية العلمية أو أنه يفتقر إلى الأساس العلمى وأنه دعوة تقوم على الميتافزيقيا للعودة إلى عالم الروح للمرأة الوحشية تشبه الأسس الميتافزيقية للعودة إلى أرض الميعاد .غير أنى أرى الكتاب ينبنى على أساس علمى قوى يمكن إيجازه فى أن الخبرات البشرية موجودة فى النفس وأنها تنتقل إلى البشر عبر الأجيال عن طريق اللاوعى الجمعى والأمر نفسه يقال عن الجينات الوراثية. وبالرغم من أن الكتاب يتركز على الروح الإنسانية ، فهو يواكب أحدث ما تم التوصل إليه فى فلسفة العلم وفلسفة العقل.

فمن المعروف أنه قرب نهاية القرن العشرين ، أصبح هناك شبه يقين فى أن البشر أحاديون بطريقة فيزيائية نقية وخالصة حيث إننا مركبون بالكامل من وحدات فيزيائية دقيقة على هيئة وحدة بيولوجية معقدة ولا توجد عقول أو أرواح.

وهكذا ليس هناك مفر مما يمكن تسميته ثنائية الخصائص المادية أو الخصائص البيولوجية لتفسير الحياة العقلية للبشر، وبما يعنى أن الوعى لا يصلح تفسيره بالعمليات الفسيولوجية للمخ وأن هذا الوضع لن يتغير بالتأكيد خلال المائة سنة القادمة.

يتبقى أن الكتاب لا يخص المرأة وحدها ، بل يخص أيضا الرجل وينطبق عليه تماما ويساعده على استكشاف الجانب الانثوى فى سيكولوجيته والتعرف عليه بما ينعكس على التفاعلات بين الرجل والمرأة فى العالم الخارجى.

النشيد والشهيق والزفير

كتابان جديدان صدرا معاً للشاعر عبد المنعم رمضان ، الأول ، مجموعة شعرية بعنوان " النشيد " عن ميريت تجربة جديدة على مستوى التكنيك والعمق ، يخوضها شاعر « قبل الماء فوق الحافة» و« غريب على العائلة » و« بعيدا عن الكائنات» ، « النشيد» به ثلاث نقلات

١- فاتحة النشيد ٢- المعانى على الفاتحة ٣- النحو والإعراب فى فاتحة النشيد .

أما الكتاب الثانى « الشهيق والزفير» الصادر عن المجلس الأعلى للثقافة ، فهو عبارة عن مجموعة من المقالات والاسكتشات والبورتريهات ، كان قد كتبها عبد المنعم رمضان على فترات ، أهمية هذا الكتاب ترجع لعدة أسباب ، لعل أهمها العشق الذى يكنه عبد المنعم للنثر العربى ومنجزاته فى تجارب العمالقة الكبار مثل يحيى حقى وطه حسين والمازنى ولهذا السبب هناك بورتريهات فى الكتاب عبارة عن لوحات رسمت وكتبت بلغة رفيعة المستوى وتجاوزت الأطر المتعارف عليها ، ولاسيما بورتريه طه حسين ، أدونيس ، فيروز ، أنسى الحاج ، الشاعر بقلمه . إضافة إلى بعض الردود والتوقف بالحوار العميق والمناقشة الحادة عند عديد من قضايا وإشكاليات الثقافة والفن.

حجر على حجر

رواية جديدة صدرت عن دار الكنوز الأدبية فى بيروت للكاتبة والشاعرة الكويتية فوزية شويش السالم وهذه هى الرواية الرابعة للكاتبة بعد " الشمس مذبوحة والليل محبوس " و" النواخذة " و" مزون" ، الواضح من خلال القواسم المشتركة بين هذه الروايات أن هناك فكرة مشروع روائى ممتد ، أهم سماته ، البحث والتنقيب فى جغرافية وتراث منطقة الجزيرة العربية والخليج بصفة خاصة والبحث عن الهوية العربية عامة فى هذه الرواية " حجر على حجر" وكما قال أحمد العجمى : من الأندلس هروباً إلى اليمن ومن الكويت إلى سحر اليمن ، ومن إغواءات خيوط سجادة صغيرة ترك الزمن عليها ملامحه ، ورائحته المزوجة بغيوم الحسرات وأطياف انكسارات الحب ، تبحر الروائية فوزية شويش فى تخيلاتها الجميلة ، عبر أزمان متناثرة ، وجغرافيا غير متقاربة لتعيد صياغة فسيفساء أحجارها المبعثرة فى طبقات التاريخ وعطر الأمكنة ، تنقيباً عن صبغها وسلاسة الهجرات ، من خلال لغة شافة ، وتفاصيل زجاجية ، تكشف عن عوالم مشحونة بظلال الحب والخيانات ، والفقد والإلتقاء ، ويندغم فيها الماضى بالحاضر والواقع بالميثولوجيا ، وتكون فيها الذات الإنسانية حاضرة تحت كل حجر.

يعمل مناديا للأرواح

مجموعة شعرية صدرت بغلاف أنيق عن دار « شرقيات» ، للشاعر ، أشرف يوسف ، وأشرف يقيم فى مدينة المنصورة وقد صدر له قبل هذه المجموعة : ليلة ٣٠ فبراير – قصائد منسوخة ١٩٩٥ أو عبور

سحابة بين مدينتين ١٩٩٧ ولنجتزئ هذه الفقرة : بـ لا

وليس بـ نعم كلها .

أحتضن كف معشوقتى فى ممر المستشفى الطويل

ممسكاً بين أسنانى مدينة كاملة

كدليل على تعاقب الليل والنهار

سنوات تحصى يا أختى

بالمرات التى صادفنا بشراً لديهم القدرة

على سد فجوات الروح

حافات الأمل

الكاتب الصحفى العراقى صلاح النصراوى المقيم بالقاهرة ، اقتطع من وقته ساعات قليلة ، كان يجلس فيها إلى مكتبه ، كى يدون أول عمل أدبى له ، رواية " حافات الأمل " الصادرة عن ميريت والتى تقاطعت فيها السيرة الذاتية بالحكى الروائى بالتحليل السياسى والرؤى والأفكار عن الحياة والإنسان إلى جانب توقف الراوى بالسرد والتحليل عند فترة وجوده بالعراق وملابسات الحياة هناك واشباك كل هذا بالقمع والعنف ، يقول الراوى فى السطور الأخيرة من الرواية :" أما أنا فمن المؤكد أنك ستوقن يوماً إن لم تكن أيقنت بعد بأنى لست من تلك الطيور التى يمكن أن يضمها قفص طالما لايزال فى جناحى ريش.

ينـايـر

يناير أحدث الإصدارات للكاتب والمترجم المصرى الذى يقيم فى موسكو منذ عام ١٩٨٧ ، أشرف الصباغ ، وهو صاحب الترجمات اللافتة من الروسية إلى العربية ، روايات وقصص للكاتب الشهير فالنتين راسبوتين والأدب الروسى والثقافة الروسية ولاسيما بعد انهيار الاتحاد السوفيتى . أما هذه الرواية « يناير» رواية للأصدقاء العاديين المهمشين للغرباء هناك وهناك رواية للذين ينتظرون دورهم فى طابور الإعدام من الأزل إلى الأبد أو ينتظرون الموت المجانى أو حتى الموت بالمصادفة.

محاولا اغتيال نبضك المضئ

مجموعة قصصية للكاتب محمود خضرى يس ، وقد صدرت للكاتب من قبل مجموعة قصصية بعنوان : حلم ساخن. وله مجموعة قصصية تحت الطبع بعنوان صرخة نخيلك الظامئ ، وقد نشر الكاتب قصصاً فى الجرائد والمجلات المصرية.

أهداب بلا عيون

الفنانة التشكيلية والكاتبة فادية فهمى صدر لها أثناء معرض الكتاب أحدث كتبها ، عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ، رواية تستبك فيها السيرة الذاتية مع الواقع المعيش . هذه الرواية زينت برسوم الفنانة فريدة عويس والتى تحرص منذ فترة أن تندمج أعمالها مع كتابات فادية فهمى.

ريحـانـة

عن روايات الهلال ، صدرت رواية " ريحانة " للكاتبة والشاعرة ميسون صقر ، كعادة ميسون صقر ، تنتقل من فن إلى فن وتجرب ، جاءت هذه الرواية جامعة لقد رأت الفنانة الشعرية والتشكيلية وكما جاء فى تقديم الرواية فان " ريحانة " رواية ذات مذاق خاص ، ولدت من رحم أحداث مضت ، لتعيش واقعاً تغذيه المتناقضات والتساؤلات أبطال الرواية نماذج ثرية درامياً ، فريحانة عبده لاتملك من أمرها شيئاً تترك موطنها بصحبة سادتها حاملة طفليها إلى مصر تاركة زوجها وبداخلها أفكار تمور وطموح للعودة.

العـولـمة

العولمة ، أفق مفتوح وإرث يثير المخاوف ، كتاب لافت الكاتب والباحث الليبى صالح السنوسى صاحب ، العرب من الحداثة إلى العولمة ، الوجيز فى القانون الدولى ، العولمة إرث أوربى وآفاق أمريكية ، وأعمال روائية ، متى يفيض الوادى ، غداً تزورنا الخيول ، لقاء على الجسر القديم ، سيرة آخر بنى هلال وحلق الريح .. الروايتان الأخيرتان صدرتا عن دار الهلال . فى هذا الكتاب الجديد « العولمة» يتعرض إلى ثلاث ركائز أساسية فى ثقافة الغرب ، كانت قد تشكلت فى لحظات تاريخية حاسمة فى تاريخ الحضارة الغربية المعاصرة ، هذه الركائز هى التى حملت بذور العولمة وغذتها حتى أينعت وأثمرت فى القرن الواحد والعشرين . تتمثل هذه الركائز فى الاتجاهات التى ميزت الفكر الغربى وحددت رؤية الثقافة الغربية الى الآخر ، وهى تحديداً ١- المنظور الشمولى ٢- المنظور الإثنى والعرقى ٣- المنظور القومى.

تراث المسرح

تراث المسرح ، مجلة يصدرها المركز القومى للمسرح والفنون الشعبية ، عدد تذكارى بمناسبة مرور نصف قرن على ثورة يوليو . يأتى هذا العدد وكما جاء فى الافتتاحية " معترفا برعايتها (ثورة يوليو) ومصدقاً على دعمها للفن والفنان فى إطار احتضانها مائة عام من الإبداع المسرحى . وقد صاحب صدور المجلة . طبع عدد من المسرحيات العالمية « أوديبوس ملكاً – إلكترا ، « الكستيس» « إفيجينيا فى تاوريس – أجاكس – بانتام – فى هذا العدد التذكارى مساحات نوعية هى ١- المسرح من أجل الحرية ٢- المسرح من أجل فلسطين ٣- المسرح من أجل العدالة ٤- المسرح من أجل المرأة والطفل ٥- المسرح من أجل المستقبل . علاوة على إفراد حيز خاص بمهرجان التجريب المسرحى المصرى باعتباره حدثاً بدأ مبشراً وبقى صامداً مضيفاً وواعداً . أما المساحة الأخيرة فقد خصصت لتمثيل مسرح هيئة قصور الثقافة .

ذلك الذى يحتل المساحة العظمى من خارطة المسرح المصرى بفرقه التى تربو على المائة وبنواديه التى تناهز ثلاثة أضعاف هذا العدد وقبل كل ذلك بتاريخه المكرس كلية لنشر الوعى والتنوير بالأدب والفن.

وشايات عادية

« وشايات عادية» الديوان الثانى للشاعر ماهر حسن ، يحمل بين ثنايا قصائده لغة مراوغة تعتمد



فى بنيتها على التكثيف من خلال الإتكاء على مايمكن أن يسمى بالمجاز الواقعى.

وقد صدر الديوان عن سلسلة الرواد التى يصدرها فرع ثقافة البحيرة التابع للهيئة العامة لقصور الثقافة.

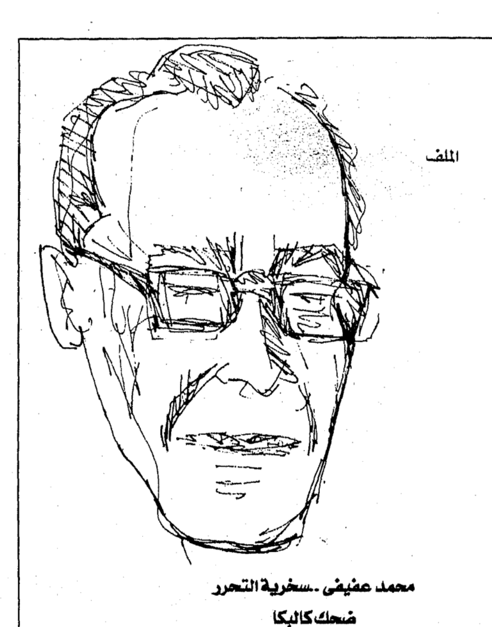
أفيال . صغيرة

نجلاء علام واحدة من أكثر بنات جيلها موهبة وقد صدر لها مؤخراً مجموعة قصصية بعنوان « أفيال صغيرة لم تمت بعد» عن الهيئة العامة للكتاب.

وقد قسمت المجموعة إلى جزءين الأول « اهتزازات غائرة» والجزء الثانى « إهتزازات صغيرة».

ولعل أهم مايميز الجانب السردى داخل تلك النصوص هو ذلك الزخم الروحى والإنسانى العميق ، والتماس مع مفردات الحياة اليومية فى لغة مبتهجة أحياناً ، شجية وحزينة فى أحيان أخرى . لكنه ليس الحزن الأعرج ، إنما ذلك الحزن النبيل الذى يأخذ المتلقى إلى آفاق أرحب.

الملف



محمد عفيفي .. سخرية التحرر

ضحك كالبكا

- السخرية أو الانفجار
- الحب والموت - نجيب محفوظ
- موليير مصر في الجزيرة المهجورة
- سحر لا يقاوم - د. علي الراعي
- الأدب الساخر بين المازني وعفيفي
  د. نعمات أحمد فؤاد
- الساحر العظيم - محمود السعدني
- تعالى يا عفيفي - يوسف معاطي
- السخرية بين محفوظ وعفيفي - ياسر إبراهيم
- الترنيمة الأخيرة - حلمي التوني

■ إعداد وتقديم: أحمد الشريف



السخرية أو الانفجار

أ.ا

> كان وجهى يحمر خجلا من نفسى ومن الأباطيل والأكاذيب التى تواطئوا على حشرها فى دماغى .فكان لزاماً على أن أسخر أو أن أنفجر .وكانت السخرية بالطبع أهون الشرين.
>
> محمد عفيفى

فى البيت، فى الشارع ، فى العمل ، فى المواصلات العامة وبين إشارات المرور، على المقاهى وفى الحقول ، يمكنك أن تسمع آخر نكتة وآخر تعليق ساخر على القرارات السياسية والاجتماعية وغيرها من شئون الحياة ،يعنى هذا إنك فى مصر وبين المصريين يعنى هذا أيضا ، أن هذا الشعب ومنذ وجد يقاوم بالسخرية الضاحكة أو الضحك الساخر الظلم والخوف والسلطان الغاشم وأحزان وأفراح الدنيا ، اشتهر شعبنا بخفة الدم ، لذا لم يكن غريبا أن تكون شخصية (جحا) والتى يوجد مثلها فى بلاد كثيرة ، أن تشتهر أكثر فى مصر وأن يصدر المصريون (جحاهم -جحا المصرى) إلى شعوب أخرى.

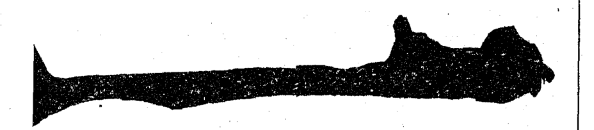
الاسلوب الجحوى وكما قال محمد رجب النجار– إطاراً أو فلسفة جزء أصيل من أسلوب الشخصية المصرية فى المواجهة والتعبير ، لا يزال يشكل معلماً بارزاً من معالم الشخصية المصرية، وتزيد السخرية خاصة فى نقد

الهيئتين الاجتماعية والسياسية ،كلما عزت حرية التعبير . ويعد الشعب المصرى من أكثر الشعوب والتى وصفت حكامها بالغفلة والبلاهة وسخرت منهم ومن سلوكياتهم وقراراتهم ، لقد كان معظم هؤلاء الحكام لفترة ليست بعيدة من غير المصريين مع الوقت ظلت عادة السخرية والفكاهة والتندر ،عادة أصيلة فى الشعب المصرى ،حتى بعد رحيل الحكام الاجانب . بالطبع نذكر أو بعضنا يذكر ، تحذير الرئيس جمال عبد الناصر ولومه للشعب المصرى، بسبب النكات والقفشات التى أطلقها الشعب بعد هزيمة ١٩٦٧.

ملكة السخرية هذه والتى وصفها العقاد بأنها عبقرية لا تقل فى اقتدارها على تجميل الحياة وتثقيف النفوس والاذواق ،عن عبقرية الفلسفة وعبقرية الشعر والتلحين ، أمتاز بها شعبنا عن جدارة وامتاز واشتهر بها من بين شعبنا من أطلق عليهم الظرفاء والساخرين ، الذين صنفهم الكاتب محمد بركات بأنهم طبقة من أذكى خلق الله وأكثرهم موهبة وثقافة ، وأن الله قد حباهم بتلك الجاذبية الساحرة التى تجعلهم يحبون كل البشر ،وتجعل كل البشر يقعون فى هواهم بنفس الدرجة وأن هذه «الكاريزما» التى يتمتعون بها هى موهبة إلهية أصيلة فيهم ، لأنهم يضيئون بذواتهم كالذهب الذى لا يحتاج إلى طلاء.

هناك نجوم وأسماء كثيرة فى سماء السخرية المصرية ، من جحا المصرى مرورا بابن مماتى وعبد العزيز البشرى وكامل الشناوى وعبد الرحمن الخميسى ومحمود السعدنى وأحمد رجب وغيرهم كثير كثير ولكننا فى هذا الملف اخترنا واحدا من بين الأسماء الكثيرة . أطلق عليه نجيب محفوظ (شيخ الساخرين) ،وقال عنه رجاء النقاش إنه(موليير مصر) ولقبه محمود السعدنى بـ(الساخر العظيم) هذه الأسماء والألقاب المراد بها(محمد عفيفى) والذى بعد بحق أعظم كاتب ساخر انجبته مصر فى العصر الحديث وفق تعبير السعدنى.

ولعل من أبرز سمات عالم السخرية فى أعمال محمد عفيفى، الشعور بأن هذه السخرية لها أرضية ثقافية عميقة ورؤية فلسفية شفافة لمس بها وجدان الشعب المصرى ،كان عفيفى قريباً من يوميات الإنسان وتفاصيل يومه الدقيقة ،ولقد حول المقال والتعليق والصور القلمية الساخرة من نص تنتهى علاقتك به سريعاً أو فور قراءته إلى نص أدبى رفيع المستوى ،وهذه الخصيصة ترجع إلى أسلوبه وعبقريته اللغوية التى مزج بها الفصحى بالعامية بشكل لم يسبق له مثيل من التفاعل والبساطة والانسجام .هذه اللغة لم تأت عفو الخاطر أو نتيجة العمل الصحفى وضروراته المهنية والتى على رأسها الاقتراب من لغة الشارع والقارئ العادى. بل بسبب أن عفيفى عنده (مشروع لغوى) ،نعم مشروع .منذ عام ١٩٤٦ أى منذ صدور أول كتاب له، (أنوار، مجموعة قصص ،مطبوعات مجلة القصة العدد ٢٢ عام ١٩٤٦) ، صدر الكتاب بمقدمة طويلة- كعادة الكتاب والفنانين فى هذه المرحلة الرائعة من مسيرتنا الثقافية والحضارية- فى تلك المقدمة تحدث محمد عفيفى عن اللغة ولاسيما علاقة الفصحى بالعامية .فالأدب «ينبغى أن يكون حالاً مباشرا ، يحدث بوساطة لمحات سريعة خاطفة ، فى شكل كلمات نابضة ، تتجمع فى ذهن القارئ الفور فتقدح به شرارة مماثلة للتى فى ذهن الكاتب وتتسم بذلك معجزة الإيحاء» .ومن الواضح أنك لو قلت فى وصف رجل أنه «ضيق ذات اليد» لم تكن موحياً كما لو قلت إنه« مفلس» ،وكذلك الحالة لو قلت «انتظره وأوسعه ضربا» «بدلا من «استناه ورنه علقة» ، أو ««سب أجداده» «بدلا من «لعن الله سنسفيله» ، أو متوعك بدلاً من «مريض» ،أو «أثقل عليه» بدلاً من «لقح عليه جتته» ، وبقدر نجاح الكاتب فى جعل لغته موحية بإحساسه العميق الذكى بالحياة ، يكون نجاحه كفنان ،هذا رأى أو بعض ملامح مشروع محمد عفيفى بخصوص اللغة ،مع انحيازه قليلا للغة العامية لان العامية لغة حياة ، وليس كل الناس يعرفون الحياة .إضافة إلى ذلك يمكن القول إن العامية ، لغة القلق والتوتر اليومى ،والفرصة الآنية ذات مرونة وإيقاع وحركة . ولا يعنى هذا أن هناك صراعاً بين العامية والفصحى ، بل امتزاج وتضامن كما كان يعتقد منذ ١٤٨٩ الشاعر الفرنسى «فرنسوا فيلون» الذى عرك الحياة وخبرها، فقد عاش وسط اللصوص والمجرمين واتهم أكثر من مرة بالسرقة والقتل ، بالطبع يمكننى الآن أنا أرى حاجب السخرية لمحمد



عفيفى يرتفع ثم أسمعه يقول« يعنى مالقيتش غير ده».

وكمثال تطبيقى على لغة عفيفى وأسلوبه سأتوقف عند كلمة ومشهد من أعماله .المشهد من كتاب« ابتسم من فضلك» هذا الكتاب سلسلة من المقالات القصيرة والمشاهد . ومقالات عفيفى ومشاهده ، اعتمدت أولاً على(التأمل) ، التأمل الطويل لمشهد أو حادثة أو قصة ،ومن خلال المشاهدات الكثيرة ، يدون الكاتب ما رآه ببساطة وعمق ، يأخذ فى الغالب شكلاً قصصياً ،وفى مساحة لا تتجاوز أربع أو خمس صفحات ،وهناك نماذج كثيرة اخترناها فى(الديوان الصغير) ولكنى سأتوقف عند مشهد(صورة سيدة نظيفة) ،عن رجل يمشى فى الشارع ويستهويه بشدة- وبسبب لا يفهمه- منظر الأنثى وهى تنشر الغسيل هناك فى بلكونتها .هذا المشهد أو المنظر الفائق البساطة الذى نراه مئات المرات ، يتوقف عنده عفيفى ويشكله بأسلوب يذكرك بطريقة المحبين والعشاق والمهووسين النادرين للفن والحياة ،الذين تشدهم كل همسة وتفصيلة صغيرة .فى هذا المشهد يوجد كل ما يتعلق بفعل الغسيل من رغى الصابون ، الدعك ، إضافة الزهرة ، الشطف ، العصر، الذهاب إلى البلكونة ، الشعر المنكوش وفى بعض الأحيان يكون ملفوفا بإيشارب ، الانحناء على الصينية أو قروانة الغسيل ، نزول حمالة القميص وهى تمد يدها، إذ أن معظم الإناث- لسبب لا يفهمه أيضا- يفضلن نشر الغسيل وهن فى قميص نوم بمبة وذى حمالات ، بعد ذلك تثبيت المشابك فى الحبل ثم الأنثى وهى تشب على أطراف أصابعها لكى تصل بتلك الفانلة إلى الحبل البعيد ، ثم نظرة استعراض أخيرة على الحبال وقد امتلأت بالغسيل ثم -وا أسفاه-تغلق الشيش ، ستار الختام الذى كان مقدراً له أن يهبط على تلك المسرحية القصيرة الممتعة.

هذا هو المشهد أما الكلمة التى اخترتها والتى عزف عليها هذا الكتاب القدير عشرات المرات وفى كل مرة حملها دلالات ومعانى مختلفة ، فهى كلمة (الحاجب).

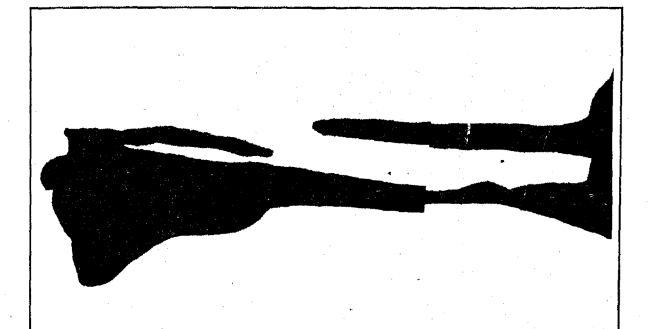
* قلت له وأنا أرفع حاجب السخرية الأيسر.
* قلت له وأنا أرفع حاجب الكبرياء الأيسر.
* قلت لها وأنا أرفع حاجب التصحيح الأيسر.
*فنظرت إلى قميصها ورفعت حاجب المجون الأيسر.
* فرفعت حاجب الفلسفة الأيمن.
*وأنا أرفع حاجب العلوم الأيمن.

طبعا هناك تنويعات عديدة على(الحاجب) وعلى أعضاء أخرى من الجسم مثل ، رقبة السخرية وجفون التواضع ، كذلك اللعب بمفردات أخرى ودمجها فى جمل وعبارات تفجر الابتسام والسخرية ، كوصف محاولة مغادرة المنزل عن طريق الطابق الثانى أو العاشر أو منع طفل من محاولة رى الزهور المرسومة على كنبة الصالون بكوب ماء . يمكننى التوقف بالنقد والتحليل عند أدق التفصيلات والكلمات فى أعمال محمد عفيفى ، لكن المجال لا يتسع وأيضا يجب أن أتنحى وأحنى رأس التواضع والمحبة لأصدقاء وزملاء ومحبى محمد عفيفى ،كى يتحدثوا ، عنه وعن أعماله.



يتسع المجال ويترامى لمن يريد أن يكتب عن محمد عفيفى ،فقد كتب القصة القصيرة ببراعة وفنية وله فى شكلها تجربة أسلوبية متميزة وكتب الرواية العاطفية والرمزية فأجاد وأبدع والف مسرحية وبرامج إذاعية متنوعة ، ونهل من بحر الثقافة بعمق وشمول وقام فى ذلك برحلة طويلة بدءا من التراث وحتى أحدث ما تموج به من تيارات فكرية وفنية واجتماعية ومع ذلك فقد عرف بالكاتب الساخر وغلبت كتاباته الساخرة على جميع كتاباته سواء ما نشر منها فى الصحف والمجلات أو ما ظهر فى الكتب ولم يتقرر ذلك اعتباطا ولكن استنادا إلى رؤية قوية ثابتة تغلغلت فى أعماقه حتى صارت طبيعة ثانية له أو قل هى طبيعته الأولى فمنذ زمن مبكر جدا اكتشف عبثية الوجود والمجتمع . وتابعها بعين متفحصة فى الطبيعة والعلاقات الاجتماعية والتقاليد البشرية والحياة اليومية .

وكان ذلك جديرا بأن يخلق منه مفكرا متجها كأبى العلاء المعرى أو شوبنهور ، أو أديبا غاضبا مثل بيكت ولكن طبيعته الدمثة اللطيفة الودود اختارت له أن يمضى كاتبا ساخرا وأن يعبر عن سره الدفين بالدعابة والنكتة والملحة وأن يشيع البهجة والابتسامة بديلا عن الحزن



والأسى وباختصار أن يأوى إلى فندق الانس العامر بالأرواح المتمردة الضاحكة من أمثال الجاحظ والمازنى والريحانى وشارلى شابلن أولئك الذين صمموا على ارتقاء ذروة السخرية وذلك بتحويل فراغ الحياة وعنائها إلى أفراح ومسرات متحدين الأقدار راقصين فى رحاب الفناء وكانت السخرية محور حياته ينبض بها قلبه ويفكر بها عقله وتتحرك فيها إرادته فهى ليست بالثوب الذى يرتديه عندما يمسك بالقلم وينزعه اذا خاض الحياة ولكنها جلده ولحمه ودمه وأسلوبه عند الجد والهزل ولدى السرور والحزن فما من شئ إلا ويثير السخرية غير أنها سخرية تتنوع وتتلون بحسب المقامات والأحوال من أجل ذلك شعرنا نحن أصدقاؤه بأننا نعاشر عبقريته فى كل حين لا حين نقرأ له صورة أو كتابا ومن أجل ذلك شعرنا بفنه إلى أرفع مستويات الأدب وقد كنت أنوى أن أكتب عن محمد عفيفى الصديق ولكنى انسقت إلى الكتابة عن الفنان هربا من مطاردة الذكريات الملحة وتجنبا للانغماس فى أحلام حلوة لم تعد حلوة وأحاديث ضاحكة هانئة انقصف الوتر الذى كان يعزفها وأغضاء عن العامين الأخيرين اللذين انقض فيهما وحش المرض المفترس على شيخ الساخرين فلم يهزم روحه الخالدة ولكنه هزم أصدقاءه المحبين الذين أحاطوا به ينظرون محزونين مذهولين يائسين لا يجدى حبهم الكبير فى دفع أذى أو تخفيف ألم أو بث عزاء.

وبعد أيها الصديق الراحل فلن أقول لك- ومعى كل الحرافيش -وداعا ولكنا نقول معا كما اعتدنا أن نقول آخر كل سهرة وإلى اللقاء.



موليير مصر في الجزيرة المهجورة

رجاء النقاش

وموليير مصر الذى أحب أن أتحدث عنه اليوم هو الكاتب الساحر الساخر محمد عفيفى . ولقد تعودنا خلال تاريخنا الفنى منذ منتصف القرن الماضى أن نطلق اسم موليير مصر على كتابنا الساخرين الذين يمزجون سخريتهم كنوع من الفلسفة العميقة ، لايجعلون من هذه السخرية مجرد وسيلة عابرة للضحك.

ولقد بدأ محمد عفيفى حياته بكتابة القصة القصيرة وصدرت له سنة ١٩٤٦ مجموعة من القصص القصيرة بعنوان « أنوار» وكان لهذه المجموعة مقدمة طويلة عنيفة مليئة بالآراء النظرية ، فى الأدب والفن ، ومن هذه الآراء العنيفة دعوة محمد عفيفى إلى الكتابة بالعامية لأنها لغة الحياة ، ولغة الصدق ، ومن هذه الآراء أيضا هجومه الحاد على الأساليب الأدبية الشائعة واعتباره أن كثيرا من هذه الأساليب قد تحول إلى نوع من « البهلوانية البلاغية» لما فيه من عبث فى استخدام الألفاظ وابتعاد كامل عن الدقة فى استخدام هذه الألفاظ ، وكانت القصص القصيرة التى كتبها محمد عفيفى فى هذه المجموعة قصصا تكشف عن موهبة فنية أصيلة ، خاصة وأنها كانت المجموعة الأولى للكاتب ، ولو واصل محمد عفيفى الكتابة استطاع أن ينمى مستواه الفنى لكان بالتأكيد قد حقق شيئا بارزا فى ميدان القصة القصيرة . ولكنه انصرف بعد أن أصدر مجموعته القصصية الأولى والوحيدة سنة ١٩٤ الى كتابة المقال الصحفى ، لاشك أن محمد عفيفى قد خلق اتجاها ناجحا فى المقال الصحفى .وحقق لنفسه مكانة بارزة فيه فهو الآن واحد من كتاب الصف الأول فى ميدان المقال الصحفى الساخر ، ومقالته الصحفية دائما تشبه بقطعة صغيرة من الحرير النقى، فيها التركيز والأناقة وسرعة التأثير على النفس والعقل ولكن الموهبة القصصية الكامنة فى محمد عفيفى لم تمت ، ولم يستسلم ، بل ظلت تقاوم مع الأيام والسنين ، حتى استطاعت أن تعبر أخيرا عن نفسها فى أول رواية كتبها محمد عفيفى وهى رواية التفاحة والجمجمة »..

وعندما تنتهى من قراءة التفاحة والجمجمة ، يدهشك أن تكون هذه الرواية الناضجة هى أول رواية لمؤلف ، فالعادة دائما أن تكون الرواية الأولى – مهما كان كاتبها موهوبا – عملا فنيا محدودا . ولكنك أمام التفاحة

* كتبت هذه الدراسة سنة ١٩٦٦ بعد صدور رواية التفاحة والجمجمة لمحمد عفيفى.

والجمجمة لاتحس بهذا الشعور .. وأن المؤلف قد كتب كثيرا من روايات قبلها ، فهو كاتب متمكن مسيطر على أدواته الفنية إلى أبعد الحدود . ولاشك أن خبرة السنين الطويلة فى الكتابة والقراءة قد ساعدت محمد عفيفى على أن يتم روايته الأولى على هذا الأساس الفنى الراسخ المتين وخلاصة قصة التفاحة والجمجمة ، هى أن إحدى البواخر قد غرقت فى البحر ، ونجا من ركابها خمسة هم « زازا» الفتاة الجميلة الأنيقة التى هى فى نفس الوقت ممثلة مشهورة . والمهندس أحمد . وشخص آخر قوى الجسد أسمر اللون اسمه توتو . وشخص ثالث هو تاجر يقترب من الشيخوخة اسمه « الحاج طلبه» ومعه تابعه واسمه « كرشه»

وتروى لنا التفاحة والجمجمة قصة هؤلاء الخمسة فى جزيرة مهجورة تمكنوا من اللجوء إليها ، وعاشوا فيها بعض الوقت ، ودار بينهم صراع على مختلف أمور الحياة ، وانتهى بهم الأمر إلى انشاء مركب ركبوه وساروا به فى عرض البحر يلتمسون طريقا للنجاة والعودة الى بلادهم الأصلية. وعندما ركبوا المركب كانوا قد فقدوا شخصا هو « كرشة» ، وقد مات هذا الشخص مقتولا فى الجزيرة المهجورة نتيجة للصراع الذى دار بين السكان الخمسة .

هذه خلاصة عامة مختصرة جدا لقصة التفاحة والجمجمة ، وأول مايجعلنا نحب هذه القصة ونتعلق بها هو الشكل الخيالى الذى اختاره محمد عفيفى لكتابة قصته ، ففى هذا العصر الذى ساد فيه المزاج الواقعى العلمى ، عكس هذا المزاج نفسه على الانتاج الأدبى كله ، أحس محمد عفيفى بغريزته الفنية الخصبة أن عالم الحلم والخيال مازال فيه الكثير ليعطيه للناس ، ولذلك أقام بناء قصته على الحلم والخيال ، وتشعر وأنت تقرأ التفاحة والجمجمة أنك تتنقل فى صفحاتها المختلفة بين عوالم قريبة جدا من عوالم ألف ليلة وليلة المليئة بالضباب والسحر والبخور ، والتى تعطيك متعة لامثيل لها ، هى متعة الاحساس بأنك فى عالم وهمى حالم ، فيه رقة الوهم والأحلام ، فيه بعد عن كثافة الواقع الذى يشبه الكابوس الثقيل المزعج ، هذا السحر الذى ينساب فى صفحات ألف ليلة ، نجده أيضا فى كثير من نماذج الأدب العالمى ، مثل رواية « روبنسن كروزو» المشهورة ، فقد ذهب البطل أيضا إلى جزيرة مهجورة يكتشف ويتعرف ويجد لذته وسعادته فى المفاجآت التى يلتقى بها وتملؤه أحيانا بالرضا ، وتملؤه أحيانا أخرى بالرعب ، ولكنه على أى حال يعيش حياة « طازجة» ليس فيها تكرار ولاملل . بل أننا نجد فى عصرنا الحاضر محاولات من جانب بعض الأدباء العالميين ، يخلقون لأنفسهم جوا أشبه بجو ألف ليلة ، جو إلقاء أنفسهم فى عالم مجهول مثير ، ليكتشفوه وجدانيا ، وليستمتعوا بمعنى المخاطرة فى داخله ، وبالمفاجآت الكثيرة التى تهزهم وتستخرج منهم ردود فعل وجدانية جديدة وعالية ، من هؤلاء همنجواى ، ذلك الفنان الأمريكى ، الذى كان يلقى نفسه فى سعادة غامرة فى قلب الغابات الأفريقية ، ليكتشف ويجرب ويعيش فى عالم أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة ، وليستسلم للمفاجآت المختلفة التى تهز وجدانه وشعوره . هذا العالم الخيالى الساحر الملئ بالمفاجآت هو العالم الذى اختاره لنا محمد عفيفى ليحملنا إليه فى قصته ، فنحن نعيش معه فى جزيرة مهجورة .. لانعرف عنها شيئا .. كل مافيها جديد بالنسبة إلينا .. إننا وجها لوجه أمام عالم مجهول لم نعرفه من قبل.

وهكذا ، يمكننا أن نقول إن محمد عفيفى يعيدنا الى جو القصة الخيالية ، بكل مافى القصة الخيالية من نعومة وأناقة ورومانسية وأحلام . وفى اعتقادى أن هذا اللون من الفن يجب ألا يموت أبدا ، يجب ألا ينحدر أمام المد الواقعى ، فستظل الحياة الانسانية مهما أسرفت فى الاقتراب من الواقع بحاجة إلى هذا الجو الخيالى ، وبحاجة إلى هذا اللمسة الرومانسية الشاعرية .. ستظل الإنسانية حاجة الى أن تتخم خيالها .. الى أن تغفو قليلا وتحلم وتلقى بأعباء الواقع من وراء ظهرها . وعندما يأتى اليوم الذى يعيش فيه الانسان بلا أحلام سوف تفقد الحياة الانسانية كل حلاوتها وعذوبتها وجمالها ، وستصبح الحياة كئيبة ولايمكن أن تطاق . ولعل هذا الحديث يقودنا الى أصحاب النظرية التى تقول إن الفن نوع من تخفيف أعباء الحياة ، نوع من الهروب المؤقت

من متاعبها وآلامها ومافيها من شقاء وأحزان . ولايمكن أن نقبل هذه النظرية بصورة نهائية .. أى أننا لايمكن أن نقول إن الوظيفة الوحيدة للفن هى التخفف من أعباء الحياة . ولكننا يجب أن نسلم أن هناك نوعا من الفن يؤدى هذه الوظيفة ، وأن هذا الفن له قيمته وأهميته الكبرى فى تاريخ الأدب وفى تاريخ الوجدان الانسانى ولاشك أن رواية التفاحة والجمجمة بنسيجها الرقيق وخيالها الجميل ، وأحلامها الساحرة ، تؤدى جانبا من هذه الوظيفة .. إنها تحملنا معها على جناحها لحظة من الزمان ، وتنسينا كل ما فى الحياة من هموم وأحزان ، إنها تنتزعنا من الواقع وتخلعنا منه ، وهى تدخلنا الى عالم لذيذ حلو من المرح ، فتتخدر حواسنا الواقعية طيلة الوقت الذى نقرأ فيه هذا العمل الفنى.

ولو أخذنا رواية محمد عفيفى كما هى ، دون أن نحاول التعمق فيها والبحث وراء مواقفها وشخصياتها عن أفكارها العميقة الكامنة فيها ، لو فعلنا هذا فاننا ولاشك سنقضى لحظات ممتعة غاية المتعة ، مع قصة من قصص المغامرات الراقية البعيدة عن الابتذال.

ولكن هل نكتفى من قصة محمد عفيفى بهذا الخيال الناعم الساحر ؟ هل نكتفى منها بما توفره لنا من متعة الهروب من الواقع والحياة فى جو من السحر والأحلام ؟ هل نكتفى منها بما فيها من رومانسية رقيقة بديعة ؟.. لو لم تقدم لنا التفاحة والجمجمة غير هذه المتع الفنية كلها لكان هذا كفيلا بأن يجعل منها عملا فنيا ناجحا ممتازا . ولكن تاريخ الأدب لم يتعود – مع ذلك كله – أن يتوقف أمام أعمال التسلية لم يتعود أن يجعل للفنون الترفيهية قيمة أو وزنا . فلابد أن يكون هناك شئ أكثر من الترفيه ، وشئ أعمق من المتعة ، حتى يستطيع العمل الفنى أن يقف على قدميه وأن يحقق لنفسه قيمة ومكانة فى الحياة الأدبية.

فهل نجد هذا الشئ الآخر فى التفاحة والجمجمة؟ أننا نجد هذا الشئ بكل تأكيد . وعندما نمشى على الرمال الناعمة للجزيرة التى يعيش فيها أبطال « التفاحة والجمجمة» فان هذه الرمال الجميلة تخفى تحتها الكثير من العمق والكثير من الأفكار الممتازة الثمينة . إن الرواية مليئة بالبساطة والسهولة والعذوبة.

ولكن وراء هذا الشكل كثيرا من الأشياء القيمة حقا ، والتى تحتاج الى جهد لبحثها والتفكير فيها .

فاذا كنت من الذين يحبون الا يكتفوا بالظواهر الخارجية للأشياء ويحبون أن يبحثوا دائما مما وراء هذه المظاهر من قيم وأعماق ، فسوف تجد فى رواية التفاحة والجمجمة أشياء كثيرة حقا!

ولنحاول أن نخرج من جو المغامرات ، ومن البخور والعطور التى تملأ الرواية وتخدر الأعصاب .. لنحاول أن نخرج من هذا كله لنقف أمام مافيها من أفكار متلاطمة متصارعة !

أول مايفاجئنا فى الجزيرة المهجورة أننا نجد فيها جمجمة ونجد فيها شجرة تفاح لاتنفد .. يتجدد تفاحها ويوجد يوما بعد يوم . ولو تأملنا قليلا ماترمز اليه الجمجمة لأحسسنا أن الفنان يريد أن يقول لنا : تأدبوا أيها البشر ، تأدبوا ياأبناء القرن العشرين الذين تتباهون بعلمكم وفكركم الواسع العريض. فانكم لستم أول من ظهر على هذه الأرض فقد سبقتكم إليها أجيال وأجيال . ولابد أن نتصور أن هذه الجزيرة المهجورة هى رمز الكرة الأرضية كلها . وأن الخمسة الذين نزلوا هذه الجزيرة هم رمز للانسان كله . فالجمجمة الموجودة على أرض الجزيرة هى إذن إيحاء بأن الماضى الانسانى ممتد فى الزمن وعريق . كم سبقتنا أنواع من الحضارات الانسانية ، بعضها لانذكره ولا نعرف عنه شيئا . فلسنا أول من جاء الى هذه الجزيرة المهجورة ولن نكون آخر من يجئ . كذلك فان هذه الجمجمة القائمة فى الجزيرة تذكرنا أيضا بالمصير البشرى أن هذه الجمجمة هى الناقوس الذى يدق أمامنا لينبهنا الى هذه النهاية التى تنتظر البشر . وهذه الجمجمة بالذات تعطينا – بما ترمز اليه من بشاعة المصير البشرى – لمحة من لمحات التشاؤم والحزن الكامنين فى أعماق محمد عفيفى ، هذا الكاتب المرح الساخر ، أن الكاتب الفنان هنا – كعادة معظم الساخرين فى أدب العالم – يخفى فى داخله نوعا

من الكآبة العميقة ، ولعل سخريته تنطلق أساسا من هذه الكآبة .. أنه يفكر فى المصير البشرى ، ويجد أن هذا المصير تلخصه هذه الجمجمة المخيفة الملقاة فى قلب الجزيرة ، فلا يجد حلا لهذا كله إلا أن يسخر .. إلا أن يضحك والخنجر فى صدره .. لأنه لاحيلة له ، ولاقدرة عنده على تغيير هذا المصير التعس.

وإذا كانت الجمجمة ترمز إلى المصير البشرى ، فالى ماذا ترمز شجرة التفاح ؟ .. إنها ترمز فيما أظن إلى قوة الطبيعة التى تمد الانسان بما يحتاج اليه باستمرار . وخلال رواية محمد عفيفى نشعر دائما أن الطبيعة لاتبخل على الانسان بشئ أنها تعطيه كل مايحتاج اليه من ضرورات عن طريق شجرة التفاح أولا ثم عن طريق البحر الذى يقدم السمك؛ كلما جاءت الجماعة التائهة فى الجزيرة.

وكم أحس من خلال ماتقدمه شجرة التفاح ومايقدمه البحر ، أن الكاتب الفنان يريد أن يقول إن الطبيعة تعطى الانسان مايكفيه، وإن الانسان يمكن أن يجد طعامه لو عاش فى هدوء وسلام ، وإن الدنيا ليست ضيقة بمن فيها من البشر . لم تبخل الطبيعة على سكان الجزيرة . ولم تحدث مشاكلهم أبدا نتيجة لبحثهم عن الطعام . وإنما جاءتهم المشاكل من الصراع بينهم وبين أنفسهم !

ونترك التفاحة والجمجمة ، بما ترمز اليه التفاحة من عطاء الطبيعة المستمر للانسان ، وبما ترمز إليه الجمجمة من بشاعة المصير الإنسانى ، لنفكر فى القضايا الأخرى التى تثيرها هذه الرواية الجميلة !

ففى الرواية عدة مشاكل أخرى ، نقرؤها بين السطور ، وفى الظلال المختلفة لمواقف الرواية وأحداثها المتتابعة ، وعلى رأس المشاكل التى تثيرها مشكلة « المرأة» ، ففى الجزيرة المهجورة امرأة واحدة وأربعة رجال .. وهى امرأة جميلة .. هى فينوس ، أو تاييس ، أو ماشئت من الأسماء التى ذكرتها الأساطير المختلفة للمرأة فى مختلف العصور .. أو هى فى كلمة أخرى واحدة : حواء الخالدة الأبدية . وحواء أو « زازا » فى رواية التفاحة والجمجمة تكشف عن فكرتين أساسيتين عند الكاتب ، الفكرة الأولى هى أن حواء نفسها فى جوهرها الذى لايتغير لايهمها أى شئ فى هذا العالم أكثر من اهتمامها بالحب والجنس .. إنها تهتم قبل كل شئ بوظيفتها الطبيعية كأنثى .. كل شئ بعد هذه الوظيفة ثانوى .. الفكر والفن والعمل .. أن « زازا» فى رواية التفاحة والجمجمة تستسلم للأقوى باستمرار ، وتستجيب له ، وهى تنتقل من رجل إلى رجل لايهمها أن تكون لواحد معين ، بل يهمها الوفاء أول وقبل كل شئ لوظيفتها الطبيعية الأبدية . لقد كانت « زازا» فى الرواية تميل مرة إلى هذا الرجل أو ذاك ، ولكنها لم تكن تستقر على واحد معين .. كان كل مايهمها أن يكون فى حياتها رجل قوى يحميها ويساعدها على أن تؤدى وظيفتها . وهى فى آخر الرواية تعلن سعادتها الكبرى بأنها تحمل فى أعماقها طفلا. ولايهمها من هو أبوه . المهم أنها تؤدى رسالة الحياة التى تحملها فى طبيعتها رسالة استمرار الانسان من جيل الى جيل.

وهذه الفكرة التى يكشفها لنا محمد عفيفى فى روايته يمكن أن تثير ضده اتهاما بالرجعية . فهو يقتصر فى تحديده لدور المرأة على وظيفتها الطبيعية ، ومن الواضح أنه لايوافق على شئ من الآراء الجديدة الخاصة بوظيفة المرأة فى المجتمع والحياة .

إن كل الرجال فى الرواية يخدمون المرأة ، وهى لاتعمل ، ولا تسهم أبدا فى الانتاج المادى لذلك المجتمع الصغير .. مجتمع الجزيرة المهجورة.

وسواء وافقنا على اتهام رأى عفيفى بالرجعية أم لم نوافق ، فهو على كل حال قد استطاع أن يعبر عن رأيه تعبيرا فنيا جميلا ، فى غاية الرقة والأناقة .. إننا عندما نتذكر شخصية « زازا» فى هذه الرواية .. فانما نتذكر المرأة الجذابة الناعمة ، التى لاعمل لها الا أن تجذب الرجال وتثيرهم ، إنها الأنثى الخالدة ولاشك ، وقد أجاد محمد عفيفى رسم شخصيتها ، بحيث استطاعت أن تجمع فى هذه الشخصية بين معناها الرمزى العام

كأنثى خالدة ، وبين معناها الخاص وشخصيتها المستقلة الفردية.

على أن وجود « زازا » فى الجزيرة قد أتاح لمحمد عفيفى أن يعرض فى روايته فكرة أخرى ، غير فكرته عن وظيفته المرأة ودورها فى الحياة الإنسانية ، هذه الفكرة هى أن " المرأة" مصدر أساسى من مصادر الصراع فى الحياة .. لقد دار حولها صراع ضخم بين الرجال الأربعة ، كل منهم يحاول أن يحصل عليها ، وأن تكون زازا له وحده . وقد تسبب وجود « زازا» فى كثير من المشاكل التى وقعت بين الأبطال الأربعة وانتهت بمقتل واحد منهم هو « كرشة». أذن فالمرأة – كما يرى محمد عفيفى فى هذه القصة – سر من أسرار المشاكل التى يتعرض لها البشر ، وسر من أسرار الصراع بين الناس وبعضهم البعض . وهى تخلق المشاكل ، ولكنها لاتشترك فى الصراع . أنها تنتظر الفائز لتستسلم له .. إنها تقدم نفسها للأقوى بأستمرار وهذا الموقف يؤكد مرة أخرى النظرة « الطبيعية» التى ينظر محمد عفيفى بها الى المرأة .وبالنظرة الطبيعية أن المرأة فى رأيه تتحرك حسب نظرتها وغريزتها وأنها لاتفكر الا فى تحقيق وظيفتها الأبدية كأنثى ولايهمها بعد أى شئ آخر .. أنوثتها هى الأساس ، وجودها ، وقدرتها على الانجاب والعمل على استمرار الحياة ، هذه القدرة هى النفع الوحيد الأساسى الذى تعترف به المرأة وراء وجودها الانسانى.

وننتقل بعد ذلك إلى فكرة أساسية أخرى يعالجها محمد عفيفى فى روايته الجميلة .. الفكرة هى فكرة « القوة» وفى فكرة القوة هذه يدور كثير من الخواطر الممتعة فى رواية التفاحة والجمجمة:

فالقوة من ناحية تتمثل فى السلاح ، فقد كان فى الجزيرة مسدس جاء به أحد أبطال القوة معه ، وكان فى الجزيرة أيضا خنجر .. وفى البداية قبل ظهور الخنجر والمسدس ، كانت هى القوة العضلية التى لاتحول معها إلى أى آلة أخرى. صاحب القوة العضلية هو السيد فى الجزيرة المهجورة . ثم عندما ظهر الخنجر أصبح من يحمل الخنجر هو السيد . ولما ظهر المسدس ، أصبح أقوى الأفراد هو من يحمل المسدس ، أى معنى القوة قد تدرج من القوة الطبيعية الى القوة بواسطة أو الأدوات المستخدمة. وهذا بالفعل أن يكون خلاصة لتبنى دور القوة فى التاريخ الانسانى فلقد بدأت القوة تفرض سلطانها على الانسان فى بداية الحياة الانسانية عن طريق العضلات لقد كانت العضلات فى فجر الحياة الانسانية تحل محلها القنبلة الذرية الآن ، ومن يملك العضلات فكأنه يملك القوة الذرية .. الانسان الذى يملك العضلات القوية ، أو القبيلة التى تملك العضلات القوية .. كان الانسان أو هذه القبيلة هى أكثر قوة فى العالم . ثم تطور من القوة ، فأصبح من يملك الخنجر هو الأقوى دائما ، وبعد ذلك أصبح من يملك البندقية هو الأقوى ،. وأخيرا أصبح من يملك القنبلة الذرية هو أقوى الأقوياء حتى ولو كان بلا عضلات ..ولو كان رقيقا كالنسيم .. وأصبح أصحاب العضلات فى الغابة والأحراش لاقيمة لهم ولا أهمية لهم فى ميدان الصراع على القوة.

وهناك معنى آخر للقوة يظهر أمامنا فى « التفاحة والجمجمة» .. هو قوة الذين يملكون .. الملكية نفسها قوة ، وهى مستعدة للاستبداد والشر « فالحاج طلبة» يملك مالا كى تعبر عنه الشيكات التى يحملها معه ، ،كلما استعصى عليه أمر من الأمور استخدم شيكاته ليفرض رهبته .. وليفرض سلطانه ونفوذه .. والمال أو الامتلاك لايختلفان كثيرا عن الخنجر أو المسدس كأداتين من أدوات القوة.

وفى لمحة ذكية أخرى فى رواية التفاحة والجمجمة يشير الكاتب الفنان الى أن السلاح يمكن أن يكون أداة للحياة ، ويمكن أن يكون أداة للموت .. فالخنجر الذى قتل « كرشة» وقضى عليه ، هو نفسه الخنجر الذى يصطادون به السمك ، ويحصلون به على طعامهم الرئيسى ، وهو الخنجر الذى يصنعون به مركبا لانقاذهم من الضياع فى هذه الجزيرة المهجورة . فسلاح الحياة اذن هو سلاح الموت . والفرق بين الموت والحياة ، بين الشر والخير ، هو الفرق الكامن فى الإرادة الانسانية التى تستخدم السلاح .. فالأخيار يستخدمون السلاح للخير ،

والأشرار يستخدمونه للشر .. والمشكلة فى داخل الانسان نفسه وليست فى الأداة التى يستخدمها.

ولمحة ذكية أخرى تكشفها لنا رواية التفاحة والجمجمة .. ففى أبطال الرواية شخصية أساسية هى شخصية « أحمد» وهو الذى يمثل العقل أو الثقافة .. أما بقية أبطال القصة فهم يمثلون القوة المادية فى مختلف صورها . والذى يحدث فى الرواية أو الثلاثة الذين يمثلون القوة المادية كلما أمسكوا بالسلاح حاولوا استخدامه فى الهدم والتدمير والقتل .. كلما شعر واحد منهم أنه أقوى من الآخرين استغل قوته على الفور فى الحصول على الطاعة والولاء من الآخرين . وانتهى الأمر بأن مات أحد هؤلاء الثلاثة مقتولاً بطعنة خنجر . الوحيد الذى لم يحاول أن يقتل أحدا عندما استولى على السلاح هو « أحمد» .. رمز العقل والثقافة .. لقد كان يهدد بالسلاح ويحاول استخدامه فى سبيل اقرار الهدوء والنظام فى الجزيرة ثم استخدمه استخداما محدودا . ولكنه لم يحاول أبدا أن يقتل ولم يحاول أن يجعل السلاح أداة للدمار.

معنى هذا ولاشك أن المثقفين والفلاسفة إذا حكموا العالم فانهم يعرفون قيمة الحياة البشرية .. وأن السلاح فى أيديهم لن يكون الا وسيلة من وسائل السلام .. وهذا ولاشك يعود بنا الى رأى أفلاطون ذلك الرأى القديم الذى يقول أن المجتمعات الانسانية يجب أن يحكمها العلماء والفلاسفة .. ضمانا للتقدم وضمانا للسلام . من بطن هذا الرأى يخرج الرأى الذى عبر عنه محمد عفيفى تعبيرا فنيا رقيقا .. وهو أن السلاح فى يد أصحاب العقول الكبيرة والثقافة والاحساس الفنى لن يكون أبدا أداة للقتل أو للدمار.

وفى آخر الرواية يتم المهندس أحمد صناعة مركب يركبها الأربعة الباقون فى الحياة من سكان الجزيرة المهجورة ، وهذه المركب أشبه بسفينة نوح الشهيرة التى أنقذ فيها نوح الحياة الإنسانية من من الدمار النهائى. لقد انتصر العقل ، وفتح طريقا للخلاص أمام سكان الجزيرة .. فركبوا المركب .. وخاضوا بها عباب البحر .. وتنتهى الرواية دون أن يصلوا إلى الشاطئ .. بل مازالوا يصارعون المجهول .. ويحاولون الوصول إلى الشاطئ .. وفى هذه الخاتمة ايحاء فنى وفكرى جميل بمعنى من المعانى الأصيلة التى يشير اليها محمد عفيفى .. هذا المعنى هو أن الحياة الانسانية لاتزال تصارع المجهول ، ولاتزال تبحث عن شاطئ النجاة والخلاص .. إنها فى عرض البحر .. تصارع ولم تعرف استقرارا نهائيا بعد..

ألم أقل لك ، إن الرواية الناعمة الجميلة التى كتبها محمد عفيفى، مثل منديل حريرى لأحد السحرة ، إذا نظرت اليه نظرة سريعة لم تجد فيه شيئا إلا الملمس الناعم الذى لايثير أى شئ على الإطلاق . ولكنك إذا قلبته وجدت فى داخله أشياء وأشياء .. أنه ممتلئ بالأشياء الكثيرة المختبئة فى داخله وهكذا فرواية محمد عفيفى التى يمكن أن تقرأها كأنها حلم مرح ، ومغامرات طريفة معظمها سار ، وأقلها محزن .. هذه الرواية المليئة بالمتعة والتسلية فيها الكثير من الفكر ، والعقل والقضايا الانسانية الكبيرة المتعددة العميقة .. فلاتخدعك نعومة الرواية وسلاستها ، وحاول أن تفكر فيما وراءها من قضايا وأفكار تشمل الحياة الإنسانية كلها.

ولاأريد أن أضع القلم دون أن أشير إلى أن الرواية من الناحية الفنية تعتمد على أسلوب شديد التركيز والوضوح ، وتعتمد على مهارة فنية واسعة تجر القارئ جرا إلى التهام صفحاتها بسهولة ويسر ، وتعتمد على قدرة واضحة فى بناء الشخصيات ، والانتقال الرقيق من عالم الواقع الى عالم الرمز ، من الحياة المادية الى الحياة النفسية ، أما الحوار فهو جميل شديد الأناقة والعذوبة والمرح .. وأمنيتى أن تكون التفاحة والجمجمة تجربة أولى يتبعها فى ميدان الرواية ماهو أعمق وأشمل وأغنى بالفن والحياة ، وألا تكون محاولة يتيمة . يقضى عليها باليتم كسل محمد عفيفى ومايملأ نفسه أحيانا من شعور عميق باللامبالاة!

حمى الله محمد عفيفى من نفسه واعطاه القدرة على مواصلة طريقه كروائى موهوب.



سحر محمد عفيفى الذى لا يقاوم

د. على الراعى

قاوم – إن استطعت – أن تندمج فى عالم محمد عفيفى، فى هذا العمل الأخير الذى كتبه قبل وفاته من ثلاثة عشر عاما أو نحوها . افعل ما شئت . قل إن هذا ليس فنا قصصيا، وإنما مجموعة لوحات تشكيلية ، قل إنه معزوفات موسيقية متتالية. قل إنه عالم غريب،غير معقول، لا يصوره إلا رجل تداخلت الصور والأشياء والكائنات أمامه: الحيوان، والشجر، والزهور، والنحل، وطائر الوروار، والهدهد، والنمل، والنخل، والكلب، والضفدع، وعم جمعة البستانى، وأمينة الزوجة التى تكره هذا العالم كله، أو تستخف به معظم الوقت، وترضى عنه فى أحيان قليلة لأنها تحب زوجها. قل إن هذا كله يشكل خليطا من الأشياء والعواطف والأفكار لرجل عجوز يجلس فى حديقة بيته على كرسى عتيق مؤهل للتداعى ، وينظر إلى ظاهر الأشياء وباطنها معا، فتتدفق الصور والأحاسيس أمامه طازجة، عريانة، فاتنة، آسرة، بريئة كالأطفال يوم تلدهم أمهاتهم، إذا قلت هذا كله، تكون قد وصفت هذا العمل الفنى الفذ من الخارج ولكنك لا تكون قد خبرت روحه واتصلت بسره العميق. لا تحقق هذا الوصل مع فن محمد عفيفى إلا إذا دخلت عالمه بقلب مفتوح،وعن الطريق المؤدى. كما فعلت أنا، ما إن قرأت سطورا قليلة من «ترانيم فى ظل تمارا» حتى وقعت في غرامه . أى نعم وقعت فى غرامه.. وما لبث الغرام أن اشتعل، وأسلمنى إلى وجد ملتهب ورغبة عارمة فى أن ألتحق بهذا العالم. أن اقترن به وأصبح جزءا منه.

يقول محمد عفيفى فاتحا أبواب عالمه لمن يشاء الدخول:«الفراشة البيضاء.ومضت فوق السور النباتى

المرتفع، كعادتها كل صباح، وكعادتى أسفت لأننى يجب أن استبعد ذلك الشعور اللطيف بأنها هى نفس الفراشة التى تزور حديقتى كل يوم. وتلك الفراشة الواحدة. قد أسميتها بينى وبين نفسى: «فروشة»

ورفرفت فروشة هنا وهناك، باحثة عن رزقها، حتى جذبتها وليمة الألوان فى حوض «البانسيه» فألقت بنفسها فيها، وعلى إحدى الزهور حطت مبسوطة الجناحين تنهل فى حب من عذب الرحيق، وكانت بجانبها زهرة رسم عليها بالأصفر والبنى وجه قرد ضاحك وأخرى عليها طفل بنفسجى مذعور: مكان لطيف لفراشة لطيفة بيضاء!»

«بجانبى حيث جلست على الكرسى القش الأصفر العتيق، مستظلا بصديقتى العزيزة تمارا، التى من خلال أغصانها تتساقط عشرات من دوائر الضوء الصغيرة البيضاء، وتنفرش مثل قروش فضية متراقصة على النجيلة الخضراء، وعلى الترابيزة المستديرة المصنوعة من الخشب الخشن الأبيض الغامق، وفوقها كوب الشاى الكبير الخزف البنى، الذى انكسرت اذنه من زمان فحمدت الله على الخلاص منها بينما قرش فضى قد سقط على سطح الشاى متلاعبا كأنه عين تغمز!»

«هنا أحب الجلوس فى هذا الجو المعتدل من أوائل الخريف، أحظى من الشمس بدفئها دون لسعتها. فليس من أجل عطر تمارا أجلس تحتها، لأنها قلما تجود بعطرها إلا قبيل الغروب ، والنهار يسلم المفاتيح للمساء».أسمى محمد عفيفى الشجرة تمارا تدليلا لها. هى شجرة تمر حنة، قال لزوجته من سنوات إنه أسمى الشجرة تمارا، فقالت له بعد قبول مفاجئ، واعتراض على تسمية الأشجار وتدليلها: «ربنا يكملك بعقلك»!

***

الزوجة فى هذا العمل الفريد، الذى يتحدى التصنيف ، تمثل الواقع الواضح الصارم، الذى لاصبر له على خيال مشتعل، ولا على صوفية عميقة، وإن لم تبد أعماقها الحقيقية للنظر المتعجل. لها قصة واقعية مؤلمة. ابنها الذى ربته وفرحت بمقدمه فرحة الدنيا ذهب إلى الحرب فلم يعد. قالوا لها إنه مفقود. ينظر الفنان إلى زوجته العجوز المسكينة فيتذكر كيف كانت ذات يوم شابة حلوة شهية مليئة برغبة الحياة وبالطفل الذى قدر له أن يضيع كانت متمددة على كنبة تقرأ، وفجأة هتفت تنادى زوجها:« تعالى قوام! اجرى أمال! هات ايدك»! وخطفت يده ووضعتها على نقطة من بطنها قائلة فى فرح بالغ:«حاسيس بيه؟ بيلعب! والنبى بيلعب!».

ها هو ذا يضيع منها، وتضيع معه فرحة العمر كله. يصبح الولد اسمه إبراهيم – صورتان معلقتان على جدار، صورته وهو طفل يصرخ ويضرب الهواء بذراعيه، والأخرى لشاب وسيم يغالب ابتسامة تريد أن تفرض نفسها على الصورة وحين يعرض الزوج على زوجته – رحمة بها – ان ينقل الصورتين من غرفة النوم إلى مكان آخر، ترد عليه بوحشية: ستبقى الصور أمام عينيها دائما، إلى أن يأذن الله وتذهب هى إلى الولد بنفسها!

بعض من فن محمد عفيفى يظهر فى ذكر الأشياء المهمة بطريقة عارضة، كأنما هى ترد على الخاطر مصادفة . ومأساة الأم – ومأساة الأب التى يحاول أن ينساها – هى فقد ابنه البكرى بهذه الطريقة المؤلمة المحيرة. لايقول لهما المسئولون إن الولد مات، ولا يقولون إن هناك أملا فى أن يعود. بل يضعون عليه وعلى ذكراه الكلمة التى لا تقول إلا قليلا، وهى مع ذلك تعنى كل شئ:

الفقد التام!

ذكر عسكرى قادم من سيناء يجرى القنبلة كانت تنزل على اللورى فتحوله بجنوده إلى فحمة سوداء. صورة افزعت الأب لمدة طويلة إلى حد الإذلال وحرص على ألا تصل إلى الأم. ثم أخذ يعزى نفسه بأن التفحم خير من جثة في العراء تنهشها الوحوش فى الوادى المقدس!

علاقة الزوجة بزوجها هى علاقة النقيض بالنقيض. يرى هو الأشجار والثمار والزهور وأحياء الحديقة من منظور إنسانى جمالى، وترى هى هذا العالم من منظور النفع المادى. الأشجار تحظى برضاها إذا ما كانت تثمر وتنتج ما يؤكل الحيوانات بعضها محكوم عليه بالطرد، الكلب نجس فلا يسمح له بدخول الحديقة أو البيت، فرس النبى مبروكة ، وهى لهذا تدخل فى محيط رحمتها. الهدهد مبروك هو الأخر، لأنه صديق سيدنا سليمان. ولكن الزوج ينظر ويرى شيئا آخر الكلب مظلوم، لم يفعل ما يستحق عليه تهمة النجاسة. ولو رأت الزوجة فرسة النبى وهى تلتهم الذكر قطعة قطعة حتى يتلاشى. ولو رأت الهدهد وهو يهاجم عش العصافير ويلتهمها واحدا بعد الآخر، ثم لو رأته بعد ذلك يهوى إلى الأرض تحت وابل من الدش السماوى - المطر - انهمر فجأة لو كان أخبر زوجته بهذا، لقالت إن الوهم قد استبد به من طول حديثه للأشجار والزهور والحيوانات.

ومع ذلك فإن الزوج يحب زوجته. ينظر إليها بحب ورثاء، من فوق خيوط التريكو التى تغزل بها «بلوفر» لابنها الآخر.. حمادة، الذى هاجر إلى أمريكا وأرسل إلى والديه تذكرتى سفر كى يزوراه. فسافرت الزوجة دون الزوج ودعا هذا لزوجته أن يحميها الله وسط شعب نصفه لصوص وقطاع طرق، ونصفه الآخر يجرى تحت سيل من الطلقات النارية التى لا تنقطع!

***

وسط جنته يقعد الزوج ليقلم الشجر والزهر والحيوان،الأسماء كلها. تمر حنة تصبح تمارا، شجرة الليمون تصبح زهيرة، تخفيفا من بنزهيره - اسم الليمون. والفراشة فروشة، والقطة السوداء مونى.. يرى الكاتب في كبريائها واعتدادها بنفسها ارث القرون، أيام أن كان أجدادها يعبدون في مصر القديمة. ويتسلى بمغامراتها النزقة إذ تسمع العصافير فتتحفز لصيدها ثم تقبع عاجزة عن الوصول إلي مخلوقات حباها الله بجناح كى تطير من مواقع الخطر. والضفدع يحمى نفسه ممن يريدون افتراسه برائحة كريهة وسائل لاذع، وطير الوروار الذى يطارد النحل في أعالى السماء ويلتهمه فى وليمة شهية، يسقط هو نفسه إلى الأرض فيصبح بدوره وليمة أشهى للقطة مونى، التى لا تعرقل رغباتها وشهيتها اعتبارات اخلاقية من أى نوع!

الخلائق كلها تظهر وتكبر وتموت، أو يقطع الأشجار منها جشع المقاولين وجمعة البستانى الذى هو فلاح أصيل، يحب ويزرع الزهور فى استمتاع وحس جماعى، لا يكدر عليه عيشه إلا أن أولاده الصغار يموتمون فيحقد على زوجته لأن بطنها نجسه، باردة، لا تحافظ على الأحياء!

يدخلنا محمد عفيفى إلى هذا العالم الرحب الحافل فى سهولة وتلقائية، يلفها حزنه الشفيف وسخريته العذبة التى لا تقطع لحما، ولا تسيل دما، وتحاول أن ترد عالم محمد عفيفى إلى أصوله المحتملة، فتجد فيه أصداء من «كليلة ودمنه» ومن محبى الحيوان والنبات من أمثال : دكتور دولتيل، وتجد فى تحريكه لاحيائه ونفخ الروح الإنسانية فيها ما يذكرك بأفضل ما تفعله الرسوم المتحركة، وأقربها إلى الذكر الفيلم



العظيم :«الأسد الملك» الذى ظهر أخيراً فاحتضنته قلوب الكبار قبل الصغار، لما يثير من تعاطف مع بعض حيوانات الغاب، وما يقدمه من درس عميق في وجوب الدفاع عن الأرض والميراث وشرف الآباء والأجداد.
انظر معى إلى هذا الحدث الكارتونى اللطيف الذى يصرخ طالبا التجسيد: على غصن من (زهيرة) حط عصفوران، يتصايحان. وكنت أظنهما يتغازلان ويتناجيان بأعذب الألحان كما زعم الشاعر. ولكنهما كانا يتخانقان ويتبادلان من الشتائم أوسخ ما يعرفان . وما لبثا أن طارا بعد أن هزا الغصن بقوة فأسقطا منه ليمونة كبيرة صفراء على دماغ القطة السوداء. وكانت القطة نائمة، فرفعت رأسها وصوبت نحوهما عينين خضراوين ناعستين، واختلجت شفتاها مع شاربها، مع «نونوة» خافته هى التجسيد المرير لشوقها اليائس إلى هذا البروتين الطائر وكدت أسمعها تقول يارب!.. .. خلقت لنا العصافير لكى نأكلها ونسبح بحمدك، فلماذا يارب، لماذا – خلقت لها أجنحة تهرب بها منا؟!
تتعاون الفكرة مع الألوان مع الكوميديا لخلق مشهد كرتونى ممتاز: الليمونة الصفراء تسقط على دماغ القطة السودا. وهذه تنظر بعيون خضراء وترتعش منها الشفاه والشارب، مع نغمة التحسر علي ما لايطال. شاعر ، وفنان تشكيلى ممتاز، وصوفى يعيش الظاهر والباطن معا، ولسان عذب، وصبر يحتمل المكاره فى هدوء ويجد للناس جميعا عذرا فيما يرتكبون من حماقات وفهم ومعرفة كبيران بعلم الحيوان، وامتداد واضح الى التاريخ هذا ما يقدمه محمد عفيفى فى هذا العمل الفذ:«ترانيم فى ظل تمارا» وقد استجاب الفنان الممتاز حلمى التونى للشعر والرسم والحديث والتحرك فقدم غلافا للعمل، اقترن هو الآخر بعالم محمد عفيفى ، لم ينفصل عنه، كما اقترنت أنا، متمتعا، مستعذبا، فرحا بطزاجة النظرة ونبل التأمل..!





الأدب الساخر بين المازنى وعفيفى

د. نعمات أحمد فؤاد

كتابنا محمد عفيفى وقبله المازنى وقبلهما البشرى أعلام الأدب الساخر وهو فن مركب أى يحتاج إلى قدرات : قدرة الكتابة ، وقدرة النفاذ إلى مواطن الحقيقة وبواطن السلوك ، وقدرة الفكاهة الطبيعية .وليس سهلا أن تكون الفكاهة نهرا عذبا متدفقا حلوا كالنيل.

ويحسب الناس أن الفكاهة هى الخفة .. ويخلط آخرون بينها وبين الضحالة مع أن الفكاهة الراقية لايدفعها إلا ثقافة راقية متنوعة عميقة لتكون الفكاهة فنا رائعاً وممتعاً .. ريقاً شيقاً .. أو ربيعا دائم الخضرة وبدون هذا تغدو الفكاهة تسلية، أو اقصاها تسرية ، إن لم تهبط إلى منحدر التهريج أو العبث.

وقد كان أعلامنا الثلاثة أصحاب أقلام تقول، لا ألسنة تدور ..أقلام تنقد ولا تنقض ، تمزح ولا تجرح ، مهتمة بالنقص مهمومة من إحساس راق ذكى بالمسئولية.

والفكاهة من هذا المستوى الرفيع ، بعيدة الأثر فى النفوس ، بما تمثل من جمال الصورة ،وجمال الفكرة، وجمال الصدق معا.

والإنسان المصرى منذ القدم أحب الحياة بعد أن زرع وعرف الشمس والماء والحيوان . أصطلح مع المكان وتحاب مع كل شئ فيه.

وحين اصطلح المصريون خاصة الأوائل ،مع الحياة ،أكسبهم التلاقى ،انشراح الصدر ، وانفتاح القلب وقراره وقرته فأعطوه بسخاء من معين فياض.

وانشراح الصدر ، سر الوسامة النفسية فى التمثال المصرى ..وفى الروح المصرية التى نسميها خفة دم.

إن البشر سر من أسرار الشخصية المصرية فهو يغسل بحرا من الهموم ، الشعب المصرى يطرب ويضحك ويتفكه فيحسبه الجاهل به ، سهلا ، وهو صعب يستطيع حين يريد أن يأتى بالمعجزات ويركب

الصعب حين لا تسدل الدلائل من وجهة نظر إلى المراقبين عليها.
ومن القداسة الفرح.. ومن البشر،البشرية..
إن انشراح الصدر ، عناق للحياة.

حتى المرارة والألم يستعلى عليهما المصرى بالضحكة والنكتة ليلطف من حدة الموقف ،وحين نقول ، النكتة لا نعنى أمرا سهلا ،فالنكتة المصرية وراءها بديهة حاضرة ، وذكاء لماح ، وقدرة على اصطناع التورية وتخديم الألفاظ ، فى براعة وسرعة وفن ولباقة أيضا.. لقد كانت النكتة المصرية وحدها ، ترعب الأقوياء ،حتى حرم الرومان على المحامين المصريين ، المرافعة فى محاكم الإسكندرية لأنهم كانوا يغضون من هيبة القضاء الرومانى بالمزاح والدعابة، فى أثناء الدفاع وشرح القضايا!.

لا أتكلم الآن عن إيجابيات وسلبيات النكتة المصرية التى تشكل عامل تعويق فى أوقات عصيبة يقف ويكف فيها الكلام لينطق العمل ، ولكنى أقول إن مثل هذا الشعب ، تكون ، فيه ، مهمة الكاتب الساخر والفنان الساخر مهمة صعبة .

ومن هنا يقل عدد أعلام الفكاهة بمقياس التاريخ الأدبى مع أن رجل الشارع متفكه ، فكه يسمع النكتة ويقولها ..يخف لها مرسلا ، ويهش لها مستقبلا ويضحك منها فى الحالين.

وحين كان يقصد «البشرى» النقد من السخرية أو النقدات اللاذعة للمجتمع فى كتابيه «المختار» و«قطوف» أو صوره الكاريكاتورية فى كتابه «المرأة» كان المازنى يقصد «الاستخفاف» لونا من الاستعلاء أو ترويحا عن النفس ..سخريته أقرب إلى الفكاهة منها إلى السخرية كمذهب ويتجلى هذا خاصة فى كتابه (رحلة الحجاز) الذى ينحو فيه ،منحى الكاتب الأمريكى «مارك توين» فى كتابه وthe Innocent Abroad و إن كان «ندريا» كتوماس هاردى أى أن الإنسان لعبة فى يد القدر ،وعلى هذه النظرة تقوم سخرية المازنى.

وهذه «القدرية» فيها لمسة من طبيعة النفس المصرية عامة حتى لتحد أحيانا من استشرافها إلى فوق «وتطلعها إلى أمام ، وإن كانت ترفدها أحيانا أخرى برصيد كبير من السلوى وتمدها بالطاف من العزاء يقويها على المعاناة ويحملها على الصبر «ويصلها بعد القنوط برحمة الله.

كتب الأستاذ العقاد عن(السخرية عند برناردوشو) فاستوقفه قوله: (إنى أتعب غاية فى التعب فى استنباط ما ينبغى أن يقال ، ثم أقوله بعد ذلك بأدنى العبارات إلى الاستخفاف).

وأحسب هذه المقولة تنطبق على سخرية كاتبنا محمد عفيفى فقد كان واسع الثقافة.. جادا على الرغم من أن أسلوبه الساخر وصوره الضاحكة ، دون أن يسيل دما أو ينكأ جرحا كما فعل كاتبه الأثير «أوسكار وايلد» الذى ترجم له كتابه The Importance of Being Ernest أهمية أن تكون (ارنست) ودون أن تبلغ السخرية عنده ، حد السخط والمرارة كسويفت ، الذى كان ناقما على جميع الأوضاع فى عصره .. لقد كان محمد عفيفى «كالمازنى» يسخران ولكنهما فى سخريتهما أقرب إلى «اناتول فرانس» أى سخرية إنسانية عليها مسحة من حزن لا يحجب سماحتها بل ابتسامتها.

يقول الأستاذ على أدهم فى كتابه ««ألوان من أدب الغرب» (.. وأناتول فرانس ساخر بارع يتخذ سخره قالب البساطة والتواضع ، فهو لا ينكر الأشياء فى عنف ، ولا ينتقص أحدا فى جفاء وشدة ، وإنما يبتسم ابتسامة خفية مهذبة ويتحدث فى رفق ولين ، وهو واسع الاطلاع غزير المعرفة ، وكان لا يمل قراءة التاريخ ولايكل من الغوص فى أعماقه).

ولا أجد أبلغ من هذه العبارة ، وصفا لكاتبينا : المازنى.. ومحمد عفيفى.



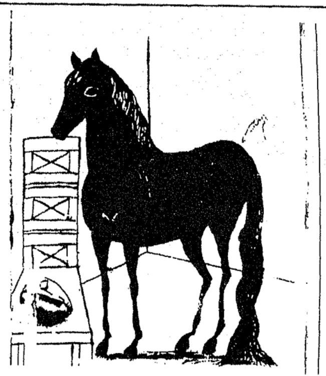
الساخر العظيم

محمود السعدنى

محمد عفيفى هو أعظم كاتب ساخر انجبته مصر فى العصر الحديث . ولكن محمد عفيفى -الأعظم والأقوى -ليس الأشهر بالضرورة- ،وربما جاء- بالنسبة لشعب مصر- فى ذيل قائمة الساخرين -والسبب أن سخريته ناعمة ، وقلمه شديد الحساسية وشديد التربية أيضا ، فهو لا يجرح ولا يدمى . ولا يترك أثرا فى نفس من يتعرض لسخريته . إلا الأثر الذى تتركه موجة خفيفة على شاطئ ساحر وجميل ،وهو أقرب الكتاب الساخرين إلى مارك توين الأمريكى ، وأوسكار وايلد البريطانى ، ولذلك كانت سخريته من النوع الراقى الذى يرسم ابتسامة على الشفاه ، وليس من النوع الذى ينتزع الضحكة من الأعماق . ولو كان محمد عفيفى كتب فى بلد مثل لندن أو باريس ،لأقيمت له التماثيل فى الشوارع وبالتأكيد كان مصيره الدفن فى مقبرة العظماء على شاطئ نهر السين ، فهو ساخر صاحب سخرية ناعمة فقط ، لكنه مثقف ثقافة واسعة ، وخبير فى كل أنواع الفنون ، وسيستفيد قارئ محمد عفيفى دائما من إطلاعه الواسع على أسرار الفن التشكيلى ،وتفاصيل التاريخ الفرعونى ، والعلاقة بين أدب العرب وآداب الآخرين .أيضا لم يشتهر محمد عفيفى فى مصر وفى العالم العربى إلا فى محيط طبقة المثقفين . وهو وضع طبيعى فى مجتمع يعانى من الأمية مجتمع أعظم مدارسه الفنية هى مدرسة يوسف وهبى ! مجتمع لاتنطلق الضحكات المجلجلة فى جنباته إلا على أرصفة المقاهى وفى غرز الحشاشين ! ولم يكن يسوف وهبى زعيما

للفن فى مصر بالقوة الجبرية أو بفرمان صادر من الباب العالى فى استنبول ، ولكن يوسف وهبى وصل إلى هذه القمة وتربع عليها لأنه الوحيد بين الفنانين فى زمانه الذى فهم نفسية شعبنا العربى ، وعرف خفاياها ، ووصل فى أعماقها إلى قرار سحيق .ولقد كانت موهبة عزيز عيد أضخم ألف مرة من موهبة يوسف وهبى . وكانت مواهب زكى طليمات أضخم ألف مرة من مواهب يوسف وهبى . ولكن يوسف وهبى بموهبته الضئيلة استطاع أن يهزم عزيز عيد بموهبته الكبيرة . واستطاع أن يأكل زكى طليمات بالرغم من مواهبه الضخمة . وعاش يوسف وهبى فنانا لدى الجماهير حتى مات ، وعاش أكثر بعد الموت بينما مات عزيز عيد وزكى طليمات لحظة أن زارهما ملاك الموت ، وإن كان كل منهما يعيش داخل المعاهد الأكاديمية وفى ذاكرة المثقفين . وهذا هو الذى حدث للكاتب الساخر الكبير محمد عفيفى .عاش بعد موته عند نقاد الأدب الرفيع .وعاشت سطوره فى ذاكرة المتذوقين .مع أنه كان أعظم من كتب الكلمة الساخرة فى عصره .ومع ذلك لم يستطع أن يصل إلى سطح الهرم الاجتماعى فى تركيبة المجتمع العربى ، لم يصل إلى الأغلبية ، ولم تكتشفه الأغلبية ، وهو سوء حظ محمد عفيفى ، وسوء حظ أكبر للقراء على وجه العموم . ولكن عفيفى الساخر العظيم ، كان يتحمل جزءا من هذه المسئولية .فلقد آثر محمد عفيفى المثقف أن ينزوى فى برجه العالى بعيدا عن مشكلات زمانه ومآسى أهله . وكان ينظر للحياة بعين مغمضة وعين نصف مفتوحة ! واعتمد اعتمادا كاملا على موهبته العظيمة ، وعلى سخريته الناعمة الرقيقة . ولذلك أيضا جاءت سخريته .ناعمة كالحرير .مع أنه لو استخدمها فى المعارك لجاءت ناعمة كالثعبان ، تلدغ وتقتل! ولكنه آثر أن ينفرج على زمانه ، وأن يلمس ولا يجرح ويجرح ولا يدمى .، وموهبة محمد عفيفى فى الكتابة ، كانت أشبه بموهبة عبد المنعم ابراهيم فى التمثيل موهبة عريضة مثل السمك البلطى ، وناعمة ورقيقة مثل حرير اليابان، ومتعددة الألوان مثل يفط الاعلانات ورغم ذلك، فهو أقل الساخرين الكبار حظا ، وأقلهم فرصة، وأقلهم شهرة ! والسبب كما قلت من قبل .هو عيب جمهور القراء فى العالم العربى فنحن ما زلنا أسرى مدرسة افترضت منذ قيامها أن المواطن حمار ومسطول وغائب عن وعيه ! ولذلك أيضا عاش المنفلوطى كثيرا فى وجدان الناس ، عاش أيضا يوسف وهبى لأن صوته كان أكثر الأصوات زعيقا .وكانت حنجرته أشد الحناجر صراخا ، لقد كان من رأى يوسف وهبى مثلا ، أنه لا يجب أن يموت الممثل على المسرح كما يموت الناس فى الحياة ، بل يجب أن يموت على المسرح مرتين وثلاث مرات .ومن هنا ستكرر كثيرا عبارة.

(أنت ذلك الوحش الزنيم ناهش الأعراض وخارب البيوت الذى لعق بلسانه فى دم شرفى تلك الليلة الظلماء الحالكة السواد ، جزاؤك لا يكون إلا الموت ومصيرك الفناء ، خذ ياعدو الله ، خذ، خذ ..عليك اللعنة) ومع كل خذ طعنة خنجر ، بينما القتيل يظل يصرخ بالصوت الحيانى حتى بعد ! سدل الستار ، بل



إنه سيظل يصرخ حتى بعد الموت! ومن هنا سيضيع محمد عفيفى ، لأنه لا يملك هذه الموهبة الجعورية نسبة للجاعورة ، لأن قلمه ناعم مثل موهبته . وهو بذلك سيدخل الحلبة مجردا من السلاح الذى فرضه يوسف وهبى والمنفلوطى وحتى شوقى وحافظ ابراهيم والشيخ عبد العزيز البشرى ، وأصبح هذا الأسلوب الجعورى نفسه هو مزاج الناس! والسبب الآخر هو أن محمد عفيفى الساخر ابتعد عن مزاج القارئ العربى، واقترب من مزاج القارئ الخواجة . ولعل أعظم نموذج على فن الساخر محمد عفيفى عن سفريات قام بها مع أنه قليل الاسفار .اقرأ السطور التى قدمها محمد عفيفى نفسه لكتابه (قضيت سنين طويلة من حياتى أكره السفر واتحاشاه بكل الطرب، وحتى الإسكندرية نفسها ما كنت لأسافر إليها فى الصيف لولا إلحاح الأولاد على، ولولا ماينبش فى خيالى من خواطر صيف بحرية ذات نكهة بيكينية خاصة. فأنا من الناحية النفسية اشبه بالاشجار التى تحب أن تجلس طول حياتها فى مكان واحد عمرك شفت شجرة ماشية .ولعلنى لولا ظروف السفر إلى الرزق لبقيت فى المنزل لا أبرحه .ولربما تناولت الطعام فى السرير كى لا أتجشم مشقة السفر إلى حجرة المائدة– اللهم إلا فضلت أن أنام فى المطبخ) وبعد، هذا هو كتاب محمد عفيفى سكة سفر أقدمه إليكم ، ليس كأستاذ يقدم تلميذاً ، ولكن على طريقة مهرج يرتدى ملابس مضحكة ويقف على باب السيرك يدق ناقوسا يدعو الجمهور إلى الدخول للفرجة على ألعاب السيرك وفنونه .ومهما كان حظ محمد عفيفى فى الكتابة وفى الحياة ، سيظل أكثر الساخرين إحتراما ، وأعظمهم قدراً ، وأرفعهم مكانة وخصوصا لدى المثقفين وسيضحك من الأعماق لفنه العظيم هؤلاء الذين يضحكون من الأعماق لأوسكار وايلد ومارك توين.



ياعفيفى .. تعال

يوسف معاطى

لا أعلم لماذا تصورت الكاتبة المبدعة الأستاذة فريدة النقاش أن الكتابة عن محمد عفيفى مسألة سهلة .. ولا أعلم لماذا اعتقدت أنها سهلة على واحد مثلى .. إن الكتابة تصبح ممكنة إذا كانت عن هؤلاء الذين يعيشون بيننا .. يتفاعلون معنا .. ونتفاعل معهم .. يكلموننا ونكلمهم .. ياكلون مثلنا ويشربون ويتزوجون ويفشلون وينجون ولكن .. محمد عفيفى .. لم يكن عائشاً بيننا .. فهو ولد ساخراً وعاش ساخراً .. ورحل عنا وصدى ضحكاته الساخرة لاتزال تتردد حتى كتابة هذه السطور .. كان يتفرج علينا ويسخر ثم يتفرج على نفسه ويسخر .. ثم يسخر من سخريته نفسها وعاش هكذا .. عبقرياً لم يأخذ حقه .. ربما لأنه سخر من عبقريته .. وسخر من حقه وظل هكذا على حد تعبيره " فى علاقته بالآخرين يحب على الدوام أن يكونوا آخرين " وهذه الحالة الانعزالية جعلته يجلس على قمة عالية ينظر إلينا منها نظرته الساخرة فيضحكنا ويكشفنا أمام أنفسنا ولم تكن هذه القمة .. برجاً عاجياً " وإنما كانت " أوضة فوق سطوح "

قبل عفيفى كان الأدب الساخر يدور فى إطار محلى " حلمنتيشى " لايخلو من " الأباحة" أحيانا والزجل كثيرا والألفاظ العامية التى كانت تميل غالباً إلى السوقية ولكنه .. فاجأنا جميعاً بأدب ساخر فى منتهى الأناقة ونقلنا نقلة رائعة من قهوة بلدى إلى متحف اللوفر . ومن أم سحلول .. إلى الموناليزا ..

وهذه الأناقة " العفيفية" هى التى جعلت " سويخر" مثلى الآن محترماً فى عيون الناس .. ولقد حدث مرة أننى من فرط هوسى به وافتتانى بأدبه الرفيع أن تجاسرت وحاولت .. أن .. استغفر الله العظيم يارب .. أن أرد عليه .. أن ألعب معه لعبه .. أتلقف عباراته .. القنابل الساخرة " وأرد عليها بصواريخى .. فكانت النتيجة أشبه بما يحدث فى العراق الآن .. طبعاً أنا العراق ..

يقول عفيفى إذا نظرت إلى القمر وتنهدت فأنت عاشق وإذا نظرت إليه وتصعبت فأنت فيلسوف .. وإذا نظرت إليه وتثاءبت .. فأنت أنا !!

هل هناك من رد بعد هذا ؟ ردوا انتوا بأه .. ويقول عفيفى .." لم أستمتع برحلة من الرحلات التى قمت بها لأننى كنت على الدوام .. أصحب معى .. نفسى "

.. العجيب أننى لم أستمتع برحلة من الرحلات إلا إذا كنت أصحب معى .. عفيفى .. أعنى كتبه ومقالاته

البديعة .. لم يترك عفيفى طقساً إنسانياً إلا وتأمله وصوره بكاميرته الخاصة .. فرأينا المشهد من خلاله .. وقد تتحول إلى " مسخرة" عندك مثلاً .. وأنت تحلق ذقنك أو ترتدى ملابسك .. أو تشترى خروف العيد .. أو تتمشى فى الشارع ..

كان عفيفى بحق .. هو ملك الكاميرا الخفية وأعنى هنا : الصادقة " غير المفتعلة .. خذ عندك هذا التقليد اليومى حينما ترتدى ملابسك استعداداً للخروج .. كيف عبر عن عفيفى

"وكنا – حيث نقف مفتونين أمام المرآة – نمد يداً فنضعها فى جيب البنطلون .. لنرى أثر هذه الحركة على الجاكيته ثم نمد يداً أخرى فنضعها فى جيب الجاكيته لترصد أثرها على البنطلون واقفين أمام المرآة بوجهنا ومرة بجنبنا ومرة بظهرنا وفى يدنا مرآة إضافية صغيرة نستعين بها على أخذ فكرة واضحة فى المرآتين عن مشهدنا الخلفى» من أين صور عفيفى هذا المشهد ؟! وكيف التقط هذه الحركات اللاشعورية .. وعموماً لسنا الآن بصدد تحليل أدب عفيفى .. لأن ذلك لابد وأنه يزعجه ازعاجاً كبيراً الآن .. وإنما السؤال الذى يطرح نفسه .. وبالمناسبة أغبى أنواع الأسئلة هى تلك التى تطرح نفسها السؤال .. إذا كان عفيفى كما وصفه نجيب محفوظ " وكانت السخرية هى محور حياته ينبض بها قلبه وفكر بها عقله وتتحرك بها إرادته وهى جلده ولحمه ودمه وأسلوبه عند الجد والهزل .. ولدى السرور والحزن " .. وإذا كانوا يلقبونه موليير مصر – وهو عندى أكثر سخرية وروعة – وأنى لأسمى موليير .. عفيفى فرنسا .. إحقاقاً للحق وإنصافا لموليير .. وإذا كان عفيفى فى ١٣ مؤلفاً كتبها كسر النحس وقدم لنا ١٣ تحفة أدبية لا أعلم ماذا كان شكل الحياة سيصبح بدونها أكيد كانت تباة دمها سم .. إذا كان عفيفى ساخراً بهذا الحجم .. وفيلسوفا بهذا العمق .. وأديباً بهذا المستوى الرفيع .. هنا يظهر السؤال الغبى الذى يطرح نفسه .. أين عفيفى ؟ أين هو من التقدير والجوائز ومايستحق من التكريم .. هل كان " طيباً" زيادة عن اللزوم ؟! هل كان عزوفاً .. لايحب الهيصة والتهليل هل حقد بعضهم على موهبته الفذة .. فتجاهلوه؟!

لقد سعدت سعادة كبيرة حينما علمت أن المجلة الراقية" أدب ونقد " ستصدر عدداً خاصاً عن عفيفى .. ولقد فكرت كثيراً قبل أن أكتب عنه ووجدت أنه ليس المهم أن نقول إن محمد حسين عبد الوهاب عفيفى الذى ولد فى بلبيس يوم ٢٥ فبراير سنة ١٩٢٢ فى آخر الشهر كان أمير الكتابة الساخرة وأنه بلغ قمة لم يصل إليها من بعده أى كاتب ساخر .. والطريق أن عفيفى تزوج فى يوم ٢٥ فبراير ١٩٥٠ برضه .. كأنه كان يسخر من يوم ميلاده ويوم زواجه فى جملة واحدة ولم يسلم الموت نفسه من سخرية عفيفى .. وأنى لأنقل لكم رؤيته الساخرة البديعة للموت .. فهو الذى قال لا أريد أن أموت قبل أن أكمل رسالتى أو على الأقل قبل أن أعرف ماهى .. وإذا مت فأكون شاكراً لو نشرتم فى النعى كافة محاسنى .. لن يكلفكم ذلك أكثر من ثمن سطرين هذا وعد منى بألا أسد الشارع بسرادق لمأتمى أو أركب مكبر صوت يزعجك طول الليل . الموت فى اعتقادى من الأشياء التى يجب أن يستحى المرء من إعلانها .. أرجوكم لاتسرفوا فى الضجيج عند موتى .. زغروده واحدة تكفى .. ويقول:

ثم .. بينما هم ينزلون جثمانى فى القبر يؤسفنى أننى لن أكون فى الحال التى تسمح لى بأن أقول النكتة المناسبة للموقف !!

وبعد – هذه القنابل الساخرة الفريدة .. الفارقة فى العمق .. والصدق .. والدهشة .. هى رؤية عفيفى المبهرة التى لاكلام بعدها وتطالبنى الأستاذة فريدة النقاش أن أكتب عنه كيف ياسيدتى ؟ لقد قال عفيفى كل شئ – وإذا كنت تريدين فعلاً أن يخرج العدد عن محمد عفيفى فى أبهى صورة .. كلفى عفيفى نفسه أن يكتب .. وهو لن يتأخر .. أما أنا فأرجوكى .. أن تعفينى من هذه المهمة الشاقة .. وتقبلى عذرى

ملف



عفيفى ومحفوظ والسخرية

ياسر محمد إبراهيم

يقول أرثر برجر فى تعريفه للأدب الساخر إنه «أحد أشكال المقاومة أو قوة خاصة للمقاومة».

والسخرية كما فى قاموس الأخفش : س. خ (سخر) منه من باب طرب، سخر منه وبه ضحك منه وبه وهزئ منه وبه والسخرية فى تناولنا لأدب محمد عفيفى ، ذلك الكاتب الساخر لاتعنى فى المقام الأخير مجرد الاستهزاء والضحك على الشئ كما فى لغة القواميس والمعاجم بل هى البديل للواقع الردئ الملئ بالفساد .إنها وعى حاد ناقد يقف فى خصومة دائمة للواقع الفاسد ، هذا الواقع الزاخر بالتناقضات.

إن السخرية هى الحكمة الخالصة هى خط الدفاع الأخير سلاحها البسمة الخافتة أو الضحكة المجلجلة التى تجابه بها الواقع بعنفه وقسوته وقهره، هى الفاضحة الهاتكة أسرار هذا الواقع الملئ بالأوهام والإدانة والتناقض.

وقد عرف قاموس وبستر الفكاهة بأنها «تلك الخاصية المتعلقة بحدث أو نشاط أو موقف أو بتعبير خاص عن فكرة ، والتى تستحضر الحس المضحك ، أو الحس الخاص المتعلق بإدراك التناقض فى المعنى ، إنها تتعلق بالملكة العقلية الخاصة بالاكتشاف والتعبير والتنوق للأمور المضحكة أو العناصر المتناقضة اللامعقولة فى الأفكار المواقف.

وقد امتلك عفيفى حساً فكاهياً عاليا تجاه الحياة ومظاهر عدم اكتمالها وتناقضات الوجود . هذا الحس التأملى الذى امتلكه محمد عفيفى باقتدار لايدانيه فيه أحد . وإذا كانت كتاباته تغلب عليها صفة الأدب الساخر فهو شكل من أشكال الفكاهة والحس الفكاهى ، هدفه مهاجمة الوضع الراهن فى أخلاقه

وسياسته وسلوكه وتفكيره.

ويظهر إنتاج محمد عفيفى بسيطاً سهلاً، ذلك لمن يقرأ قراءة عادية ولا يتعاطى جرعات كبيرة من فنه الرائع ولكن القارئ الذى اعتاد قراءة محمد عفيفى يلمح العمق والدقة المتناهية فى قطف واقتناص اللحظة الشاملة التى تحوى بداخلها وفى رحمها الطيعة وتناقضاتها والفكرة التى يريد عفيفى أن تصل لقارئه.

يجذبك وأنت تقرأ فرحاً غامراً عندما تمسك تعبيراً واستعمالا لغوياً كاشفاً للواقع المر الذى نحيا . إنها سخريته الحارقة التى تجعل القارئ فى لذة مختلطة ، يضحك ثم يبكى ويتألم على حاله وحالة محيطه الاجتماعى والسياسى المعيش . سخرية مدفوعة الثمن غير مجانية يدفع القارئ فيها ألمه ودمعة قد تسقط رغما عنه . إن القراءة لكتابة محمد عفيفى تضعك فى لحظة تأملية يصعب أن تجد نفسك فيها مع كتابة أخرى وهذا هو الفارق فيما كتبه عفيفى وما يكتبه آخرون . نرى ذلك بوضوح فى مقطوعاته الفلسفية «فى ظل تمارا » حيث يصبح الوجود فى وحدة واحدة ، النبات ، الحيوان ، الطائر الإنسان جميعهم فى وحدة عضوية واحدة وفى حالة رجوع إلى الجذر الأصلى لهم جميعا.

إن تكوينات وكتابة محمد عفيفى تقترب إلى حد كبير من القصة ، ذلك لارتفاع مستواها الفنى فى البناء وطريقة سرده التى تحمل نظرته للعالم تقدم لنا قاصاً متمكناً من كل أشكال وبنى فن القصة ويتعامل عفيفى مع مادته بدرجة عالية من التكثيف لدرجة الوصول لفن خالص هو فن التكثيف . وقد قال «تشيكوف» «العبقرية نبت الإيجاز» ، وأمامنا الآن بعض من تكثيفه (*) بقدر ما أحب الرجل الذى يكسب عيشه من عرق جبينه ، بقدر ما أكره الرجل الآخر الذى يكسبه بعرق جبينى.

* موظف : أخذت علاوة كام؟.

زميله: ربع كيلو سمك.

*الفرق بين اللص الصغير واللص الكبير أن الأول يركب السيارة فى حين أن الثانى يركب الموجة.

*رأى نظرتى الحادة إلى سيارته الفاخرة جداً فقال لى: إن تلك السيارة مشتراه بعرق الجبين .وبسرعة صعد إليها ورقع الباب خلفه وانطلق بها قبل أن أجد الفرصة لكى أسأل : جبين من؟.

إنها لغة جميلة مكثفة لا زوائد فيها ولا حواشى ، لغة بعيدة عن التقعر والتعالى ، لغة البساطة والتأمل.

عن علاقة محمد عفيفى بنجيب محفوظ ..

يقول محمد عفيفى عن نجيب محفوظ فى مقالة له نشرت بمجلة (أدب ونقد) «وحيث تتوقع منى أن أنتزع منك ابتسامة من نوع ما، وحيث إن الكلام سيدور عن شخص أحبه وأجله هو صديقى الكاتب الكبير نجيب محفوظ فأعتقد أن خير موضوع للحديث هو تلك العلاقة الغريبة القائمة بينه وبين الساعة ، ساعة يده حالياً وساعة جيبه عند بدء معرفتى به فى ذلك العهد البعيد من أواسط الأربعينيات».

المقال طويل نلمس فيه اختيار عفيفى لعلاقة نجيب محفوظ بالساعة ومدى حرصه على الوقت ودقته فى مواعيده فوق المقال الرائع صورة كاريكاتورية بريشة فنان مبدع آخر هو (بهجت عثمان) والذى ينظر لها يدرك مدى الصداقة والحميمية التى كانت تربط بين الرجلين . فهى عشرة عمر طويلة امتدت لقرابة النصف قرن ، لدرجة أنك تلحظ بوضوح تأثر كلاهما بالآخر وشدة التطابق فى الهيئة والبناء الجسمى كأنهما توأم . يتأكد لك ذلك وأنت تمسك نفسك تضحك على تعليق ساخر لشخصية من شخصيات محفوظ الروائية لنرى . فى (المرايا) يقول (عبد الرحمن شعبان)!.

«أنظر إلى هذا المنظر الفريد ، الكارو والجمل والسيارة فى قافلة واحدة وتقولون الاستقلال التام أو الموت الزؤام؟ وأقرأ تعريف عفيفى عن المواطن المصرى . يقول «إنه الوحيد فى العالم الذى يموت بين عجلات الكارو والكاديلاك» ..إنه التناقض الذى يفضح الواقع ويعريه.

نموذج أخر ،يقول عفيفى عن الجوع «إذا مات رجل من شدة الجوع فهذا لا يرجع إلى شئ سوى أن رجلا أخر قد مات فى نفس اللحظة من فرط الشبع!.

* فى بداية ونهاية أثناء زيارة للأسرة يسأل حسن: أخبرونى متى اكلتم اللحم أخر مرة؟ فقال حسنين ساخراً!.

الحق أننا نسينا ، دعنى أتذكر قليلا ستمايل لعينى شريحة لحم فى ظلام الذكريات ولكن لا أدرى أين ولا متى.

*يقول عفيفى عن اللحوم

فى مواجهة أزمة اللحوم أفهم أن المواشى لا تتكاثر بالسرعة أو الوفرة المطلوبة ، فلماذا لا نسند الإشراف على تكاثرها إلى هيئة تنظيم الأسرة لكى نجد أمامنا عجلا كل ٢٧ ثانية.

* فى فضحه للانتهازيين والمنافقين يقول:

مجعوصا على الكنبة الاوبيسون الفاخرة ، وغائصا بحذائه الاسبانى الثمين فى السجاد الصينى النفيس ونافخا دخان الهافان نحو النجفة (الكريستال النادرة ، واصل إملاء المحاضرة على سكرتيرته قائلا: وأنا بصفتى من أول دعاة الاشتراكية:-

* فى المرايا يقول محفوظ على لسان الراوى الذى يسأل الوفدى القديم زهير كامل-كيف انقلبت اشتراكيا بهذه السرعة المجنونة؟

يرد فيقول : الناس على دين أوطانهم.

يقول عفيفى «هل لك أن تخبرنى من أين يحصل الناس على الفلوس بدون أن يكونوا نساء؟».

* فى أفراح القبة لمحفوظ يقول كرم يونس لزوجته : ما زال لديك بقية من استعداد للدعارة فلم لا تستثمرينها فيها فى هذه الأيام الداعرة المجيدة؟

*الفقرات السابقة من كتاب عفيفى «للكبار فقط الصادر عام ١٩٧٥ والذى اتخذ فيه عفيفى شكلاً جديداً للكتابة أقرب إلى قصيدة النثر المتناهية الصغر أو الحكمة التى لاتتعدى سطرين ونلاحظ أن أديبنا الكبير كتب فى أصداء السيرة الذاتية بهذا الشكل نفسه.

وعن محمد عفيفى يقول نجيب محفوظ فى مذاكرته التى كتبها الناقد رجاء النقاش «إن معرفته به جاءت عن طريق المخرج الراحل صلاح أبو سيف وقد اكتشفت فيه شخصية إنسانية رائعة يقول: «لقد دعانى محمد عفيفى للإنضمام لشلة العوامة وكما دعانى لشلة العوامة دعوته لشلة الحرافيش التى سرعان ما اندمج فيها وانتقلت اجتماعات الحرافيش وسهراتهم من المقاهى إلى منزل محمد عفيفى فى الهرم».

وفى النهاية نقول كما قال «توماس كارليل»

«إن جوهر الفكاهة هو الحساسية والدفء والرقة والصحبة الجميلة .. إن جوهر الفكاهة هو الحب».



حلمى التونى

هذا هو آخر ما كتب محمد عفيفى، قبل أن ينتقل إلى العالم الآخر.

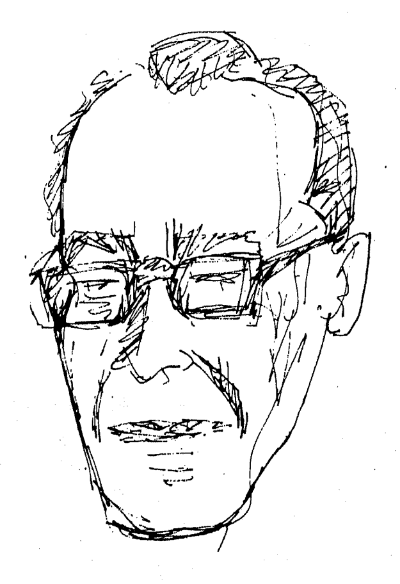
لاشك أن عالم محمد عفيفى الآخر سيكون يمثل بساطة وجمال وصفاء وصدق عالمه الأول، عالمه الأرضى .. بيته وحديقته اللذين عاش بينهما حياته، خاصة آخر أيامها، يتأمل ما حوله بعين فنان وعين شاعر وعين فيلسوف.

إن أجمل ما فى هذا الكتاب هو نكران الذات الفنى - إذا جاز التعبير - فعفيفى يكتب عن العالم من حوله، وهو فى وسطه ومحوره، ولكنك لا تشعر لحظة بوجوده هو، أى الكاتب، إنه يحول نفسه إلى إطار أو نافذة سحرية متحركة، يوجهها نحو تفاصيل وعناصر الحياة العادية فترى من خلالها العادى وقد تحول إلى شئ غير عادى، تحول إلى عمل فنى، كل الأشياء إذا رأيتها من خلال نافذة محمد عفيفى السحرية، كل الأشياء إذا رأيتها من خلال نافذة محمد عفيفى السحرية، كل الأشياء، تكتسى شفافية غريبة تبوح لك وتُظهر بواطنها وأسرارها، أسرارها الجميلة.. أو سر جمالها. كل الأشياء وأبسطها..

بقع الضوء على مقاعد الحديقة، أزهار الياسمين على بساط الغرفة، الوجوه والأشخاص فى زهرات البانسية، القطط، الكلاب ، الحشرات.. العصافير .. الحياة.. المرض.. الموت.. كلها تتحول إلى تماثيل بللورية شفافة، يرفرف حولها فراش أبيض يلمسها بأجنحة رقيقة من أسلوب محمد عفيفى، الذى يتنقل بيسر وسلاسة وراحة تامة، بين العلم، أو التفسير العلمى لظواهر الحياة وبين التأمل الفلسفى الفنى الساخر لتلك الحياة.

هل كانت هذه السطور هى دعاء محمد عفيفى الأخير، هل كانت دعاء وتسبيح فنان يتقرب من ربه عن طريق التأمل الفنى فى بديع خلقه هو .. الفنان الأعظم؟





أنوار «محمد عفيفى» وضحكاته

نعم تستطيع السيارة الخربة أن تظل سائرة ، إذا أنت وضعتها فى أعلى طريق منحدر.

لا يزعجنى أن أرى رجلا دخله أكبر من دخلى .

بقدر مايزعجنى أن أرى رجلاً دخله أكبر من دخله.

**

لن تجد فى آية معارضة لأن تستمتع بحياتك ، ما دام لا يدخل فى باب ذلك أن تستمتع بحياتى.

إذا سددت أنفك كلما شممت رائحة كريهة فمعنى ذلك أنك سوف تقضى حياتك معتمداً فى أعمالك على يد واحدة.

**

منظر فانوس النور المضئ بالنهار يثير فى ذهنى كثيرا من التوقعات المظلمة.

**

الأكداس اليومية للفقراء والمرضى حول أضرحة الأولياء توحى إلى بأن الحب الذى بين هؤلاء وأولئك حب من طرف واحد.

**

قد لا يحول الجوع دون النهوض ، لكنه قطعا وجزما يحول دون النهضة.

**

هل يوجد بين الأطباء أخصائى فى الجبين ؟ فإنى أريد أن أكشف على جبينى لكى أعرف من ناحية أين يذهب عرقه ، ومن ناحية أخرى لماذا لم يعد يندى لأى نوع من القصص أو الأنباء.

فى مواجهة أزمة اللحوم أفهم أن المواشى لا تتكاثر بالسرعة أو الوفرة المطلوبة ،فلماذا لا تسند الإشراف على تكاثرها إلى هيئة تنظيم الأسرة لكى نجد أمامنا عجلاً كل ٢٧ ثانية.

**

سر متاعبنا لا يكمن فى أن الأشياء غير الموجودة بقدر ما يكمن فى أنها موجودة فى مكان آخر.

**

لا زلازل ولا براكين ولا فيضانات ولا انهيارات ولا حر شديد أو برد قاتل ، ذلك هو المناخ الذى انبثق منه المزاج المصرى.

**

بعض المصريين يفهمون فى الطب ، وبعضهم فى الهندسة ، وبعضهم فى الأدب والفلسفة ،

ولكنهم جميعا يفهمون فى السياسة.

تعريف عابر للمواطن المصرى ، إنه المواطن الوحيد فى العالم الذى يمكن أن يموت فى حادث تصادم بين الكاديلاك والكارو.

**

يسألونك عن الفلاح ، قل هو ذلك الذى يشقى لترتاح أنت، ويجوع أحيانا لتشبع ، ويتعرى لتلبس ، ويصحو من النجمة لكى تنام أنت فى الظهيرة ثم تصحو وتشرع- متثائبا -فى البحث عن تعريف للفلاح.

**

وفقا لنوع من المنطق يمكننا القول بأن الفلاح أسعد حظا من ساكن العاصمة . فلست أذكر أننى رأيت عشرين فلاحاً وقد تكدسوا جميعا فوق ظهر حمار واحد.

الصاروخ الموجه ذو الرأس الذرية لا يخرج عن كونه تطويراً عصرياً لسلاح همجى آخر هو السهم المسموم.

الفرق بين الحروب السابقة والحرب القادمة أن الأخيرة قد لا تجد للأسف من يؤرخ لها.

***

أحيانا أميل إلى قراءة الكتابات الخرافية ، بالأمس عكفت ساعة على قراءة ميثاق حقوق الإنسان.

**

الذين يصرون على الفصل بين الشاب والفتاة مخافة أن يكون الشيطان ثالثهما ، ماذا أعدوا يا ترى للشيطان حين يزور كلا منهما على انفراد.

**

طبعا هناك فرق بين الخطيئة والخطأ .الخطيئة هى أن تعاشر بنت الجيران ,والخطأ هو أن تتزوجها.

يؤكد صديق لى أنه لم يعرف طعم الحياة إلا بعد الأربعين- أربعين زوجته.

**

الفرق بين الحب الفاشل والحب الناجح أن الأول يؤلمك شهرا ، فى حين أن الثانى يؤلمك مدى الحياة.

**

رب أنثى تتزوجها طلبا للاستقرار ، وأخرى تطلقها لنفس السبب.

**

نعم يا انستى أنا لا أمانع فى ركوب الصعاب ، ولكن ليس إلى الدرجة التى تجعلنى أتزوجك.

**

ربما كان الشورت الساخن ، أحب إلى عيون الذكر فى الأوقات العادية ، لكننى لا أشك فى أن الميكرو يفضله فى أن الميكرو يفضله فى الأيام العاصفة.

**

تذبذب البنت بين البنطلون المحزق والميكروجيب هو تعبير عن حيرتها بين التلميح والتصريح.

**

الحب اسم وفعل فى وقت واحد. هو عند العاجز اسم وعند القادر فعل.

**

هناك طريقة واحدة تضمن بها أن تحتفظ بحب حبيبتك مدى الحياة ألا تتزوجها!.

**

تسألنى ما هى السن المفضلة للزواج ، أقول لك فيما يتعلق بالزواج والموت لا توجد سن مفضلة.

**

تسألنى من هى الزوجة المثالية ؟ أقول لك هى الجميلة المثقفة الغنية التى تقيم فى بيت أخر!.

**

من الصعب على الرجل أن يضحك من نكتة سمعها ثلاثين مرة ولذلك يبدأ . الفتور بعد شهر العسل.

**

غضبت زوجة صديق لنا منه لمجرد أنه نظر إليها نظرة طويلة، اذ صاح رجل فى الطريق يقول بيكيا!.

**

إذا قبل الرجل زوجته بعد عشرين عاما من الزواج فهذا دليل على ما يمكن للخمر أن تصنع بعقل الإنسان.

**

لا تلم زوجتك على رداءة ذوقها ، أليست هى التى أختارتك ذات يوم؟.

**

ليس صحيحا ما يلخصون به الحياة من أن الإنسان يولد ويتعذب ويموت، فبعض الناس كما تعلم لا يتزوجون.

**

المرأة أسعد حظاً من الرجل ، فمن المستحيل أن تربى طفلا ليست هى أمه.

**

رجل غريب جداً– تقول سوسو لفيفى عن زوجها ، فهو لا يريد أن يكون الرجل الأخير فى حياتها فحسب ، بل يريد أن يكون –هل سيئ– الأول أيضا.

**

حين تنظر إلى وجوه الجالسين على المقهى أثناء مرور أنثى جميلة تدرك أن قراءة الأفكار ليست من الأمور المستحيلة.

**

سيظل الناس يتزوجون إلى الأبد ، ما دام الرجل يتوهم أن حظه سيكون أحسن من حظ الآخرين.

**

لاتحزن إذا فاتك قطار الزواج ، فلأن يفوتك القطار خير من أن يدهسك.

**

كان كابوسا فظيعا رأيت نفسى فيه كما أنا تماماً.

**

بدأ بيكاسو حياته الفنية بما يسمونه بالمرحلة الزرقاء ثم المرحلة الوردية وهكذا .وفى علاقتى بفن الرسم يبدو أننى سأعيش وأموت فى المرحلة البيضاء.

**

تعلمت عبر السنين أن أفهم أشياء كثيرة ليس من بينها نفسى.

**

فى أربعة أدوار المحل التجارى لم يقع بصرى على شئ رخيص إلا وأنا أمر أمام المرآة.

**

الناس تشعر بالحزن عند الغروب أسفا على يوم راح ، ونفس هذا الحزن يساورنى أنا عند الشروق.

**

فى علاقتى بالبحر أحب أن أنظر إليه من بعيد دون أن أغوص فيه .وكذلك الحال فى علاقتى بالناس.

**

يبدو أننى سأعيش وأموت فقيراً ، فمن الصعب على رجل فى الخمسين أن يشرع فى تعلم أصول السرقة.

**

فى علاقتى بالآخرين أحب على الدوام أن يظلوا آخرين .

**

إذا كان التصوف نسبة إلى لبس الصوف ، فأنا أفضل التحرر نسبة إلى لبس الحرير.

**

بينما هم ينزلون جسمانى إلى القبر ، يؤسفنى بأننى لن أكون فى الحال التى تسمح لى بأن أقول النكتة المناسبة للموقف.

طبعاً أهناك فرق هام بين الكاتب الكبير والكاتب الشهير الأول يكتب للتاريخ أما الثانى فيكتب للجغرافيا.

**

بعض الأشياء لم يطرأ عليها تغيير منذ ألفى سنة : الحب والشعر العربى.

**

من الممكن جدا أن يكون عملك الفنى ناجحاً وفاشلاً فى نفس الوقت ، إذا أنت فصلته على ذوق الجماهير تماماً.

**

هناك مؤلفات كثيرة يجب أن تترجم إلى اللغة العربية ومن بينها مجلة المجمع اللغوى.

**

ماهى الدعاية ؟ هى ذلك الشئ الذى يجعلك تتغنى بشكسبير دون أن تكون قد قرأت له أى شئ.

**

لأن تصبح الدعارة فنا كما يحدث فى بعض المسرحيات الأوربية ، خير من أن يصبح الفن دعارة كما يحدث فى بعض مسرحياتنا.

**

لو أنصت بامعان إلى أغانى بعض مطرباتنا لوجدت أنها لا تخرج عن كونها مجموعة من التأوهات المنضمة، مع تنويعات مناسبة على حرف الحاء.

**

فى بعض الأحيان تكون أكبر خدمة يسديها الفنان لفنه هى أن يعتزله.

**

سبب سرعة الطلاق بين الممثلين والممثلات ذلك أنهم وقد تعبوا من التمثيل فى المسارح والاستديوهات لا يطيقون مزيداً من التمثيل فى البيت.

**

لاشك فى أنه فنان كبير ، لا يمكن أن يقل بحال من الأحوال عن سبعين سنة.

**

إذا كنت لاتعرف الفرق بين السذاجة والسخافة ، فيبدو أنه ليس عندك لا راديو ولا تلفزيون.

عندما أرى تكالب الجماهير على الأفلام الرديئة أدرك مدى العبقرية اللغوية الكامنة فى فعل يتكالب.

**

الحمار حيوان سيئ الحظ، فعلى العكس من البقرة والثور والكبش والثعبان والتمساح لم يجد المسكين أية جماعة من الناس تقدسه.

**

قد يكون صوت الحمار قبيحاً ، لكنه هو الآخر محتاج إلى أن يعبر عن نفسه.

**

كرهت زقزقة العصافير بعد أن اكتشفت أن معظمها شتائم متبادلة.

**

لاشك أن الثور أكثر حكمة من الرجل فى علاقاته العاطفية فهل سمعت عن ثور يَنتحر من أجل بقرة.

**

كل الحيوانات تقتل بانفعال ، ولكن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يقتل ببرود.

**

يقولون أن الحوت حيوان زهق من الأرض فهجرها إلى البحر وياما نفسى أعرف عملها إزاى؟.

**

لو عرفت الحيوانات أنها سوف تموت لظهر فيها فلاسفة وحكماء.

**

فى حديقة الحيوان أشعر بأمن أكبر بكثير من ذلك الذى أشعر به فى الشارع فحيوانات الحديقة كما تعلم محبوسة.

**

إذا رآك الناس تغرق فى البحر مدوا لانتشالك الف يد ، أما إذا رأوك تغرق على البر فما من يد واحدة تمتد إليك.

**

إذا صدقنا علم الفلك فيما يقول عن ملايين الشموس الملتهبة فى السماء فالكون لا يخرج عن كونه مجموعة من الحرائق.

**

هناك درجات من الحرية الإنسانية ، لكن الحرية الكاملة لن تتحقق ما دامت هناك جاذبية أرضية.

**

أليس غريبا أن الرجل الوحيد الذى نجح دائما فى أنه يجعلنى أعبر طريقا لا أريد عبوره كان على الدوام رجلا أعمى؟.

**

لابد أن إنسان زمان كان مختلفا عن إنسان الآن ، وإلا فلماذا وصفه أرسطو بأنه حيوان عاقل؟.

**

افتراض وجود كائنات عاقلة على المريخ لا يفترق كثيرا عن افتراض وجود تلك الكائنات على الأرض.

**

لاتكثر من ترديد كلمة أنا، حاول أن تكون منكرا لذاتك مثلي أنا.

**

لو رأى كل إنسان نفسه على حقيقتها لاضطرت الدولة إلى إنشاء هيئة خاصة لمكافحة الانتحار.

**

لو أننى عملت بنصيحة الشاعر وامتنعت عن إجابة السفيه إذا نطق ، فمعنى ذلك أننى سأقضى معظم حياتى ساكتا.

**

من الطريقة التى يتصرف بها بعض حملة الشهادات العليا يبدو بوضوح أنهم ينؤون بحملها جداً.

**

قال القط مشمش للقط سمسم

-مش ربنا خلق العصافير علشان ناكلها؟.

فلما أجابه سمسم بالايجاب قال:

-طيب ليه بقى خلقها بتطير؟.

**

ظريف ذلك الرجل الذى ألقى بزوجته وحماته من النافذة ، وبسؤاله عن السبب فى ذلك قال إنه أراد أن يستوثق من صحة نظرية جاليليو بشأن وصول الأجسام الساقطة إلى الأرض فى وقت واحد.

***

مسطول ١- أن متهيألى أنى زرافة

مسطول ٢- أمال انت إيه ؟

**

يبدو أن النزعة العبثية قد بدأت تتسرب إلى أذهان الأطفال ، إذ سمعت طفلاً يترنم بالأغنية المعروفة قائلاً:

- ذهب الفجر .. طلع الليل .. والعصفور نونو .. شاف الوزه قال لها بسبس ، قالت له هوهو !

***

لايستطيع الانسان أن يقول إنه قد تحضر حقا إلا عندما يكف عن استخدام الأقفال والمفاتيح.

*** يعجبنى اسم ثريا لما فيه من شمول ، فيه الثريا فيه الثراء وفيه الثرى.

***

أو ليس محزنا أن أجمل الأشياء فى حياتنا هى تلك التى لانستطيع أن نحكى للناس عنها ؟

**

لاتنكر ، ما من أحد منا ينجو من ذلك الشعور بخيبة الأمل عندما ينتهى من صفحة الوفيات ولايجد فيها أحداً يعرفه.

***

بعض الناس يحبون أن يتساءلوا هل هناك حياة بعد الموت ؟

وأحب من جانبى أن أضيف هذا السؤال ، ترى هل هناك حياة قبله ؟

***

قد يكون الانتحار عيبا فى عمومه ، لكنه فى بعض الأحيان يكون منَ أسمى أنواع الخدمة العامة.

***

الرجل الذى يقول إن الحياة تبدأ بعد الخمسين ، لابد أنه خارج لتوه من تأبيدة.

***

لا أنصحك بأن تلقى بنفسك من الطابق الثالث عشر ، أفليس من الممكن - وفقا لهذا الرقم المشئوم - أن تصل إلى الأرض سليما؟

***

تعريف آخر للحياة : حلم بالإعدام مؤجل النفاذ.

**

للأب والأم اللذين يوجهان إلى طفلهما ذلك السؤال الخالد " بتحب بابا ولا ماما أكثر ؟ أقول إنهما بهذا السؤال يلقنان الولد أول درس فى الكذب.

***

ربما أجد الرغبة ذات يوم فى أن أتفرج على سباق الخيل ، وذلك بعد أن أكون قد استنفدت متعة الفرجة على سباق الحمير.

***

مأساة الإنسان الكبرى أنه يجب أن يموت فى الوقت الذى يبلغ فيه للمرة الأولى سن النضج.

***

لامانع من أن تتقى شر من أحسنت إليه ، ولكنك فى الوقت نفسه يجب أن تذكر أنك باحسانك إليه لم تشتره.

***

أستطيع أن أجزم بأن غالبية الناس سوف يدخلون الجنة ، فدخول جهنم قد صار أغلى بكثير مما يطيقه الرجل العادى.

***

بحرف الميم تبدأ أسماؤهم ، أهم ستة أشخاص فى حياة كل منا : المولد ، والمربى ، والمدرس ، والمأذون .. ثم المغسل ومأمور ضرائب التركات

من كتاب : للكبار فقط

عن الشمس والقصب !

كتبت كثيرا عن الشمس ، ولا أظننى سأزهق من الكتابة عنها أبدا . شمس الشتاء العظيمة حين تسطع بعد غياب يومين وراء الغيوم ، فيلقى الرجل البردان بنفسه فى أحضانها وهو يوشك

آن بذوب من فرط الشوق . الشمس الساخنة التى تتسلل إلى جوف العروق ، ونسرى فيها حتى يصبح دم الانسان أشبه بفنجان كاكاو دافئ تخالطه لمسة صغيرة غير مسكرة من نبيذ عمر الخيام . ثم تنفذ الى النخاع الذى فى جوف العظام ، وتتغلغل فى أعماق كل خلية من بلايين الخلايا التى يتكون منها الجسم ، فيشعر الانسان كأنه سمكة سعيدة تقلى على نار هادئة فى زيت التموين المدعم .

ومن عادة بعض الناس إذا جلسوا تحت هذه الشمس أن يمصوا القصب ، وذات يوم كنت واحدا منهم عندما كانت أسنانى تسمح بهذا النوع من المقامرة . وبالطبع لولا وجود الشمس ماكان يمكن أن يوجد القصب أصلا لا هو ولا أى نبات آخر على وجه الأرض . وياله من عالم ، ذلك الذى ليس فيه أى نوع من النبات ، لا بسلة فيه ولا بامية ، ولاتين ولازيتون ، ولاباذنجان ولاكوسة وان كنا لانجد مانعا من الاستغناء عن تلك الأخيرة . ولاخيار ولافقوس ولاقتة ، ولابطاطس ولاقلقاس ، ولابطاطة بلدى ياللى تشوى . ولاخس ولاجرجير ولابقدونس يفرش لك تحت كيلو الكباب الذى أصبح ثمنه أربعة جنيهات . ولابصل أخضر أو أبيض ، ولاثوم تعلقه على حائط البلكونة لكى تغيظ به من ليس عندهم ثوم ..

عالم ليس فيه – سترك يارب ! – ملوخية ولاطماطم ، فتحرم إلى الأبد من ذلك المنظر الفاتن ، منظر التناقض اللونى المبهج بين الخضرة العميقة الوقور فى صحن الملوخية ، والحمرة الضاحكة اللعوب فى صحن الدمعة.

عالم ليس فيه والعياذ بالله ليمون بنزهير ، مامن ليمونة واحدة تعصرها على صحن البامية الذى هو باللحمة ، أو صحن الفول الذى هو بالزيت ، أو تصنع منها كوب لموناته تشربه هنيئا مريئا وتقول الحمد لله ، تتزود منه بفيتامين سى الذى يقيك شر الزكام فى هذا الوقت الذى أصبح المنديل فيه بالشئ الفلانى – أو تعصرها – الليمونة – فى فمك بدون ماء أو سكر لكى تصلح بها ما فسد من معدتك بعد مشاهدتك أحد مسلسلات التليفزيون.

عالم ليس فيه – رحمتك يارب – بطيخة حمراء اللون فاقعة ، تتناول الشقة العظيمة منها باليدين وتنهشها حتى يسيل عصيرها على عنقك ويتسرب إلى صدرك من خلال جاكتة بيجامتك البوبلين . ثم تجمع بذورها السوداء – اللب ولامؤاخذة – وتضعها فى الشمس حتى تجف . ثم تملحها وتضعها على النار حتى تستوى وتصبح لبا صالحا للقزقزة . واللب تجمعه وتودعه فى قرطاس كبير من ورق إحدى المجلات الأدبية ، وتتوجه به إلى حيث تشاهد – على صوت القزقزة المطرب – مسرحية هادفة فى المسرح القومى.

عالم ليس فيه – وهذه داهية الدواهى – قمح ولاذرة ، أى ليس فيه خبز ولا دقيق . مامن رغيف زسود اللون بقرش تعريفة تسد به

صورة سيدة نظيفة

كرجل عادى اعترف باننى أحب منظر الأنثى وهى تمارس أوجه نشاطها ، حتى ولو كان ذلك النشاط مجرد انحنائها لكى تلتقط شيئا ساقطا على الأرض . لكن هناك منظرا خاصا يستهوينى بشدة ولسبب لا أفهمه ، وذلك منظر الأنثى وهى تنشر الغسيل هناك فى بلكونتها.

ربما كان ذلك بسبب مايثيره المنظر فى نفسى من إحساس عام بالنظافة ، مضافا الى شعورى بقداسة العمل اليدوى الذى تقوم به تلك الانثى ،هى بدلا من أن تضيع الوقت فى الرغى التليفونى الفارغ دخلت إلى الحمام لرغى الصابون ، بيديها الرقيقتين دعكت الغسيل ومرطته وأضافت إليه الزهرة ثم شطفته وعصرته وخرجت به إلى البلكونة – بورك فى يديها – لتنشره أمامى . وقد كان فى امكانها أن تكل هذه المهمة إلى خادمة ولكنها لم تفعل ، أى أنها ليست نظيفة فحسب ، وإنما تكره استغلال الآخرين أيضا.

ولعله مما يحبب إلى منظر الأنثى ناشرة الغسيل .. ان شعرها يكون فى معظم الأحيان منكوشا متهدلا ، وأنت تعرف ضعفى نحو ذلك الشعر المنكوش. وفى بعض الأحيان يكون ملفوفا بايشارب ، وأنا أحب الشعر الملفوف فى الإيشارب . فى كافة الحالات أحب شعر الأنثى ماعدا حالة واحدة ربما تستغربها ، تلك الحالة الصناعية المزعجة لحظة خروجها من محل الكوافير .

هى تنحنى فى بلكونتها على صنية أو قروانة الغسيل وقد تهدل شعرها ، تلتقط قطعة منه ثم تعتدل لتضرب بها الهواء قبل أن تنشرها على الحبل . نحو الحبل تمد ذراعين عاريتين ناعمتين تثبت قطعة الغسيل عليه ، إذ أن معظم الاناث يفضلن – لسبب لا أفهمه – نشر الغسيل وهن فى قميص نوم بمبة وذى حمالات . يخيل الى وهى تثبت القطعة على الحبل انها تعزف على البيانو لا تنشر الغسيل ، بورك من جديد فى يديها العاملتين . وحمالة القميص تنزلق عن كتفيها وتتدلى على ذراعها ، تعجز بالطبع عن اصلاحها بسبب انشغال اليدين جميعا فى ذلك العمل المقدس ، وبسبب علمها أنها قد تمسك قطعة الغسيل بيد واحدة لكى تعدل الحمالة فتغامر بسقوط تلك القطعة الى الشارع معرضة اياها للبهدلة أو للضياع . كتف عارية لمدة دقيقة لن تضر أحدا ، وهاهى ذى تنتهى من تثبيت المشبك فى الحبل فسرعان ما ترفع يدا رقيقة ترد الحمالة الى وضعها الأصلى.

ومرة أخرى تنحنى وتختفى وراء الملاءة التى نشرتها ، ثم تظهر بقطعة جديدة من الغسيل وقد قبضت بين أسنانها على مشبك من الخشب أو من البلاستيك ، ذلك المنظر الذى لا أدرى كيف تستقبله أنت والذى بالاختصار يفتننى أنا ، وبصعوبة بالغة امنع نفسى من أن أقفز وأصفق وأقول ياسلام سلم.

عشرات من المرات تنحنى وتبرز بعشرات من قطع الغسيل ذات المائة لون ، مفتونا أرقبها



كأننى ولد صغير فى يوم المولد ، وكأن ذلك الغسيل تلك الاعلام المحببة التى يسحبها الحاوى من فمه مشبوكة فى ذلك الخيط الطويل.

أنا لا أرى الا نصفها العلوى لكننى اتخيل رقصة العضلات المتوترة فى ساقيها وهى تشب على أطراف أصابعها لكى تصل بتلك الفانلة إلى الحبل البعيد . وبالنسبة لقدميها فاعتقد أنها اما حافية واما تلبس شبشبا خاصا بالحمام الذى سوف تهرع إليه عقب انتهائها من نشر الغسيل ، تلك الفكرة التى تضاعف فى نفسى ذلك الإحساس المنعش بالنظافة العامة.

وبامتلاء كافة الحبال بالغسيل تقف الأنثى لتلقى عليه نظرة استعراض أخيرة ،وفى تلك النظرة لمسة زهو مبررة لما أدت من عمل يدوى مقدس ، ذلك الزهو الذى لا تنتبه فى غمرته إلى أن حمالة القميص متدلية منذ دقيقتين.

ثم ذلك الإحساس المرير بأن الحفل قد انتهى ، عندما تنحنى الانثى لتلتقط الصينية أو القروانة وتخرج بها من البلكونة ، وفى أغلب الأحيان –واأسفاه –تغلق الشيش، ستار الختام الذى كان مقدرا له أن يهبط على تلك المسرحية القصيرة الممتعة ،وعالما أنه لا مفر لها– كسيدة نظيفة– من أن تذهب إلى الحمام لتأخذ دشاً ، أرهف سمعى لكى أسمع صوت الماء المنسكب ، ولكننى لا أنجح طبعا فأكتفى بالخيال مدى لحظة أحافظ فيها على ذلك الإحساس المنعش بالنظافة العامة، توطئة لأن اتنهد فى استسلام فلسفى صامت وأنا أردد فى نفسى قول الفرنسيين فى مثل تلك الأحوال : سى لافى!.

* إبتسم من فضلك /أخبار اليوم.



أنــوار

هذه ليست قصة حياة صديقتي أنوار، ولا هي قصة زواجها ولكنها تسجيل أمين لنواح صغيرة من حياتها وزواجها ، استطعت أن أحيط بها في اللقاءات القليلة التي أتيحت لنا خلال العشر سنوات الماضية . إذ أن الفترة الوحيدة التي قضيتها في صلة دائمة بأنوار كانت قبل ، أيام الدراسة، وفي ذلك العهد لم تكن حياة أنوار الجدية قد بدأت بعد. وقد افترقنا بعد المدرسة وباعدت بيننا ظروف الحياة وإن لم تفقد صداقتنا ، فاقتصرت صلتنا على لقاءات متباعدة ، ورسائل جعلتها نادرة كثرة مشاغلي ، وطبيعة أنوار الخاصة التي تنفرها من إكثار الكلام حتى في الرسائل.

ولقد لقيت " أنوار" آخر مرة منذ أيام قلائل ، إذ ذهبت لزيارتها عقب عودتي من بغداد إلى القاهرة ، مدفوعة بالشوق إليها حقا ، ولكن بالفضول أيضا ، والرغبة في معرفة ماذا آل إليه امرها . ولست أدري متى سألقاها ثانياً ، لأنني سأغادر القاهرة إلى دمياط بعد أيام ،وهي لم تبد أنها سوف ترد زيارتي قريبا .وقد خرجت من عندها في حالة من الرثاء الشديد لها، والسخط على ما يمكن أن يلحق الإنسان من قسوة الأيام ، ولما كنت لا أظن أن أي لقاء آخر بيننا سيضيف جديداً إلى ما أريد أن أقول، فسوف أجعل هذه الزيارة خاتمة للقصة التي أنا بسبيل روايتها.

(١)

أنوار التي عرفتها في المدرسة الابتدائية ، بنت في العاشرة من عمرها ، هزيلة تتحرك على

ساقين كجذوع الزهر ، ذات وجه صغير دقيق القسمات وجبين عريض ناصع البياض . وأنف مستقيم مدبب إلا أنه محمر في أغلب الأحيان. أما عيناها فعسليتان قصيرتا الاهداب . تنظران إلى الدنيا في هيبة كعيون الجراء . وأسهل شئ على الإنسان أن يجعلهما ترمشان بشدة وسرعة، وأن يرسل إلى شفتيها الحساستين تلك الابتسامة الحيية الوديعة التي تصدر تعليقا على كل قول .وقد كنت أنا أكبر منها بعامين ، ولكنني أقوى منها بأعوام . فكنت أحبها وأجد لذة في تبنيها والمدافعة عنها ضد شقيات التلميذات. وكانت أحب الحصص إليها حصة فلاحة البساتين ، إذ ينتقل الفصل في الأصبحة المصحية إلى الحديقة الصغيرة خلف بناء المدرسة . فتروح أنوار تتلفت حولها إلى الورود الحمراء يعلوها الندى ، والفل العاجي الشاحب، والسنانير ذات الألوان الزاهية البراقة، والجهنمية الكثيفة التي ترصعها زهورها البنفسجية وتتدلى فوقها قضبان اللبلاب الخشبية المغبرة- تنظر أنوار إلى كل ذلك في فرح صبياني شاذ، فيحمر وجهها كورود الحديقة ، وتستنشق الهواء المشبع بأرج الفل والياسمين ملء صدرها الهزيل ، وتبدو كأنها نقلت إلى مكان مسحور.

وقد عهدت أن ألحظ عليها هذا الولع الشديد بالطبيعة ، فكنت أبتسم نحوها رغما مني في سرور ، وهي لا تلحظ ذلك في غمرة حماستها المرتعشة . وكنت أوزع وقتي في الفسح بين كبيرات التلميذات وبين أنوار ، التي تنزوي بغيري في ركن بعيد تحت شجرة وتشرد بعينيها العسليتين الخائفتين في كتاب .وكنا إذا جلسنا سويا نروح نتكلم في موضوعات صبيانية تستصغرها سائر البنات في سننا ، ولكنها تروق لأنوار ، ولعله مما يصح ذكره أن أنوار كانت بعيدة كل البعد عن طباع الأنوثة العابثة، التي كانت تدفع صغار التلميذات مثلا- وأنا منهن- إلى تزيين صدورهن حديثة التكوين بالشارات والتماثيل الدقيقة ،لاستدراج أنظار الفتيان الذين يتلكئون عند باب المدرسة ساعة خروجنا ، أو يتصدون لنا في الطريق . فهذه أشياء لم تكن تميل إليها أنوار -بل لم تكن تنتبه إليها-وكأن روحها لا تزال معلقة حول جسدها ، لم تختلط به بعد وتتكسر لمطالبه .حتى عندما نبت لها نهدان صغيران ، لم يبد عليها شئ من الفرح والزهو، ولم تحاول أن تشد حزامها الأحمر أعلا ليضيق الثوب ويرتفع النهدان ، بل كانت لا تكاد تحس بهذا الذي جد عليها أو تقيم له وزنا .

وقد كان هذان النهدان سبباً في فرقتنا بعد أن قطعنا شوطاً لا بأس به في المدرسة الثانوية ، إذ لم تكد تقرب نهاية السنة الثالثة حتى انقطعت أنوار عن المدرسة فجأة بدون انذار سابق . ولم نكن نقيم في حي واحد ، فلم أعلم من أمرها شيئا إلا بعد أيام، إذ كنت أخرج من باب المدرسة عصراً مع التلميذات كالعادة، فقابلتني بين المنتظرين عينان مضطربتان تبحثان عني في لهفة بين الخارجات .فما كدت أنفرد بأنوار حتى شرحت لي بسرعة وهي تلهث ،كيف أنها قد أتت خصيصا

لتقابلنى ،ولتخبرنى بأنها لن تأتى إلى المدرسة ثانياً أبداً- بل لن ترانى ثانيا أبداً- لأن أباها قد قرر وقف تعليمها ، لسبب ذكرته لى والدم يكاد يثب من وجهها أنها قد كبرت ونبت ثدياها.

وقد صحت نبوءة أنوار. فافترقنا بعد ذلك سنوات طويلة كادت تنقطع فيها صلتنا . باستثناء رسالتين تبادلناهما ، وثالثة بعثت بها إليها فلم أتلق عليها رداً. وكل ذلك لأن عقل أبيها لا يهضم خروج ابنته التى أشرفت على النضج من المنزل ، واحتكاكها بالحياة . ولذلك لم تبدأ القصة إلا بعد سنوات عديدة من الفراق ،حين التقينا مصادفة وكل منا امرأة ناضجة.

كان ذلك سنة ١٩٣٦ ،فى ذات صباح وضاء من شهر سبتمبر ، وأنا حديثة العهد بمهنة التدريس التى اتخذتها لنفسى بعد أن تخرجت فى كلية الآداب ،وكنت أسير فى شارع قصر النيل أمام البنك الأهلى ، إذ طالعنى وسط الزحام وجه لا تصعب على معرفته رغم أثر السنين عليه، وجه لا يزال نحيفا دقيقاً ، وأنف لا يزال مدببا حساساً- وإن لم يعد محمراً -وجبين عريض أبيض ،وعينان عسليتان قد طالت رموشهما إلا أنهما لا تزالان تتقلبان هنا وهناك فى استطلاع صبيانى حائر . وقد كانت مفاجأة لى أن أرى هذا الوجه فجأة على جسم امرأة ناضجة ، ولكننى ذكرت أن لأنوار هى الأخرى حقا فى أن تكبر وتنضج ، فسرعان ما كنت انقض عليها لأعانقها واقبلها ،وهى ترتد فى ذعر -حتى بعد أن عرفتنى- مستنكرة لهذا الاسراف فى اعلان العواطف .لذلك لم أظفر منها بأكثر من ضمة سريعة ، وقبلة على خدها الذى كان أحمر متقداً من نسمات الخريف الباردة وحماسة اللقاء وكانت لاتبرح تختلس النظر إلى سيدة كبيرة غارقة فى السواد واقفة بالقرب منا تبتسم فى سرور ، وهى محملة بنصف اللفائف والربطات التى تحمل أنوار نصفها الآخر .وقد علمت لساعتى أن هذه أم أنوار ، وأننى لو تركت البنت لخجلها وارتباكها لواصلت السير مع أمها ، وافترقنا أعواما أخرى . لذلك توجهت إلى المرأة فوراً وحدثتها بأمرنا، راجية اياها أن تتخلى عن ابنتها ساعة نقضيها وحدنا . للحال ما وافقت السيدة الطيبة بسهولة لم أتوقعها (لأن ابا أنوار كان قد مات منذ سنتين كما علمت فيما بعد) ، ثم انصرفت عنا حاملة كافة اللفائف.

أخذت بذراع أنوار وتحركنا ناحية ميدان سليمان باشا ، وهى تخترق الزحام بمشيتها الهادئة المتسللة ، رافعة رأسها الصغير إلى أعلى وقد انتصب ظهرها ، لا تنظر يميناً أو شمالاً ، ووجهها لا يزال محمراً من تأثرها باللقاء المفاجئ . ،وكانت تلبس تايوراً أبيض واسع الأكمام يكشف عن فستان خفيف الزرقة ، وساقاها مختفيتان فى جورب ثقيل ، وشعرها الكستنائى القاتم لا يغطيه شئ، وهو بين الخشونة والنعومة قد وضع على رأسها فى غير عناية ، تمسكه فرتيكة سوداء فى كل جانب .فأنوار الكبيرة إذن هى أنوار الصغيرة ، التى-مكتفية بالقدر الذى عندها من الأنوثة-لا تريد أن تفرض تلك الأنوثة على الناس فرضا ،والتى تجد شجاعة على أن تجتاز شارع قصر النيل

فى الأصبحة الزاعية وليس بها اى أثر للروج أو حتى البودرة. وأنا أيضا لا أسرف في التزين ، وإن كنت أطلى شفتى أحيانا بروج خفيف ، ولا أكره قليلا من البودرة . لأننى أقترب من أنوار إلى السمرة. على أننى لم أكن أستصغر أنوار لأنها لا تتزين . ولا كانت هى تحتقرنى لأننى أفعل.

وفى ميدان سليمان باشا وقفنا نتساءل أين نذهب ، فاقترحت أنا الهرم ، لمعرفتى أن هذا يسر أنوار ، ولأننى أريد أن أنفرد بها بعيدا عن الزحام الذى يزعجها ويربكها .فلم نلبث أن كنا فى تاكسى يتراقص بنا على ذلك الشريط الأسود النافذ إلى اخر البصر ، بأعمدته وسلوكه اللامعة وأشجار الكافور على حافتيه ، وتلك الحقول الخضراء المتموجة التى تمتد إلى الافق فى كل جانب . وسرعان ما بلغنا ميناهاوس ، وصعدت السيارة بنا ذلك الطريق الذى تتراءى منه قمة الهرم الأكبر ، ولا تزال تكبر شيئا فشيئا حتى تطلع عليك كتلته الهائلة الداكنة ، راسخة على الأرض الصخرية وقد نفذت ضلوعها الشائكة القاسية فى زرقه السماء ،وفى صدرها ذلك الحجر المظلم الذى يخرج الناس منه ويدخلون كأنهم النمل فى الأعشاش . لم تطل أنوار النظر إلى الهرم ، إذ لم تكن تحب الفراعنة بما سمعت من سحرهم ولعناتهم، فاولته ظهرها ووقفنا على حافة ذلك المنحدر الصخرى الذى تقع عند أقدامه سهول الجولف الخضراء، وقد أحاطت أشجار الجزورينا الهائلة التى تبدو من هذا الارتفاع كأنها لعب رشقتها فى الرمال الصفراء يدا عملاق . وعلى هذا السفح تهب رياح قوية لها فى الأذن حفيف كأنه صوت ألف طاحون ، وهى باردة قوية تحمل كل الرطوبة المنعشة التى تلمع فى الفضاء الأزرق الشفاف . ووراء المبانى القليلة القريبة ، كانت تنبسط أمامنا خضرة مترامية لانهاية لها ، تمتزج عند الأفق بزرقة السماء فتبدو للعين كأنها ضباب أزرق لين .وفى نقط متباعدة من المنظر ، تتكاثف أشجار الجزورينا وتكون غابات مسودة الخضرة وسط حقول القطن والبرسيم الزاهية.

نظرت أنوار إلى كل ذلك ثم قالت« الله!» ممدودة عميقة صادرة من قلبها ، ووقفت مذهولة تمد وجهها وتفتح صدرها للريح ، تريد أنّ تفنى فى المنظر فناء، ثم التفتت إلى تقول فى غير مرارة:

-اهو الواحد لو كان يسكن فى حتة زى دى ماكانش عمره يزهق أبداً ..مش زى العباسية اللى تقرف. الواحد يبص حواليه مايشوفش إلا بيوت فى بيوت ..مافيش إلا بيوت فى بيوت .. مافيش جنس حاجة خضرة الواحد يبص لها .. حتى كان فيه ورا بيتنا نخلة ناشفه وتقرف ، قطعوها من جمعه!.

وسكتت إذا لحظت إنها اسرفت فى الكلام ، وهمت بأن تغوص ثانيا من نوبتها التأملية ، ولكننى جذبتها من ذراعها سريعا وقدتها نحو الهرم ، إذ أننى كنت أعرف أين نذهب : هناك وراء الأهرام الثلاثة وأبى الهول ، إلى ذلك التل الرملى المرتفع الذى ترسم الرياح عليه خطوطا جميلة

ناعمة ، وتبدو فيه ثقوب صغيرة من أثر أقدام مجهولة صعدت إلى قمته مريضة ثم اختفت . وكنت كثيرا ما أذهب إلى هذا التل حينما أحن إلى الوحدة والهدوء وإحساس المغامرة.

درنا حول الهرم الأكبر ، واخترقنا الحفائر وقبور القرية القريبة، ورحنا نقفز على الصخر نحو ذلك التل حتى بلغناه ، فحضنا بأقدامنا وأيدينا فى رماله الناعمة الدافئة ، وانتهينا إلى آخره الذى تنبسط وراءه أرض مرتفعة تصير صخرية بعد قليل ، مؤدية إلى فسحة الصحراء . وهناك وقفت أنوار تتنعم من جديد باستقبال الرياح الباردة المنعشة ، ثم هتفت :

--لو كان الواحد يعرف يطير!

وأشارت بذراعها إلى سهول الرمال الصفراء المنبسطة كأنها ملاعب الجن، وفيها اطلال الحفائر ، ورأس أبى الهول ، والأهرام الثلاثة العمالقة تغلى فى صبر قديم تحت حرارة الشمس، نافذة بقممها المتآكلة فى زرقة السماء.

قدت أنوار إلى سفح ظليل هناك، وجلسنا على الرمال الناعمة وشرعنا نتحدث ، فعلمت منها أنها لم تدخل أية مدرسة أخرى بعد افتراقنا ، وأنها رغم ذلك- ورغم سخرية أبويها- كانت تكثر من القراءة والإطلاع . ثم إننى سألتها مداعبة عن السبب الذى منعها من الزواج حتى الآن ، فأحمر وجهها وابتسمت ، ولم نفه بالكلمات التى تراوحت على شفتيها . فهمت بأن أسألها أن كان لها أقارب يصلحون للزواج ، ولكنها قاطعتنى قائلة بصوت منخفض كمن يذيع سرا:

-ما خلاص !.

-خلاص إيه!

فازداد أحمرار وجهها وقالت ضاحكة:

-بعد جمعتين اتنين حاتجوز.

-جمعتين ! بالذمة صحيح ؟ امال مش لابسه خاتم الخطوبة ليه؟.

-لازم يعنى كل الناس تعرف أنى مخطوبة؟.

-أما أنتى ! ده فيه بنات بتتجوز مخصوص عشان الناس تعرف وصنعة خطيبك ايه؟.

-موظف ابصر فين.

-كبير ولا صغير؟ حلو وحش؟.

-إلا كده !

-إلا كده ايه؟.

-هو أنا شفته!.

-شفتيه ! امال حاتتجوزيه ازاى؟.

فابتسمت أنوار وقالت وهى تتخل الرمل بين أصابعها فى خيوط رفيعة

-اهو جه كلم خالى وخلاص.

-طب مش خالك خد رأيك؟.

-ايوه.

-ووافقتى من غير ماتشوفيه؟.

فلم تجب أنوار ، ولكنها ضحكت فجاة ضحكة طويلة منخفضة متهافتة ، والقت برأسها إلى الوراء .وقد ذكرتنى هذه الضحكة بانوار التى عرفتها فى المدرسة ، ففاضت محبتى لها ، ولكننى وجدت فى تلك الضحكة من الاستسلام والسحرية ما لم يسرنى ، فعدت أقول:

-طب ما شفتيش صورته؟.

-شفتها .

-هه؟.

-اهو راجل زى بقيمه الرجالة!.

ولوحت بيدها فى استخفاف . وكنت أنا فى ذلك الوقت حديثة العهد بالحرية والاستقلال ،فخورة بعصريتى ، فرحت الومها على قبول الزواج من رجل لم تره ، وآشرح لها أرائى فى مساواة المرأة والرجل ووجوب استكمالها كافة حقوقها المسلوبة. غير أننى خففت من غلوانى ورأيت أن أستوثق أولا هل لا يزال زواجها مشروعا يمكن تداركه ، أم قد صار امراً قد انتهى ، فهنأتها ورجوت لها السعادة .وكأنما أحست هى بما يساورنى فى شأن زوجها المقبل ، فراحت تذكر لى من طريق غير مباشر شيئا من محاسنه ،كيف انه فى وظيفة أنه لم يتدخل فى عملية اختيار الجهاز كما يفعل بعض ثقلاء الأزواج ، وأنه رضى بأن يسكنا فى العباسية لتكون انوار قريبة من امها رغم أن فى هذا مشقة عليه لبعد العباسية عن مقر عمله ، وهكذا ..وكانت تتكلم فى تحفظ كعهدها ، ووجهها محمر ، وصوتها متموج يتكسر أحيانا من جهد الرواية حتى أنهت ما عندها فسكتت ويدها تتقبض على الرمال فى عصبية ، وتاهت أعيننا فى الابعاد الصفراء حيث تنفجر صخور الأطلال بعيدا عن ثغرات سود كأنها عيون الدهور الغابرة.

لقد كنت أحب أنوار حبا شديدا ، وأخاف أن تقع بين يدى حيوان غبى يذوى روحها الشفافة بغلظته ، ويخنق حماستها الصبيانية الساذجة . لذلك لم أتمالك رغم ما سمعت من أن أقبض فجاة على معصمها الملقى على حجرها وأقول فى صوت خطير.

-اسمعى يا أنوار .. إوعى تتجوزى واحد مش عاجبك .. افتكرى أنك مش حاتقعدى معاه يوم ولا اتنين .. دى عشرة العمر كله .

فضحكت أنوار من انفها ضحكة صغيرة كأنها زفرة . ثم هزت كتفها قائلة، يا شيخة ! ولم تزد . ولكنني علمت أن المخاوف التي تساورني في أمرها قد ساورتها هي الأخرى . إذ رأيت الضحك يغيض من وجهها رويدا ، ولا يبقى منه أثر إلا في ابتسامة صغيرة ترتعش بها شفتاها الحساستان في هيئة لاتخلو من الألم.

قلت لها:

-اهلك مبسوطين منه طبعا؟.

فأجابني بابتسامة من فوق كتفها ووجدت لزاما على أن أكبح جماح ثورة كبيرة تضطرم في نفسي وتريد أن تنصب على نظام بأسره . وكأنما لحظت أنوار ما بنفسي ،فاذا بها تهتز فجأة وتضحك ضحكتها الطويلة المتهافتة حتى يبدو لحم أسنانها ، ثم تقول ورأسها مائل إلى الوراء :

-انتى باينك فاكراه مفيش اوحش منه أبداً!.

فسرتني هذه الضحكة المرحة ، ورأيت الفرصة قد سنحت لاستدراك ما أسأت به إلى هذه الفتاة التي لا حق لي في تثبيطها . قلت:

-ايوه قولي كده .. أنتى عجبتك صورته يالتيمة وعشان كده رضيتي به..

وحدثت نفسي بأنني مخطئة في تطبيق آرائي على أنوار ، وانها لن تجد صعوبة في الملاءمة بين نفسها الوديعة وبين جوها الجديد ، بل ولن تجد ضيرا في التخلي إذا دعا الأمر عن أحلام صبيانية لم يتح لها أن تتحقق .وهكذا دخل الحديث في نوبة مرحة ،فسألتها هل سيقيمون فرحا أم لا ،فأجابت بالنفي وبأنها هي ذاتها تكره الأفراح .فلما صورت لها مباهج الزفة وكيف أنها ستجلس في كوشة جميلة والشموع حولها والورد ينثر عند أقدامها ،وكيف ستحيط بها النظرات الحاسدة إذ تسير متأبطة ذراع زوجها على دقات الطبل ورنين الزغاريد ،نحو غرفة الزوجية-لم تجب على كل هذا الا بقولها «اخص»! ،وهي تنظر إلى بعينيها العسليتين من فوق كتفها نظرة استنكار غير مصطنع.

ولم يطل جلوسنا بعد ذلك، إذا ارتفع قرص الشمس ملتهبا قاسيا وكشف السفح الذي كنا نجلس في ظله ، فقمنا لنعود . وبينما نزلت أنا أغوص في رمال التل اللينة الساخنة، تخلفت أنوار لتتملى بنظرات أخيرة من المنظر . ومن مكاني في أسفل السفح رأيتها بجسمها الصغير منطبعة على زرقة السماء ، والرياح تنفخ التايور الأبيض وتلصق الثوب ببدنها وتطير شعرها ، وتوشك أن تطيرها كلها . فبينما أنا أنظر إليها هكذا أردت أن أضحك . لأن أنوار- كما خيل إلي في تلك اللحظة -لم تخلق لكي تتزوج . أنها مخلوق رائع يستطيع أن يجد متعته على قمم التلال حيث الواقف هناك -كما أخبرتني بنفسها مرة -في مواجهة الريح يستطيع أن يدعها تمر عليه دون أن

يسمع صوتها . وذلك بان يقابلها بجانبه وباذن واحده .في حين ان من يقابلها يجمع وجهه وباذنيه تمر عليه بصوت كقصف الرعد ولكنها لم تخلق لكي تتزوج . وأن الرجل الذي يستطيع أن يغفر لها دقة جسمها الأبيض الرخو . ونظرتها المتسائلة الهيابة التي ستؤمن بكل ما يقول في سبيل روحها الشفافة . لم يخلق بعد.

وأخيراً تحركت أنوار لتهبط من عليائها . ناقلة خطوات بطيئة على الرمال اللينة التي تشفط الأقدام، ولكنها لم تستطع المحافظة على بطنها واضطرت لأن تنطلق في جرى متعثر وهي تلوح بذراعيها في الهواء ، غير حافلة بما يصيب حذاءها وثيابها من التلف ، وهي تنظر فوق كتفها نحوي لترى آثر عملها علي ، وكنت آنا آضحك وأصفق لها.

وفي ذلك اليوم افترقنا على آن آزورها مرة قبل أن أسافر إلى الاسكندرية حيث كنت أعمل ، وكان مقرراً أن أسافر بعد ثلاثة آسابيع.

في أواخر سبتمبر ، حين لم يبق إلا يومان على سفري ، ذهبت لأودع أنوار وكانت قد آعطتني عنوان بيت أمها في العباسية .فما كدت أطرق الباب حتى فتحت لي امرأة كبيرة عرفت فيها آم أنوار ، التي قابلتني في الطريق معها ، وكانت تلبس ثوبا أسود طويلا وحول كتفيها شال صغير ، فلما عرفتها بغايتي قالت:

–دي راحت بيت جوزها من جمعة يا حبيبتي .عقبال عند حضرتك ! ودعتني لأن آدخل واستريح ، وألحت في ذلك ، ولكنني شكرتها وأخذت منها عنوان آنوار ، وكان في شارع قريب.

لم أسأل عن موقع شقة أنوار من العمارة رقم٤ في ذلك الشارع ، إذا لم أر في بلكونات المنزل كله قصاري زرع إلا في الطابق الأول ، فقصدت إليه من فوري.

فتحت لي الباب خادمة صغيرة ، سألتها عن سيدتها فقالت أنها موجودة ، وأرادت أن تعلم من أنا حتى تخبرها ، ولكنني كنت أعرف أن زوجها لا يمكن أن يكون موجوداً في ذلك الوقت ، فأنحيت الخادمة عن الطريق ودخلت من فوري أجتاز الصالة ، حتى وجدت عن يساري غرفة منيرة ، ورأيت رأس أنوار يميل ليستطلع الخبر ، فدخلت عليها .كانت تجلس على شيزلونج منخفض بني اللون وهي تلبس قميص نوم ورديا فضفاضا ، وقد برز ذراعاها ابيضين نحيفين ، وانتفش شعرها حول وجه شاحب .فلم تكد تراني حتى بدت في عينيها نظرة فزع من المفاجأة ، وأحمر وجهها إلى جذور شعرها ..ولكنها سرعان ما بسطت ساقها المثنية تحتها وأقبلت نحوي تتعثر لتصافحني ، فتجاهلت يدها وأطبقت عليها أوعانقها وأقبلها صائحة:

–صباح الخير عليكي يا أنوار ، ألف مبروك يا حبيبتي!.

فأوقعها هذه الحماسة في ارتباك حتى لم تدر ماذا تصنع بي ، ثم دعتني للذهاب إلى غرفة

الجلوس فرفضت ، وجلست بجانبها على الشيزلونج ، انقل بصرى بينها وبين اثاث غرفتها .وكان وراء الشيزلونج سرير عريض منخفض من الخشب . وفى ناحية من الغرفة دولاب كبير بمرآة . وفى ركن آخر تسريحة صغيرة يلمع على مرآتها الآن شعاع رفيع من الشمس . لم يكن جهاز أنوار شديد البذخ ، ولكننى أحببت الغرفة الوديعة كلها كما أحببت صاحبتها.

غير أننى خففت من حماستى عندما نظرت إلى أنوار فوجدتها شاحبة هزيلة،، تحيط بعينيها العسليتين هالتان زرقاوان ، وقد غار خداها وأعترت شفتها السفلى رعدة خفيفة . أنها ليست على ما يرام ، وقد أخطأت بالتهجم عليها هكذا.

رويت لها كيف ذهبت إلى بيت أمها أولا ، وكيف عرفت شقتها بعد ذلك من قصارى الزرع ، ثم قلت:

-احمدى ربنا بقى ياستى ، أدى جنب بيتكم نخلتين مش نخلة واحدة وكانت هى تصغى صامتة بابتسامة كبيرة، فلم آكد أقول هذا القول حتى صاحت فجأة.

-قرف قرف ! ده نخل ده؟.

وكان سخطها على النخلتين أكثر مما يبرره الحال ،كأنها انتهزت الفرصة لتصب غضبها على شئ ، فارتفعت أنا فى جلستى لأرى فناء صغيرا بين مبانى منخفضة تقوم به النخلتان التعستان ، ثم عدت أوجه إلى أنوار نظرة فاحصة متسائلة .. إن حال العرانس لا يكون هكذا بعد أسبوع من الزواج ، فماذا حدث لها ؟ لقد عرفت مقدما أنها ستجد مفاجأة فى الزواج، وقد تكون صدمة ، ولكن لماذا هذان الخدان الغائران والنظرة المنذرة؟.

قلت لها مستدرجة:

-أظن دلوقت بقى بتخرجى على كيفك وتعوضى اللى فات . نفسك فى الهرم تروحى ساحبة جوزك على هناك..

فقالت فى حمية وعيناها مقلوبتان إلى داخلها:

-هرم ؟ هو ده بتاع هرم.

وتقلصت شفتاها فى احتقار ، وأحسست أنا أن الأمر أخطر مما توقعت فقلت وأنا أدفعها برفق:

-قومى ورينى صورته قومى.

فابتسمت دون أن تتحرك ، كأنها لا تنوى أن تلبى طلبى .فلما رأت إلحاحى ، نهضت متثاقلة وهى تقول بضحكة عصبية مزدرية.

-يعنى حاتشوفى فيها إيه كده ؟.

وقصدت إلى الدولاب تفتحه وتعود بصورة كارت بوستال بنية اللون ناولتنى إياها فى تردد ،وهى تحدق فى وجهى بشدة لترى ماذا سيبدو على. والحق آننى ما كدت أرى الصورة حتى خاب أملى وثقل قلبى ، إذ كان الرجل أسخف بكثير مما نصورت ..رجل أسمر كبير الرأس لا يقل بحال عن الأربعين ، ذو شفتين غليظتين وشارب أسود مربع ، وهو يلبس طربوشا مستقيما فوق رأسه فيغطى نصف جبينه ، وفى إحدى عينيه نظرة غبية مغرورة، وفى الأخرى حول خفيف ..إنه مثال الزوج الذى تخونه زوجته كل يوم- إذا كانت ممن يخن.

عملت على إخفاء خيبتى ، وجاهدت حتى قلت فى ابتهاج:

-يا روحى يا روحى ! والنبى باين عليه راجل طيب .. وشكله ظريف كمان!.

ولكن أنوار مخلوقة شديدة الحساسية ، وقد عرفت أنها قرأت مما بنفسى فى الحال ، فنتشت الصورة من يدى فى دعابة مصطنعة ، وعادت بها إلى الدولاب تمشى متثاقلة على شبشبها الوردى ذى الكعب العالى وعند الدولاب غابت أكثر مما يحتاج الأمر.

أحسست بالغيظ يتملكنى فجاة .فأى شيطان جعل أنوار تتزوج هذا الرجل ؟ تتزوجه لتقضى معه حياتها ؟ أنه لايبدو مؤذيا ، ولكنه ممل مللا قاتلا .وقد لا يكون الذنب ذنبه فى شئ من ذلك ، ولكن ما ذنب أنوار ؟ أننى لأنظر إلى النخلتين الجافتين المغبرتين اللتين تشرف عليهما هذه الحجرة المنعزلة، فأفهم السر فيما أصاب أنوار ، وأشعر بشئ من الاحتقار لها على خضوعها المشيئة غيرها فى الزواج بهذا الرجل ،قلت لها من حيث لا أدرى،كأننى اتشفى.

-امال اياك تجدعنى وتجيبى لنا دغرى عيل حلو كده زى أبوه ! .

ولم أدر لماذا قلت ذلك، فنظرت بعده إلى ظهر أنوار التائه فى قميصها الفضفاض ،وفاض بنفسى شعور بالندم والرثاء.. ولأول مرة لم ترد أنوار على كلامى بشئ ، بل ظلت صامتة تولينى ظهرها ، وتعبث بيدها فى الدولاب المفتوح. فنهضت اريد أن أقصد إليها وألمسها ، ولكن الخادمة الصغيرة اقبلت فى تلك اللحظة تقول:

-ستى ..خلاص قطعت اللحمة...

فأغلقت أنوار الدولاب وانثنت لتخرج ، محاولة الا تعطينى وجهها ولكننى لحظت رغم ذلك ما أصاب شفتها السفلى وذقنها من رعدة متوترة ، ولحت فى عينيها العسليتين العاجزتين- لشدة الى- دموعا مكبوحة ثم خرجت أنوار مسرعة وراء الخادمة ، وكعب الشبشب العالى يلتوى تحت قدميها.

(٢)

لمدة عام كامل لم أتصل بانوار، لأننى كنت فى الأسكندرية ، ولم أكتب إليها لأننى لم أدر ماذا

أقول لها .فلما كانت اجازة الصيف لم أسافر إلى القاهرة ، بل قصدت إلى رأس البر لتمضية الصيف. عند ذلك قررت أن أكتب لها ، وظللت زمنا لا أتلقى منها ردا على رسالتى . ثم وصلتنى كلمة صغيرة حية كصاحبتها تقول إنه لم يجد عليها أكثر مما أعلم ، ولا ينتظر أن يجد . ثم أنقضى عام أخر . فلما كانت اجازة الصيف التالية سافرت إلى القاهرة ولكننى لم أمكث بها الا أياما قليلة ، وكسلت عن زيارة أنوار ، فلما عدت إلى الاسكندرية ندمت على تقصيرى ، ولكن لحسن الحظ لم يطل ندمى ، إذ لقيتها هناك.

ذهبت مرة إلى بلاج جليم لأمضى اليوم فى كابينة بعض الأصدقاء ، فبينما أنا أخوض الرمال وسط المظلات المتزاحمة التى يرتمى تحتها المستحمون بضحكهم وضجيجهم والوانهم الزاهية، وجدتنى وجها لوجه مع أنوار ، وكانت تجلس على الرمل تحت مظلة بنية اللون فى فستان أزرق كعادتها ، وحول رأسها« إشارب» وردى فاتح ، وقد استندت إلى كرسى قماشى مفروض فى الرمال ، باسطة ساقيها وعاقدة ذراعيها على صدرها ، تنظر فى شرود إلى البحر.

لم ترنى أول الأمر ، ولكن حساسيتها الشديدة دلتها إلى أن هناك من ينظر إليها فالتفتت نحوى ورأتنى ، فقفزت إلى عينيها تلك النظرة الفزعة التى تعرف فى عيون الخجولين حين يفاجئهم الناس . ولكننى لم أمهلها ، بل قصدت إليها أحرجها كعادتى بالعناق والتقبيل ، ثم صافحت أمها التى كانت تجلس بجانبها فى ثوب أسود كعادتها، وعلى رأسها طرحة سوداء أيضا . وقد عرفت أنهم فى الاسكندرية منذ ثلاثة أسابيع ، وأنهم لن يمكثوا إلا أسبوعا آخر. ثم سألها عن زوجها فأشارت إلى البحر قائلة أنه يستحم .قلت لها:

-وانتى مابتستحميش ليه؟.

فقالت تظهر الاستسلام:

-معرفش أعوم.

-وهو الواحد عشان ينزل البحر لازم يكون يعرف يعوم؟.

فابتسمت أنوار ولم تجب ، ولكنى ألححت عليها فقالت:

-يعنى عايزانى أقلع عريانة قدام كل الناس دى؟.

فلما أكدت لها أن هؤلاء الناس لن يتركوا كافة مشاغلهم ويتفرغوا للنظر إليها إذا قلعت ،قالت لى غيظ:

-مابستحماش وخلاص!

وزغرت لى وأحمر وجهها ، فقلت لها« ياباى» وتظاهرت بالغيظ أنا الأخرى ، فقالت لى فى صوت منخفض:

- أصله هو ما يحبش آنى استحمى فى البحر.

ولكن آمها سمعت قولها فانبرت متحدية:

مانصدقيش يختى .. بنتى كدابة!

فانطلقت من آنوار تلك الضحكة المتهافتة إذ آحست آنها ضبطت ترتكب إثما ، واسترسلت آمها:

-لسه قبل ماحضرتك تيجى كنا فى الحكاية. سى إبراهيم افندى نفسه غلب يقول لها تنزل معاه وهى اللى مش راضية .. انكرى كده!.

وكانت آنوار فى نهاية ضحكها وقد تعرى لحم آسنانها واجتمع الدم فى وجهها وبدت جميلة فى شعورها بالذنب ،فاستمرت أمها:

-أصلها يا ستى متمشيخه شوية اليومين دول!

-ازاى بقى؟.

-صلا إيه وصيام إيه.. وتسبيح إيه! وده حرام وده حلال .. حتى الكلام بطلته آل مايصحش تجيب سيرة الناس وهم غايبين . ودلوقت تقولى لها استحمى تقول لك حرام..

وكانت السيدة إذ تتكلم تلوح بيدها فى غيظ ، ورأسها يتمايل استهزاء فى طرحتها السوداء ،وحاجباها يهتزان كعادتها زيادة فى التعبير .قالت أنوار وقد بدا أنها فخورة بما سمعت :

-أنا طول عمرى بصلى وأصوم.

فقالت أمها:

-أيوه لكن مانتيش تصبحى م الفجر تقرى دلايل الخيرات !حاكم يابنتى عيلتنا فيها عرق مشيخة.. الله يرحمه أبوها كان راخر مايعرفش إلا السبحة والسجادة والجامع.

وراحت تروى لى طرائف عن الأدب ، ثم عن البيت ، وأنوار تصغى بابتسام صامت ، وأنا أنظر إلى ما يبدو عليها من اقتناع بحالها دون أن أدرك ما أدركت فيما بعد من خطورة نظرتها إلى الموضوع.

وفى ذلك الصباح أطلت الجلوس معها عمداً لكى أرى زوج أنوار عندما يعود من البحر ، ولكنه لم يعد سريعاً ، وأتى بعض أصدقائى يستعجلون عودتى ، فتركت أنوار بعد أن اتفقت معها على اللقاء عصراً.

كانت الساعة بعد السادسة بقليل عندما التقينا فى محطة الرمل أمام التريانون ،حيث تلتقى ترامات المدينة الزرقاء بضجيجها ، فيتجه بعضها إلى شارع المسلة ويغوص فى قلب البلد، وينعطف البعض الآخر ناحية تمثال سعد زغلول الذى يقف بكتلته السوداء اللامعة فى ضوء

الأصيل ، شامخا نحو قلعة قايتباى حديثة الترميم ، التى تتوغل فى بحر الميناء الشرقية الهادئ فوق رصيف صخرى مستطيل.

وقفنا نتساءل أين نذهب ، وأنوار ترفض كل ما أعرض من مشروعات الذهاب إلى كازينو الشاطبى أو أى كازينو أخر من التى تكثر فى الاسكندرية ويكثر فيها الناس . إذن أين نذهب ؟ أمسكت أنوار بذراعى تضغط عليه فى اعتذار عما ستقول ، ثم نطقت :

-أنا عارفة حتة حلوة قوى!.

وكانت صحبتى لأنوار قد علمتنى أن نهيب تلك «الحتة الحلوة» التى يشترط فيها أول كل شئ أن تكون مقفرة جرداء ، ينعب البوم فى شقوقها ، وتلطم وطاويطها الوجوه. ولكننى استسلمت لأنوار ،فركبنا تراما وقع اختيارها عليه ، وسرعان ماكنا نتأرجح فى شارع التتويج بين صفين من العمارات الكبيرة التى تنفرج جهة اليمين عن ثغرات صغيرة يبدو منها البحر مسدوداً بسوره الصخرى المرتفع. وأخيرا ملأت خياشيمنا رائحة عفنة نفاذة ، وانعطف الترام بنا نحو الانفوشى ، ليسير بين صف من بيوت عتيقة مهدمة ، وبحر هادئ فسيح رصت على ساحله الضيق هياكل سفن كبيرة فى مرحلة البناء ، وأولاد البلد رجالا ونساء وأطفالا يتربعون على سوره الصخرى المنخفض هناك يأكلون الترمس وينحتون اكواز الذرة المشوى.

انتهينا أخيرا إلى ميدان رأس التين الفسيح الذى تتصدره حديقة خضراء زاهية ،وتنتشر فيه أشجار النخيل الفاخرة التى يلفحها هواء البحر القوى، فيتضارب سعفها ويلمع فى ضوء الأصيل الذى صار ذابلا شفافا .وهناك نزلنا ، واتجهنا إلى البحر الذى يحده فى ذلك المكان سور حديدى مصدئ ،فى طريق مرتفع تشرف عليه بناية هائلة رفع عليها العلم المصرى وشد حولها سياج من الأسلاك الشائكة. ولم يكن فى هذا الجزء من البحر أى أثر لبلاج رملى ،والشاطئ يتكون من صخور خضراء زلقة يقف عليها بعض الصيادين يحملون سناراتهم وقد رفعوا ذيولهم وعقدوها على خصورهم ،والأمواج الضعيفة تضرب أقدامهم وتبل سيقانهم حتى الركب .فلما أوغلنا فى الطريق المرتفع أخذ الشاطئ يضيق ، حتى اقتربنا من نهاية الطريق إذ ينعطف إلى اليسار ويختفى وراء البناية الكبيرة فى اتجاه الميناء ،فانقطع الشاطئ كلية وصارت الأمواج ترتطم مباشرة بالجدار الصخرى الذى يكون جانب الطريق، وهى كبيرة قوية متلاحقة ، تفور تحت أقدامنا ثم تنسحب كاشفة عن غابة كثيفة من الأعشاب تضطرب فى القاع المظلم مخيفة كأضغاث الأحلام .وكان البحر كله هذا المكان وعرا رهيبا على حال الطبيعة ، لم يؤسر كما أسر فى سائر البلاجات المنظمة ، ينبسط حتى الأفق متموجا مزمجرا ، وقد برزت على سطحه البعيد صخور كبيرة سوداء تتكسر عليها الأمواج برشاش أبيض مرتفع ،وتهب منه الرياح قوية باردة مشبعة

بالرطوبة والبلل.

وكانت الشمس قد هبطت قرب الافق مرتعشة الحواشى فى حريتها الأخيرة . وقد غشينها سحب خفيفة تجعل ضوءها فاترا ذابلا لا يؤذى العين . فوقفنا ننظر إليها وأنوار مبهوتة كعهدها ،حتى قدتها إلى صخرة كبيرة مستوية قد وضعت لتسد ثغرة طرأت بحادثة ما على السور الحديدى ، فجلسنا عليها وأدلينا أقدامنا فى الخارج ، وأنوار تنظر فى حماسة صبيانية إلى المياه تحت أقدامنا ، التى لو دفعتها دفعة واحدة لتردت فيها وغاصت بين الحشائش الكثيفة المليئة بالكائنات المفزعة.

وكنا قد اشترينا فى طريقنا كوزى ذرة من رجل يجلس على الأرض مستندا إلى سور البحر ، وأمامه جمرات فحم حمراء ملتهبة يقلب فوقها الأكواز الكهرمانية التى ترتفع حباتها كلما بردت.

فبينما نحن ننحت الحبات الناشفة الساخنة ، قلت لأنوار وأنا ألكزها فى جنبها:

-حتة حلوة قوى يا ست أنوار!.

فضحكت وقالت:

-مش أحسن م القهوة اللى كنتى حاتقعدينا فيها؟.

ورحنا نتكلم فى أمور تافهة مختلفة ، وأنا أسألها عن حالها مع زوجها فتجيب إجابات قد لا تدل على أن الرجل يحتل من نفسها موقعا هاما ، ولكنها على أى حال تخلو من اليأس والمرارة اللذين لمستهما فيها يوم رأيتها منذ عامين . ثم أننى انتقلت إلى موضوع الأطفال ،فأظهرت عجبى من أنها تلد حتى الآن ، وسألتها أن كانت تتعمد ذلك ، فلم تزد عن ان ابتسمت ابتسامة صغيرة مذنبة وأحمر وجهها .فقلت:

-افتكر أنك لو جبتى عيل كان يشغلك ويسليكى.

فأصرت على الصمت وإن كان احمرار وجهها وامتلاء نظرتها يدل على أن كلامى قد أصاب موضوعا يشغل بالها .فلما قلت أننى أعتقد أنها تحب الأطفال قالت كأنها تبوح بسر عظيم: -ماخلاص !.

وهى لغة أنوار تعنى أنها تجيب بالايجاب عن كل الأسئلة الموجهة إليها . ولكننى طلبت زيادة الافصاح ،فقالت فى خجل واحمرار أكثر مما يستحق موضوع الحمل- بالنسبة لامرأة متزوجة على الأقل:

-قربت أجيب عيل .. بقى لى شهرين!.

فنظرت إلى بطنها ولحظت أن تايورها الأبيض الذى كنت أعهده دائما مفتوحا متطايراً -محكم الأزرار يلصقه الهواء بجسمها فيبدو تحته ارتفاع بسيط لا يمكن للمرء أن يلحظه دون آن ينبه إليه

.فهنأتها على ذلك وسألتها ماذا سوف تسميه . فهزت كتفها فى استخفاف ولم تجب، وبدا لى من حالها انها لم تدل بسرها كاملا ، وانه لا زال عندها ما يقول قلت استدرجها:

-وجوزك فرحان طبعاً؟.

فضحكت ضحكة صغيرة ظافرة وقالت.

-هو عارف حاجة؟.

-الله ! انتى ماقلتيلوش ولا ايه؟.

-أبدا !

-طيب وليه كده؟.

فازداد ضحكها وقالت:

-وهو ماله!

وراح بدنها يهتز ويرتعش وسط الرياح التى تطير شعرها وترعد ثيابها ، وبدت كأنها تنعم فى قراراتها بسعادة خفية مختلسة . ثم آخذ الضحك يتلاشى من وجهها رويدا حتى لم يبق منه إلا خطوط رفيعة حول فمها وعينيها ، واكتسى وجهها بجد بليغ لا يخلو ككل نوباتها من شعور بالذات وخجل صبياني . وكان قرص الشمس قد انتهى أخيرا إلى الأفق البعيد ، وغاص نصفه فى الماء ، فبدا مثل بالون هائل قانى الحمرة، يذيب الماء بريقه فلا يؤذى النظر ، وتهب من ناحيته ريح باردة قوية ، فكأنه صيغ من نحاس لامع بارد . وكان هذا المكان مهجورا رهيبا بطبعه ، فأضاف هذا الغروب إلى رهبته ، ونحن ننظر إلى كتلة الماء الرصاصية المتلاطمة ، ونتصور أن فى هذه الأعماق الباردة حياة لا تبرح تضطرب حتى بعد أن يلفها الظلام. ولكن أنوار كانت تبدو سعيدة فى هذا المكان ، إذ تنظر مفتونة إلى الفضاء الذى بدأ يصير رماديا ، وتستقبل الريح بوجهها وصدرها فى استسلام هادئ لا يخلو من مظهر الاحساس بالتضحية.

أحسست أن ثم أمراً خطيراً يشغل بالها ، وأنها لم تحدثنى بعد بكل سرها ، فهممت بأن أعاود استدراجها ، ولكنها أغنتنى عن ذلك إذ قالت فجأة وهى تلهث وعيناها مقلوبتان إلى داخل نفسها:

-إلا أنت تصدقى فى الأحلام؟.

فكان الصدق أن أقول لا، ولكنها لا تريد أن تعرف رأيى حقيقة ،فأجبتها إجابة ملتوية ، حتى عادت تقول ورأسها ينثنى على كتفها وابتسمت ، ثم قالت:

-ده حلم هايف كده..

ولكنها كانت تحملق بشدة فى المياه المتأرجحة التى بدأت تظلم تحت أقدامنا ، فعلمت أن

حلمها لم يكن تافها . قلت لأطمئنها

أنا برده ساعات تصادفنى أحلام بالشكل ده . وبتتحقق .. لكن ايه حلمك انتى؟.

فباحت أنوار بالسر

-من مدة تلت شهر كده .. ولا يمكن حتى أكتر ،مش عارفه ..قبل معرف انى كده --أصلى كنت باستعجب أنا اتأخرت كده ليه-- جيت فى ليلة حلمت انى رحت فى حتة ، والله يا فاطمة عمرى ماشفت أحلى منها أبدا ..غيطان خضره مالهاش اخر..

وشجر كتير ..وطول الوقت تطلع م الغيطان عصافير كبيرة وبيضه زى البجع ..تطير فى الهوا وتعوم فى البحر .. وأنا كمان كنت زى ما أكون طايره مش ماشيه ..والعصافير دى تبص ناحيتى ،وتتكلم على، وتكاكى.

وسكتت أنوار لتستجمع انفاسها ، ونظرت إلى بحدة فى الضوء الرمادى لترى كيف وقع منى كلامها ، كانها خجلت من البوح لى بخبيئة نفسها . قلت لها مشجعة:

-يظهرانهم خدوكي رحلة للجنة!

فضحكت فى سعادة وقالت:

-مانا بعد شوية قابلت ناس وقالوا لى كده!.

واحكمت أنوار تايورها الخفيف لتحمى عنقها وصدرها من الهواء الليل البارد ، ثم واصلت رواية الحلم بصوتها المرتعش المتكسر ، كيف أنها قابلت جماعة من الأشخاص يلبسون ثيابا بيضاء لم تعرف إن كانوا من الناس أم من الملائكة ، فأفهمها أحدهم أنها فى الجنة وطلب منها أن تسير معهم،ففعلت وظلوا سائرين خلال أبدع ما رأت من المناظر ،حتى انتهوا إلى« كشك» جميل وسط الخضرة يجلس فيه رجل ، وعند ذلك اختفى الناس الذين كانوا برفقتها ، وبقى شخص واحد نظرت إليه فاذا به ... أنا! وقد ظهر لها بعد ذلك أننى موفدة من الرجل نزيل الكشك لأنقل إليها رسالة منه . وهى لا تدرى لماذا لم تقترب منه بنفسها لتسمع ما عنده ، ولا لماذا لم يدعها هو ليدلى إليها بالرسالة ، ولكنها نظرت إليه عن بعد فوجدته يبتسم لها فى رفق ، وهو جذاب مهيب ، وجهه جميل نورانى ، وشعره أسود مرسل« زى الناس بتوع زمان اللى بنشوفهم فى الصور» ..فما كادت ترى ابتسامته ولين نظراته حتى سرت فى نفسها سعادة طاغية ، وخفق قلبها سريعاً ، ولكنها لم تجرؤ على أن ترد ابتسامته . فلما سألتنى عن الرجل من يكون قلت لها إنه« الشعرانى» ،وهز هو رأسه فى الكشك تصديقا على كلامى ، فخطر لها عند ذلك أن تقترب منه ولكننى منعتها ..

وسكتت أنوار لتستجمع أنفاسها ، فقلت لها.

- والله يختى أنا مظلومه فى الحكاية دى.. اللى حتى ما أعرف الشعرانى دد يبقى مين!.

فقالت أنوار .

-إزاى ؟ مش فيه شيخ فى مصر اسمه الشعرانى ؟ وانتى راكبه ترمواى تلاته وجايه العباسية تلاقى الجامع بتاعه على ما يمينك...

-أه .. سيدك الشعراوى!

طيب عال .. لكن انتى ماقلتيش كان باعتنى أقول إيه لحضرتك ؟ فضحكت أنوار فجأة ضحكتها الطويلة المتهافتة ، وبدا عليها التردد فقلت لها:

-قولى قولى .. مش حازعل!.

فقالت تطمئننى :

-وانتى ذنبك إيه..

وسكتت ثانيا فى شرود، ولكننى ألححت عليها حتى قالت متضاحكة.

-أصلها حاجة بايخة كده ..

وكنت قد عرفت من صحبتى لأنوار أن الحاجات البايخة هى عادة أهم الحاجات وأخطرها فى حياتها ، فلم أزل بها حتى حملتها على الافضاء بما عندها ، فراحت تقول متلعثمة لاهثة ،كيف أن الشعرانى قد أرسلنى إليها لأبشرها بأنها ستحمل عن قريب بولد ، وأن ذلك لا يتحقق إلا بشروط معينة ،منها أن تؤدى الصلاة بانتظام ، وأن تتصدق على الفقراء ، وأن تزور ضريحه بالقاهرة كل أسبوع . وقد انتهى الحلم على ذلك فى تلك الليلة ، ولكن له بقية ، إذا لم يمض على ذلك شهر واحد حتى أتاها الرجل فى الحلم ثانياً ، ولم يكن هذه المرة فى الكشك الجميل ، بل لم يكن فى أى مكان معين ، وكل ما هنالك أنه وقف أمامها بثيابه البيضاء الملائكية ، وشعره المرسل الفاحم ، فنظر إليها طويلا بعينيه النورانيتين المهيبتين ، ثم ابتسم لها دون أن ينطق بحرف. ولكنها فهمت من نظرته وابتسامته أنها قد حملت فعلا ، فاجترأت هذه المرة حتى ردت له الابتسام ، بل وتقدمت نحوه فقبلت حاشية ثوبه الأبيض وتركته يمسح شعرها بيده ، مرسلا فى نفسها تلك السعادة الطاغية التى عهدت أن تمارسها دائما فى محضره . ولم يمض على ذلك الحلم أسبوع حتى عرفت أنها حامل بدلائل مؤكدة ،فقصدت إلى ضريح الشعرانى تقرأ له عشرة فواتح ، وتوزع على الفقراء جنيها كاملا..

ما كادت أنوار تصل من كلامها إلى هذا الحد حتى دهمتها فجأة رزانة خطيرة ، فأعطت وجهها للبحر والريح ولاذت بالصمت. وكانت السماء قد بدأت تظلم، والبحر يسود ، وصرت لا أكاد أرى من أنوار سوى شبحها الأبيض.

لم أدر ماذا أقول تعليقا على قصة أنوار ، وكانت هى تنتظر ذلك التعليق . وإن بدت على العموم نادمة على إهانة سرها بالافضاء به. ولكن هل كان هذا سرا حقاً ؟ هكذا سألت نفسى إنه بالغ السذاجة كنت أتمنى ألا أسمعه من أنوار .. ولكن يظهر أنها لن تزال تفاجئنى من أسرارها وأحوالها بما يجعلنى فى خوف دائم عليها من نزوات روحها العنيفة الساذجة . فلو اخترت أن أكون صريحة فى الرد عليها ، لقضيت ساعة أشرح لها ما تعلمت من النظريات فى شأن الأحلام، وما تعود عقلى العلمى أن يردده فى صدد المشايخ والأولياء .. ولكننى لم أجرؤ على الصراحة ، لأن أنوار كانت تبدو جادة كل الجد فى تلك الأمور، ولأننى قلت لنفسى أنه لا بأس بأن يتدخل الشعرانى فى شئون حملها وولادتها ، ما دام الذى ستلد كفيلا بأن ينسيها الشعرانى وأمثاله . لذلك لم أزد عن أن لففت ذراعى حول كتفيها اضغطهما قائلة فى إخلاص:

-مبروك يا حبيبتى .. تعيشى وتجيبى لنا عشر عيال.

فاهتز كتفاها فى ذراعى إذ ضحكت من انفها فى استخفاف.

وكان الهواء قد صار بارداً موجعا ينفذ فى العظام ،وهو محمل برطوبة ثقيلة تتكاثف على السور الحديدى بجانبنا وتصير ماء . فقمنا عن الصخرة نتحسس ثيابنا التى ابتلت هى الأخرى ، وانحدرنا فى الطريق الموحش نقصد إلى المصابيح التى بدأت ككرات معلقة فى الفضاء الأسود.

وفى الترام لم نعد إلى الكلام فى هذا الموضوع ،كأن انوار مجدة فى ندمها على الافضاء بالأمر، تريد أن تنسى أنها فعلت .فلما صرنا فى محطة الرمل ، افترقنا على ميعاد بعد أيام . ولست اذكر ما السبب فى ذلك ، ولكننا لم نلتق فى ذلك الميعاد ، وسافرت انوار إلى القاهرة دون أن أراها.

(٣)

لمدة ست سنوات لم يتح لى أن أتصل بأنوار بأية طريقه ، إذ كنت فى هذه الأثناء قد نقلت من الاسكندرية إلى طنطا، ثم إلى دمياط ولم أحضر إلى القاهرة إلا مرة واحدة . ولكننى كتبت إليها فردت تقول أنها قد وضعت طفلا ذكراً ، وأنه قد تعلم المشى أخيرا .فلما كانت سنة ١٩٤٣ قررت أن أقضى جزءا من أجازة الصيف فى القاهرة وذهبت ذات يوم لزيارة أنوارقصدت إلى بيتها الذى زرتها فيه منذ سنوات بالعباسية ، والذى يطل على النخلتين العتيقتين ، ولكننى ما كدت أطرق الباب حتى فتحت لى فتاة غريبة ، أخبرتنى بأنها تسكن هناك منذ عام ، وأنها لا تعرف إنساناً يدعى أنوار . قلت لعلها عزلت ، فأمنت الفتاة على قولى ، وذهبت أنا إلى المنزل الآخر الذى أعرفه ، بيت أمها.

فتحت لى ست سنيه ، وهى كعهدها فى الثوب الأسود والطرحة السوداء ، فرفعت حاجبها

تتأملنى حينا دون أن تعرفنى . فلما أشرق ذهنها بالذكرى صاحت ترحب بى وتدعونى للدخول ،لائمة إياى على الانقطاع عنهم كل هذا الزمن، وذاكرة أن أنوار غاضبة على بسبب هذا الهجر . وبينما قادتنى المرأة إلى غرفة الاستقبال المظلمة تفتح نافذتها وتلقى الضوء على طقم فوتى أزرق عتيق ،حدثتها أنا بما كان من ظروفى المانعة ، ورويت لها ما كان من ذهابى إلى بيت أنوار القديم منذ لحظات.

ثم جلسنا متواجهتين وأنا أتأملها لأول مرة منذ تعارفنا ، فأجدها سمراء الوجه ذات انف كبير ، وشفتين غليظتين ، وجبين ضيق ، لا تشبه أنوار فى شئ ، وليس فيها أى أثر لحياء أنوار وشعورها بذاتها .

سألتها اين بيت أنوار الجديد ، فترددت هنيهة ثم قالت:

-دى قاعدة معايا هنا بقى لها شوية.

ولم أكن أسمع صوت حركة فى البيت فسألتها أين هى إذن ، فقالت:

-خرجت مع ابنها من مده وزمانها راجعة.

-ابنها ! هى ..آه بحق دى كتبت لى جواب وقالت لى ..

لكن ماجابتش غير ولد واحد طول المده دى؟.

-كفاية يختى ، احنا حنوديهم فين؟.

-ياخى كويس اللى جه ولد . هي كان نفسها تجيب ولد قوى.

فقالت ست سنية وهى تتمايل فى جلستها وترفع حاجبها ساخره:

-هى كان بس نفسها تجيب ولد ؟ دى كانت عارفة أنها حاتجيب ولد.

-ازاى بقى يا تيزة؟.

-آل حلمت.

ولم تزد ست سنية ، وسكتنا حيناً وهى تنظر إلى السجاد الأحمر ذى النقوش الخضراء ، ويبدو أنها تريد أن تقول شيئا ولكنها تتردد. وأخيرا رفعت إلى بصرها فجأة وقالت:

-انتى يختى مادرتيش؟.

-خير ، بايه يا تيزة؟.

-باللى عملته أنوار؟.

-أنوار عملت حاجة؟.

فقالت وهى تقلب راحتيها فى عجز يائس :

مش سابت جوزها؟.

أنوار !.

-أنوار ..جتها إيه بقى.

وكانت هذه مفاجأة ، فقلت بانزعاج حقيقى:

-إزاى يا تيزة ؟ عشان إيه ؟ امتى؟.

-من سنة كده يا بنتى .

-سنة !.

-تقريبا .

-ليه ؟حصل إيه ؟ جوزها زعلها ف حاجة؟.

أبداً .

-أمال إيه ؟.

-الراجل لازعلها ولا عملها .هى مش بنتى ومن دمى ، لكن الحق مايعلاش عليه، وجوزها الراجل مافيش أطيب ولا أكمل منه ..هى اللى جابت داهيتها بايدها..

-لكن عشان ايه سابته ؟ مش لازم فيه سبب ؟.

-أهى قسمتها كده والسلام..

وسكتت المرأة تظهر الاستسلام . مراوغة وإن كانت تريد الكلام . وقد غاظنى سكوتها، ولكننى رأيت ألا أثقل عليها بالالحاح . وأخيرا تكلمت هى من نفسها فقالت:

-أنتى مش فاكره لما اتقابلنا من كام سنة فى اسكندرية ؟ مش اشتكيت لك يومها من مطلوع المشيخة اللى طلعت فيه جديد؟. أهى يختى بدال ما تعقل وترجع زى ما كانت ، فضلت تزيد شوية شوية لحد ما أقول لك الحق أتوغوشت عليها ..كل يوم تصحى من الفجر تستحمى فى عز الشتا ، وتصلى الفجر ، وتقعد تسبح لطلعة الشمس، وبعد كل فرض لازم تقعد تسبح بالنص ساعة والساعة ، وساعات أصحى فى نص الليل أسمع حسها بتقرا قرآن. وآل لازم لها يوم فى الجمعة تسحب عبده ساعة المغرب ، وتسيب جوزها فى البيت ، وتروح تزور الشعراوى.

-يعنى كل الحكاية..

-واللى زاد وعاد يابنتى أنها تصوم كل يوم اتنين وخميس ، ورأسها وألف سيف ما تخرج فى السكه إلا بفستان طويل مدلدل لاكعابها وبالطو مكلفتها ،وعلى وشها بيشه سودة زى غما الحصان ..وكل ده لحسن بسلامته ياخد على خاطره.

-جوزها؟.

-جوزها مين .. الشعراوى ؟ ده جوزها اذا كان على كيفه تلبس وتزوق ولايبقاش أحسن منها .. هو مسكين ضج من شوية .

قلت لها

-لكن هو إيه يضايقه من صلاتها وصيامها؟ بقى عشان كده زعلوا من بعض؟.

-مش بس كده يا حبيبتى . لو كانت هى على كل ده بتديله وش كان يستحملها . لكن دى بتكلمه بالتيلة ، ولا تبلعلوش هفوة ، ومبعد عنه الواد زى ما يكون مش ابنه.

-وعشان كده طلقها؟.

-أبدا وحياتك الراجل فضل صابر لحد ما هى سابته بنفسها وجابت ابنها آل تقعد عندى . صن شويه وجه صالحها وخدها تانى على بيتها . وكلها شهرين بصيت لقيتها داخلة على تانى تحلف عمرها ما هى راجعة له يعمل ايه هو بقى ؟ طلقها؟.

فهممت بأن أتكلم ، ولكن ست سنيه أسرعت تقول فى غيظ:

-ماهو ابوها بدال ما يسيب لها حاجة عدلة تسندها ، راح وساب لها الورثة المهببة دى .. القصد ، ومايجوزش عالميت إلا الرحمة!.

وهمت ست سنيه بأن تواصل حملتها على زوجها الميت ، ولكنها سكتت إذ رن جرس الباب فى تلك اللحظة وسمعنا صوت الخادمة تسرع لتفتحه . وتلا ذلك صوت أقدام خفيفة طرق بلاط الصالة مسرعة نحونا ، ثم اندفع من باب الغرفة صبى صغير يلبس قميصا أبيض وبنطلونا ، قصيرا ، يصيح:

-نينه . نينه..

ولكنه سكت فجاة حين وقع بصره على، فجمد فى مكانه وأحمر وجهه وراح ينظر نحوى فى خجل ويبتسم .كان طفلا ظريفا ككل الأطفال ، عرفت فيه عينى أنوار العسليتين وأنفها المدبب ، وإن كان أميل إلى السمرة منها ، وشعره أسود فاحم بعكس شعرها الكستنائى.

قالت ست سنيه:

-تعالى سلم على خالتك يا عبده..

فتقدم الصبى ببطء وهو يثنى رأسه على كتفه من الخجل ،ومد لى يدا صغيرة مترددة ، فرحت أداعبه بكلمات لم تفلح فى ازالة حيائه ، وعندما سألته جدته عما كان ينوى أن يقول ساعة دخوله ، قال «مافيش حاجة» ،ومضى يخرج من الغرفة . ابن أنوار.

ولابد أن الخادمة أعلمت أنوار بوجودى ، لأنها دخلت باسمة ووجها محمر، وهى تسير كعهدها رافعة الرأس وقد انتصب جسمها النحيف الصغير .كانت تلبس بدل التايور الأبيض الذى عهدتها

به« مانتو» أسود طويلا مقفل الصدر من طراز عنبق ، وفوق رأسها قبعة صغيرة سودا. عتيقة أيضا ،وفى يدها بيشة مطوية من شاش أسود . أما ساقاها فمختفيتان فى جورب بنى من قطن ثقيل.

كعادتها ، لم تسرف فى إظهار عواطفها ،وتهربت أمام حماستى للقاء وإن كانت مسرورة برؤيتى . ثم جلسنا وأنا أتأمل ملابسها فى عجب ، وأرى أمها تتابع نظرتى وتوجه إليها هى الأخرى نظرة موتورة فى استسلام ، ثم تلتفت إلى مستشهدة كأنها تقول «شايفة صاحبتك»؟.

وقد رأيت أنا أن أتجاهل ما سمعت من أمر طلاقها ، وأنا ارجئ الكلام فى أمر مشيختها ، فرحنا نتكلم فى الأمور العادية التى يتكلم فيها من يتلاقون بعد الفراق . ثم نهضت لأنصرف إذ كان الوقت قد جاوز الظهر . فدعتانى للغداء وألحتا، ولكننى كنت مرتبطة بموعد فاعتذرت قائلة لأنوار أننى سأنتظرها فى منزلى عصر اليوم لكى نتحدث حديثا طويلا . ولكن ست سنية قاطعتنى بلهجة ساخرة

-لا يختى أنوار مش فاضية لك الليلة ..النهاردة الجمعة ، ليلة السبت ..يا دهوتى من ليلة السبت !.

فانفرجت شفتا أنوار عن ابتسامة مغيظة ، واحمر وجهها فى اشمئزاز من ابتذال أمها ، فقلت أنا.

-ليه يا تيزة؟ فيه ايه ليلة السبت؟.

- النهاردة يا ضنايا معاد سيدها الشعراوى ..لازم تروح المغرب تقراله الفاتحة وتفرق ريال عالشحاتين.!

فهممت بأن أجاريها فى التهكم ، ولكننى رأيت أنوار مشيحة بوجهها بابتسامتها المرتعشة المتألمة ، فقلت لها:

-طيب بلاش النهاده . استناكى بكره؟.

فأومأت بالموافقة ، واتفقنا على أن انتظرها فى تمام الساعة السادسة.

فبينما أنا أخرج ، صادفت ابن أنوار وراء الباب يمد رأسه مستطلعا ، فأمسكت به أصافحه وأقول مداعبة:

-أنت ماقلتليش ليه على اسمك؟.

فابتسم فى خجل ، ونظر إلى أمه كأنه يستأذنها ، ثم قال وهو يلهث:

-اسمى عبده.

عبده حاف كده ؟ عبده ايه؟.

فقال الصبى وهو يحاول استخلاص يده من يدى

-عبد الوهاب.

وعاد ينظر إلى أمه ليستطلع رأيها . فتابعت نظرته إلى أنوار ورأيتها تغض بصرها وقد أصطبغ وجهها بلون الدماء.

كانت الساعة بعد السادسة عند وصلت أنوار إلى بيت عمتى حيث كنت أقيم فى ذلك الوقت ،وهو شقة فى الطابق الثالث من عمارة بميدان الاسماعيلية .وكنت قد أوصيت عمتى ألا تجلس معنا حين تاتى أنوار ، لما أعرف من ارتباكها وانزوائها فى حضور الأغراب . وبالرغم من ذلك فقدار ارتبكت أنوار وانزوت ، وعرفت ذلك فيها حالما أطلت من النافذة على ميدان الاسماعيلية بزحامه وضجيجه، ثم إذ جلست أمامى بثيابها السوداء تعبث بالبيشة الثقيلة المكورة في يدها ، وتتحاشى النظر إلى أفراد أسرتنا العديدين الذين يطلون عليها من براويزهم فى الجدران.

لذلك لم نكد نجرع الشربات الذى قدم إلينا بعد حين ، حتى ابتسمت لأنوار أسألها أن كانت تفضل الخروج ، فتعلقت بالفرصة ،وما كدت ألبس ثيابى حتى غادرنا المنزل . وقبل أن نخرج من باب العمارة رأيت أنوار ترفع البيشة السوداء تلقيها على رأسها وتغطى وجهها ، مختلسة النظر إلى لترى أثر حركتها على، ومتجاهلة الابتسامة التى بدت على وجههى . ولكننا عندما اقتربنا من كوبرى قصر النيل ، وجدت أن هذه البيشة ستفسد النزهة على أنوار ، وعلى أيضا بسبب عجزى عن رؤية وجهها كلما حادثتها ، فطلبت منها أن تخلعها ،وعندما تمنعت ، مددت يدى فانتزعتها بالقوة وهى تضحك وتتلفت حولها خوفا من أن يراها الناس.

وكان الوقت قبيل الغروب ونحن نعبر الكوبرى ،والشمس قرص كبير يتبخر وراء أشجار النخيل المرتفعة التى تبدو على البعد كأنها زهور عملاقة مطبوعة على صفحة حمراء ملتهبة من الشفق . وكأن تمثال سعد زغلول أيضا غارق فى بركة من الدماء ، وهو يرفع ذراعه ويبسط أصابعه السوداء كأنما يستغيث .والنيل حولنا شريط طويل متموج ، قاتم الفيضان ،كأنه أحد زواحف ما قبل التاريخ الهائلة ، يتمسح فى نعومة بالخضرة الكثيفة التى تكون صف الحدائق عن يساره ، والتى تدلى أشجاره الأغصان فى مياهه كأنه طيور هائلة تشرب.

فيما ترى من المناظر وهى مفتونة مذهولة كعهدها ، ثم أشارت إلى ثكنات قصر النيل وراءنا حيث الجنود الحمر ينبشون بقضبان النوافذ كالقرود ، وقالت إنه لو ترك لها اختيار سكنها فى القاهرة لاختارت هذا المكان ، ولكن هذا كان أمرا بعيد الوقوع. ولذلك لم التفت إليها بل شرعت فى حملتى مباشرة ، سائلة اياها أولا ماذا تعنى بهذه الملابس العجيبة ، فقالت فى جد أصحاب المبادئ وهى تغالب الابتسام.

مالها هدومى؟.

فلما شرحت لها كيف أنه لا باس بالملابس فى ذاتها على شرط أن تكون على جدتها أو أم جدبها ، إذ أنها اعتق من أن نليق لأمها ، قالت «عاجباني» !، فلما ذكرتها بالمثل القائل بأن الإنسان يجب أن يلبس بما يعجب الناس قالت فى سخرية واثقة

أصلى مابقيتش اهتم اد كده برأى الناس.

قصدك يعنى الناس الصاحيين.

فاحمر وجهها ولم تجب. وكنا قد عبرنا الكوبرى وانعطفنا إلى اليسار ، فى ذلك الشارع الذى يحاذى النيل وتتلاقى فوقه أغصان الشجر والنخيل الشاهق المزروع على جانبيه . وكان عن يمينا حديقة الخديوى إسماعيل وهى غاصة بالخيام التى ضربت فيها من أول الحرب وعن يسارنا النيل يقوم على شاطئه المقابل فندق سميراميس الشامخ ، وقد أضاء سكانه الانجليز الكهرباء بنوافذه فى هذا الوقت من النهار .وفى هذا الطريق الهادئ توغلنا ونحن نستنشق النسيم الخفيف المحمل برائحة النبات ، حتى درنا حول الجزيرة وانتهينا إلى رأسها أمام حمام اللجنة الأهلية ، حيث شاطئ الجيزة بمبانيه الفاخرة وعوامات التجديف الرأسية عليه ،ومن ناحية أخرى مبانى القصر العينى الصفراء المتماثلة ، وفى صدرها خط بعيد معلق فى الفضاء تنزلق عليه نقط صغيرة سوداء كأنها النمل ، هو كوبرى عباس.

هناك دعوت أنوار للجلوس على السور الحجرى المنخفض ، الذى تنحدر أمامه الأرض حتى تنتهى إلى مياه النيل، والذى ينتشر عليه أزواج العشاق عندما يهبط الليل، وتحاذيه السيارات عامرة بهم وقد غرقت فى الظلام .فما كدنا ننتهى من تبين المناظر حولنا حتى طرقت الموضوع مباشرة ، وسألت أنوار عن الأسباب التى أدت إلى انفصالها من زوجها ، فقالت لى بابتسامة ساخرة:

-يعنى هى نينة خلت حاجة ماحكتلكيش عليها؟.

فلما قلت لها أنها لم تحدثنى إلا بنقط تافهة ، قالت وهى تضحك من أنفها:

-وهو فيه إيه ينحكى .. اتطلقنا وخلاص!.

ولكن هذا الايجاز لم يكن دليلا على نفورها من الرواية ، إذ لم تلبث أن تبسطت فى الكلام من تلقاء نفسها . قالت:

-إنتى مش فاكرة يوم ماجيتى تزورينى بعدما اجوزت بجمعة؟.

فاكره يومها كنت عاملة إزاى؟.

- يومها سبتك بتعيطى.



هو يومها وبس، والله يا فاطمة أنا من يوم ما اجوزت ماشفت يوم واحد كويس.

لكن ليه؟ نينتك وانتى بتقولوا أنه راجل طيب وابن حلال.

هي: امانا عارفة أنه طيب وابن حلال .. لكن حمار!.

واحمر وجهها من شدة جرأتها ، ثم استرسلت بابتسامة ازدراء صغيرة مرتعشة:

-اتصورى ان عمره فى حياته ماقرأ كتاب ؟ عمره ما يقول يالله نخرج نتفسح فى حتة حلوة ؟ عمره ما يحب الضحك ولا الهزار؟ أهو من الصبح للضهر فى الديوان ، وبيجى عالغدا ياكل وينام للعصر ،وبعدين يخرج تاني يقعد على قهوة تقرف جنب البيت مع واحد صاحب أحمر منه شوية واسمه حمدان أفندى ، يشربوا شيشة ويلعبوا ضومنه.

لحد ما تيجى الساعة تسعة أبص آلاقيه داخل بسبحته اللى عمره ما قال عليها حتى بسم الله الرحمن الرحيم! يقلع هدومه ويقعد يتعشى ، وبعد العشا ينده عبده ويفضل يلاعبه ويكلمه كلام بايخ وهو زهقان ، لحد ما الساعة تقرب على عشرة يخش أودته وينقلب للصبح؟.

وكانت أنوار تتكلم بطلاقة وجرأة لم أعهدهما فيها ، ووجها متقد من الاهتمام وهى تشير بيديها مع الكلام، شأن كافة الخجولين حين تفلح الحماسة مرة فى إخراجهم من قواقعهم .وقد رثيت لها كما أرادت،

ولكن ذلك لم يمنعنى من آن أضحك ، لأنها هى ترى حالها مضحكا . وقد خطر لى أن أصيح بها« بقى عايزة تلبسى الهدوم دى، وتصحى م الفجر تقرى قرآن ،وجوزك مايفضلش عليكى حمدان أفندى» ، ولكننى أمسكت حتى لا أسئ إليها.

قلت وأنا أحيط كتفيها بذراعى وأضمها إلى:

-يا حبيبتى يا أنوار.. وبعدين؟،

وقد أخطأت بهذه الحركة ، لأنها ردت إليها شيئا من شعورها بذاتها وتحفظها ، فقالت وهى تلوح بيدها فى استهزاء ساخط:

-لابعدين ولاقبلين ..خلاص!.

وسكتت ، وتاه بصرها فى الفضاء أمامنا ، وقد بدأ النيل يبيض ، وعلاه فى السماء سحاب ضعيف بنفسجى اللون ، انطلقت أسراب «أبو قردان» تضرب صفحته بأجنحتها البيضاء فى صفوف بيضاء منتظمة تقصد شجرتها المفضلة عند كوبرى الزمالك ، حيث تصيح كلها بصوت واحد وتغطى الشجرة بلونها الأبيض حتى تبدو كأنها طرح طيراً.

قلت لها:

-لكن ما انتى صبرتى على كده سنين طويلة اللى خلاكى مرة واحد تعملى ثورة؟،

قالت بغيظ.

--يعنى عايزانى أفضل طول عمرى فى القرف ده؟.

فافهمتها أننى لم أقصد هذا ، وذكرتها كيف أننى عندما لقيتها قبل زواجها حذرتها ، من الزواج برجل لاتعرفه ، ثم أضفت.

-أنا مش بالومك عشان سبتى جوزك .. مادام زهقانه م العيشة معاه خلاص. لكن بس أنا شايفة أن السبب المباشر اللى خلاكم تفترقم، غريب شوية.

فاحمر وجه أنوار وقالت بابتسامة مغيظة فى تسامح:

-أنا مش بقول آن نينة حكت لك على كل حاجة؟.

فهممت بأن أروى لها ما سمعت من أمها ، ولكنها لم تصغ إلى، وإذا اقتربت منا فى تلك اللحظة سيارة سوداء كبيرة ، تمهلت ووقفت خلفنا مباشرة، فنظرت إليها منزعجة ،ونظرت أنا إلى سائقها -وكان رجلا بجانبه امرأة -نظرة قاسية لأنبهه إلى سوء اختياره للمكان ، ولكنه لم يلتفت إلى واستقر هناك ، فلم تمض دقيقة حتى قالت أنوار هامسة:

-يالله نقوم من هنا!.

فقمنا ، وتابعنا اتجاهنا الأول بمحاذاة رأس الجزيرة حيث بدأ أزواج العشاق يتناثرون على السور الحجرى ، حتى وصلنا إلى الكوبرى الأعمى فعبرناه وانعطفنا إلى اليسار لنظل بجوار النيل ، فى شارع فاروق الأول الذى يمتد بطوله شريط طويل من الحشائش التى تشقها أحواض الزهر ، ويستلقى عليها جماعات المتنزهين بأطفالهم ومأكولاتهم ،وبقربهم باعة الكازوزة والسميط يملئون المكان بندائيهم وضجيجهم . ولكن الشارع استحال إلى الهدوء بعد قليل ، فتوغلنا على الرصيف العريض وسعف النخيل المنخفض يضرب وجوهنا ،وعن يسارنا فى النيل صفوف الفلايك ذات المجاديف والقلوع ، وبينها تلك العوامات الكبيرة التى تستعمل نوادى للتجديف ،فى حين واجهتنا عبر النهر الأبيض الفسيح مبانى قصر العينى الصفراء المتشابهة ، وخلفها قمة المقطم العريضة تبدو داكنة غامضة فى الجو الرمادى الساكن.

وبعد قليل انقطعت جماعات المتنزهين ،وانقطع صف النخيل المنخفض الذى يضرب سعفه الوجوه ، تاركاً إيانا تحت سماء فسيحة بيضاء ، بدت الحشائش الخضراء عن يسارنا فى ضوئها الشاحب جذابة داعية قصدنا إلى جزء كثيف منها يكشف النيل مباشرة ، فسوينا ثيابنا جلسنا .ولم نكد نفعل حتى قالت أنوار تواصل حديثا منقطعا:

-تقدرى تقولى لى هو ليه يزهق من صلايا وتسبيحى ؟ مش الصلا ة والتسبيح أحسن على الأقل من شرب الشيشه ولعب الضومنة؟ هو لو ماكانش حمار وعقله وسخ ،مش كان عرف انه هو

اللى حمار وعقله وسخ!.

ففهمت ما تعنى أنوار ، وقلت لها أن الصلاة والتسبيح والدين بأسره تحتاج حقا إلى قدر كبير من الخيال والحس المرهف ، ولكن الأشياء كلها تنقلب إلى عكسها عندما تزيد عن الحد . وقد رأيتها لا ترحب بهذه العبارة ، ولكننى كنت أريد أن أصارحها برأيى ، عسى أن أصحح آراءها ، فأضفت .

-يعنى مثلا تقدرى تقولى لى إيه معنى زيارتك للشعراوى كل جمعة؟.

فقالت وقد ساءها أن أجادلها فى شئ هى التى أفضت به إلى :

-طب والشعرانى ماله؟.

-ولا حاجه ..كل ما فى الأمر انه ميت!.

فضحكت أنوار فى سرور كأننى قلت شيئا مغرقا فى السخافة ، ولم تقل شيئا ،فلما سألتها ان كانت تجادل فى موته قالت ورأسها يتمايل على كتفيها استهزاء:

-لأ، لكن ربنا قال إن الواحد بعد ما يموت بتفضل منه حاجة اسمها روح يا ست فاطمة؟.

وداست على ست فاطمة فى انتصار ساخر دامغ ، فقلت لها :

-طب وبعدين؟.

-وبعدين الشعرانى مات لكن روحه موجودة.

-وقاعدة فى الجامع بتاعه؟.

-معرفش قاعدة فين، لكن موجودة وخلاص!.

-عال ، لكن تفتكرى إن الشعرانى حاسس بكل الناس اللى بيزوروه فى الجامع دول؟.

-طبعاً.

-وما عندوش شغل أبداً لدرجة أنه يرد لهم الزيارة كلهم فى الأحلام.

فوجهت أنوار إلى من فوق كتفها فى نظرة مغيظة مدى لحظة ، ثم قالت متضاحكة لتفثأ غيظها:

-الحق على أنا اللى بقول لك عالحاجات.

فأفهمتها أننى لا أرمى إلى السخرية منها ، وأننى قد صدرت فى سؤالى عن نزعة علمية محضة ، ولذلك أرجوه أن تجيب عليه فترددت برهة، ثم قالت :

-الشعرانى وكل الناس تقدر تزور بعض فى الحلم. أنا حتى قريت فى كتاب .. لكن مش قايله!.

وسكتت فجاة وهى ترسل ضحكتها الطويلة المتهافتة وهى الساعة تبدو مذنبة ، فلما علمت أنها

لن تتكلمْ ، قلت لها:

-أناما بقولش انك غلطانة فى كل تصرفاتك دى، لكن بس أحب آنك ماتاخديش الموضوع جد قوى.

فسكتت هنيهة ثم قالت وهى تلوح باصبعها فى حزم:

-نرجع لكلامنا .. انتى مش بتقولى أن الواحدة مايصحش يغصب نفسها على القعاد مع حد؟.. خلاص..؟

فقلت لها إننى لا أناقش المبدأ وإنما الأسباب ، ولكنها قالت وهى توجه الكلا إلى نفسها أكثر منها إلى:

-أنا لو كنت عارفة أنه يعنى بيحبنى وحايزعل لما أسيبه كان معلهش ، لكن ما دام الحكاية بقى..

وأنهت العبارة فى عقلها ، ولاذت بالصمت.

وكان الجو حولنا ساكنا لا تتخلله أية حركة ،لاسيما حين تطول المدة بين مرور سيارة وأخرى فى الطريق خلفنا . وكان النيل قد صار من البياض كأنه نهر من اللبن ، وهو هادئ ساكن يهب من ناحيته نسيم تر متهافت ، لا يقوى على تحريك ورقة من الأشجار التى تجثم خلفنا أمام صف الفيلات الفاخرة ، جامدة نائمة فى الليل المقترب . وفى الدقائق التالية ظل الصمت مخيما علينا ، فلم تقل أنوار إلا عبارة واحدة عن حسدها لسكان تلك الفيلات خلفنا- كأن أنوار تقدر على أن تحسد إنسانا- ثم صمتت وهى تنظر إلى النيل أمامنا . ولكننى قد عرفت أن صمتها أمر ظاهرى فقط ، وأن وراء هذه الملامح الدقيقة الحساسة ، وفى هذا الصدر المغطى بملابس قبيحة تصلح لأن تكون كفناً ،نفساً تضطرم بثورة جامحة ..جامحة إلا أنها جاهلة غريزة تتخبط فى سذاجة حيث لاتعلم ..وقد أخفقت أنا بعد كل هذه المناقشة فى تغيير شئ من آرائها ، بل قد زدتها عناداً وجموحاً ، وغوصاً فى أعماق ذاتيتها.

وها هى بجانبى تمد عنقها النحيل إلى أعلا، وتحملق فى الفضاء الأبيض سعيدة بفنائها فى النسيم الخافت الذى يحمل إليها رسالة الأبعاد .. ترتجف شفتاها الحساستان فى رفق كأنهما تردادن صلاة أو دعاء لا أسمعه ،مخاطبة بروحها مالاترى.

وهكذا جلسنا صامتتين ،حتى تسل الظلمة بين ذرات الفضاء وبدا النيل شبحاً رمادياً ساكناً ، فى حين أضاءت عن بعد فوق كوبرى عباس كرات صغيرة من ضوء مرتعش ذابل ، وفى الناحية المقابلة عن يسارنا بدا رأس الجزيرة بأشجاره الكثيفة كتلة كبيرة جاثمة من الظلام، وعن يمينها فندق سميرامس شعلة من النور ، تعلوه سحب كثيفة من دخان المدينة.

وأخيرا لمست كتف أنوار مقترحة الانصراف ، فابتسمت إلى موافقة ، وقمنا نعود من حيث أتينا.

في خلال الشهر الذى قضيته بالقاهرة، لم يطرآ على حياة آنوار جديد سوى رسالتين تلقتهما من زوجها السابق يطالب فيهما بآن يعطى له ابنه لكى يشرف على تربيته بنفسه ، ويلفت النظر فى الأخيرة منهما إلى آنه سيتخذ الاجراءات القانونية اللازمة إذا لم يرسلوا إليه الولد . وقد أوقع هذان الخطابان أنوار فى غم شديد -لاسيما الأخير- رغم أننى أكدت لها أن الرجل يهوشها ، وأنه لا حق له فى انتزا ع ابنها منها قبل آن يبلغ التاسعة .فكأن آنوار حزنت لمجرد تفكيرها فى أنه يتاح لطليقها أخذ ولدها فى أى سن ولو كان ذلك بعد أربع سنوات وفى أن يكون له الحق إطلاقا فى تصريف أمور هذا الولد ،مما آضاف إلى هموم أنوار مسلك أمها ، التى فسرت هذين الخطابين بأنهما «جر شكل» من ناحية الزوج يرمى به إلى رد زوجته التى أتعبه غيابها ، وأنه يجب على أنوار بناء على ذلك ألا ترفض اليد الممدودة والفرصة السانحة بل تبادر بإنتهازها . وقد قالت لأنوار توبخها أمامى ذات يوم وهى تلوح بيديها فى غضب:

-دى ندامة إيه يختى دى؟ احنا كنا مجوزينك عشان كده! إن كنتى قاعدة معايا النهاردة تاكلى وتشربى ، بكره أما أموت تبقى تصلى إيه ؟ تدورى تشحتى على كل باب لقمة؟ بطلى نشفية الراس دى أحسن ..انتى فاكره نفسك إيه ؟ وارثة؟ الله يرحمه ابوكى .. مات ما ساب لك خيط فى أبرة ..غير جذبة السبح والمشايخ ماساب شيلاه يا سيدى يا شعراوى!.

القول الذى استمعت إليه أنوار بابتسامة مرتعشة متألمة ،وهى غاضة البصر لا ترد على ابتذال أمها.

ولكن فيما عدا ذلك كانت أنوار راضية هادئة ، تواصل حياتها الجديدة ولا تشكو . وقد أتيح لى فى الشهر الذى قضيته فى القاهرة أن أعرف شيئا عن تلك الحياة ، وأتيح لى أكثر من مرة أن أرى أنوار تمسك سبحة ذات حب بنى اللون تدمدم عليها بأسماء الله الحسنى ، أو تمسك كتابا صغيرا فى حجم الكف قالت لى أمها هامسة من وراء أنوار «قطيعة يختى .. ده ورد»! .وكذلك أتيح لى أن أرى جانباً من مكتبة أنوار الجديدة ،وهى مكونة من كتب كبيرة صفراء اللون مطبوع على هوامشها كتب أخرى ،ومعظمها من تآليف الشعرانى أو غيره من المتصوفين ،ومنها كتب عن الأرواح والجن قديمة وحديثة، بينهاكتاب أو اثنان عن الشعرانى كتبهما كاف من المحدثين الذين يضع الشيطان الألفاظ فى أفواههم لكى يشوهوا بها سيرة السلف من الأولياء والصالحين. وقد عجبت كيف استطاعت أنوار أن تتوغل فى هذه الكتب الصفراء الكبيرة ذات اللغة والمعانى المعقدة ، التى تعبت أنا من مجرد تقليب صفحاتها ، فلم يعجبنى منها إلا كتاب واحد هو ديوان ابن

الفارض . الذى رأيت أنوار قد رسمت بالقلم الأحمر خطوطا تحت كثير من أبياته الصوفية الوالهة.

وقد ورثت أنوار كل هذه الكتب عن أبيها ، الذى كان صوفيا مخلصاً . والذى روت لى ست سنين عنه كيف أنه دخل «الخلوة» ذات مرة ليصير ولياً ، فخرج منها بعد عشرة أيام غائر الخدين جاحظ العينين ، يصيح بأعلى صوته مرددا «يا منتقم ياجبار» كأنه مجنون ، فلم يثب إلى عقله إلا بعد شهر قضاه طريح الفراش ، وهو يهب كل حين من السرير صائحا «النار!» ولا يعود إلى النوم إلا بمعاونة حقنة من المورفين أمر بها الطبيب.

وقد حرصت من أول الأمر ألا أظهر أننى وأم أنوار حزب عليها ، بل كففت عن السخرية منها ومهاجمتها كلية، حتى عادت تطلعنى على أسرارها الصغيرة الخطيرة دون أن أطلبها منها ، إذ كان لابد لأنوار أن تحدث بهذه الأشياء أحداً ، وأنا الشخص الوحيد الذى تعرفه ويستطيع أن يفهمهو إن كان لا يوافق عليها . فكان يسرنى أن أرى انبثاقاتها الفجائية بقصد الدفاع عن معتقداتها ضد مهاجم وهمى ، إذ تروح تجاهد فى سبيل البرهنة المنطقية على نظرياتها الصوفية ، لاسيما أرائها فى الأحلام وتناجى الأرواح . وكانت كثيرا ماتحدثنى بصوتها المرتعش ووجهها المورد من التأثر ، عن عالم الروح الأثيرى الذى ليس له بدء ولا إنتهاء ، كيف تلتقى الأرواح فيه قبل الميلاد وتتحاب ،وكيف يفصل بينها الزمان والمكان عندما تولد وتلبس الأبدان ،حتى إذا ما كان الموت عادت لها حريتها والتقت من جديد عالمها الأثيرى وهى أشد لهفة واستعدادا لمتعة الامتزاج.

أما الأحلام فقد كانت تنظر إليها بحد أخطر من هذا ، معتقدة أن كل من تراهم فى أحلامها إنما تراهم حقا ، وقد أتوا لزيارتها أو انطلقت روحها لزيارتهم أثناء نومها وكانت كثيراً تروى لى أحلامها –أو على الأقل ما ترى أنه هام رمزى منها– مثل ذلك الحلم الذى روته لى ذات يوم بحماسة كبيرة إذ كان بطله الشعرانى ذاته .فقد رأت نفسها تسير فى حديقة فسيحة خضراء غاصة بالأشجار المرتفعة المحملة بالفاكهة والثمار ، ومعها عبد الوهاب ممسكاً بيدها مشدوها من روعة ما يرى . فما زالا فى تلك الحديقة حتى إنتهيا إلى جامع صغير له مئذنة صغيرة إلا أنها تعلو على قمم الأشجار، وبجانبه عين يتفجر منها ماء صاف قراح .عند ذلك سمعت أنوار صوتا جميلا يناديها من حيث لا ترى ، ويهتف بها أن توضئ ووضئ ابنك ثم إدخلا لتصليا فى هذا الجامع .فسرعان ماخلعت حذاءها وشمرت ، وتوضأت من ماء العين ووضأت ولدها ، ثم دخلا الجامع فصليا . ثم إنهما التفتا بعد الصلاة نحو باب صغير يؤدى إلى سلم المئذنة الحلزونى الضيق ، فجرى عبد الوهاب نحوه يريد أن يرتقيه ولكن أنوار منعته ، وعند ذلك طرق سمعها ذلك الصوت من جديد يأمرها بتركه ونظرت فإذا الشعرانى ذاته واقف عند باب المئذنة بثيابه البيضاء

وشعره الأسود المرسل ينظر إليها بوجهه الوضاء ويبتسم فى سكون عادته.

وكنت بقى لى تلت أربع نشهر ماشفتوس ولا فى حلم ، عشان كده . استعجبت قوى لما شفته . وبعدين بصيت لقيته مسك ايد عبد الوهاب وطلع به المدنة بشويش ، وأنا ماشية وراهم من سكات لحد ما وصلنا لآخر المدنة، وبصبت من حاجة زى بلكونة لقيت قدامى خضرة ف خضرة ، والهوا بيميل الشجر الطويل حايوقعه ، وورا الخضرة من بعيد بحر كبير شايفة فية ناس بيعوموا ويطيروا ..ومرة واحدة بصيت لقيت الشعرانى شال عبده على دراعه وطار بيه فى الهوا بهدومه البيضة دى ما يكون بجنحة وجيت أنا أطير وراهم ماعرفتش ، قمت وقفت ابص لهم وأعيط لحد ماوصلوا البحر واستخبوا عنى ؛ وبعدين بصيت لقيت واحد معرفوش قرب منى وقال لى «بتعيطى ليه؟ حد يخاف على الولد من أبوه»؟ قمت أنا بطلت عياط ، وصحيت من النوم لقيت المخدة غرقانة دموع.

فى يوم جمعة ، قبل أن أسافر بأيام قلائل ، اتفقت مع أنوار على أن نزور الشعرانى سوياً . لم يلق عرضى ترحيباً كبيراً من ناحيتها أول الأمر ، ولكنها لم ترفض طبعاً ، وكنت أنا أريد أن أراها فى الشعرانى . فلما كانت الساعة السابعة من ذلك اليوم ،لقيتنى فى ميدان باب الشعرية ومعها ابنها ، فتقدمتنا إلى شارع الخليج الضيق المظلم، حيث لايوجد إلا رصيف ضيق اضطررنا أن نسير نحن الثلاثة عليه فى صف واحد حتى نتفادى الترام رقم7 الذى أتى فى تلك اللحظة يسير على مهل والناس مكدسون على سلمه يصدموننا بأكتافهم .فلم نزل نسير بين صفين من المنازل المهدمة حتى انتهينا إلى باب جهة اليسار يعترض مدخله ذلك الحاجز الخشبى المنخفض الذى يسد أبواب المساجد ، فتوقفت أنوار وشرعت تخلع حذاءها ..وبعد أن أسلمنا أحذيتنا إلى كهل مقوس مغضن، تقدمنا بأقدام عارية على حصير الجامع ، وأنوار تتقدمنا بثيابها السوداء مرفوعة الرأس منتصبة الظهر تشعر بمسئولية قيادتنا ،، ، وقد تعلق ابنها بيدها واتسعت عيناه وهو يحملق فى المناظر حوله.

كانت صالة فسيحة مليئة بأعمدة حجرية بيضاء مصقولة ، يتصدرها منبر خشبى مرتفع ذو سلم خشبى حرج، وتتدلى من سقفها نجفة كبيرة مضاءة . وفى جهة اليسار من المنبر «مقام» صغير تحيط به قضبان عالية كأنه قفص ، عرفت من أنوار فيما بعد قبر سيدى على نور الدين.

وكان الوقت بين المغرب والعشاء ،وقد تفرق على الحصير رجال أغلبهم من لابسى الجلاليب، بعضهم متوجه نحو القبلة يصلى ركعات تطوعية،وبعضهم متربع يسند ظهره إلى الحائط أو أحد العواميد البيضاء ، يتمتم بالصلوات على سبحة يحركها وهو يتمايل من الخشوع . وفوق كل هؤلاء أربعة رجال قد تربعوا بجوار المنبر ، ونشر كل منهم على حجره كتاباً ، وراحوا يقرءون بصوت

مرتفع وفى نفس واحد . قراءات قالت لى انوار بعلمها الذى لا يخب إنها اسماء الله الحسنى يرتلونها من دلائل الخيرات . وكانوا احيانا يسكتون ليصغوا إلى واحد منهم . ثم يلحقون به بعد قليل ، وكلهم يهتزون شمالا ويمينا بعمائمهم وطواقيهم وكتبهم .إذ أن هذا اليوم هو« حضرة» الشعرانى.

اجتازت أنوار كل ذلك سريعاً ،وهى لاتنظر حولها ، ودلفت بنا خلال باب صغير فى الحائط الأيمن ، ترتفع أرضه درجة عن أرض الجامع ، وقد وضعت وراءه شلتة عليها سبحة تركها هناك صاحبها وذلك فى بهو صغير على يمينه باب يؤدى إلى الميضة ، وعلى يساره باب آخر هبطت أنوار خلاله درجة ، فاذا بنا أمام ضريح الشعرانى.

التفتت أنوار نحوى وهمت بأن تقول شيئا ، ولكنها رأت أمامها أناساً غيرنا فسكتت . وكان هناك رجل عجوز فى جلباب أبيض ، مقوس الظهر نابت اللحية ، يقف ناظراً إلى الضريح فى خشوع ، وهو يقرأ الفاتحة ، وامرأة متوسطة العمر فى ملاءة لف تسير على مهل حول الضريح وهى تمسح سوره بيدها فى ضراعة ولا تبرح تهمس بصوت مرتعش «يا سيدى يا شعراوى نظرة.. يا سيدى ياشعراوى نظرة».. وفى الركن الأيسر من الضريح تربع رجل غريب الشكل على رأسه عمامة مرتفعة مخروطية كالطرطور ، له الحية طويلة يحرك حباتها فى سرعة متشنجة ، وهو يتمتم بألفاظ غامضة وينظر إلينا بعينين براقتين مفزعتين.

لم تنتظر أنوار ، بل دارت عن يمين الضريح وراء صندوق النذور واختفت بابنها ، فى حين وقفت أنا أتأمل المكان .كانت حجرة ضيقة صنعت جدرانها من صخر أبيض عار، سقفها مرتفع هيكله من خشب بنى محلى بنقط بيضاء من الصدف ، تكسوه شبكة من السلك واسعة الخروق وله باب من نفس مادته مغلق بقفل صغير ، ووراء هذا السور يبدو« مقام» كبير مستطيل يبلغ ارتفاعه رأس الانسان ،وهو مكسو بقماش عديد الألوان نقشت عليه آيات قرآنية بخط متداخل تصعب قراءته.

انتبهت فجأة إلى أن أحداً ينظر إلى عن يمينى ، فنظرت وإذا برأس ابن أنوار بارز من وراء زاوية الضريح ، بجانب صندوق النذور ، وهو ينظر نحوى بعينين واسعتين خائفتين .فلم يكد يعرف اننى رأيته حتى ابتسم ابتسامة كبيرة خجول ،ولوى رأسه على كتفه ، وارتد سريعاً سمع صوت أنوار يقول(وماله ؟ ما تحط)) ،ومرت برهة قبل أن أرى رأس الصبى يبرز ثانيا وهو لا يزال يبتسم ، فيرفع يده إلى ثقب صندوق فى تردد ويدس فيه قطعتين فضيتين تسقطان على أكداس النقود فيه بصوت مرتفع . ثم عاد من حيث أتى.

وكان الرجل والمرأة قد دارا حول الضريح دورة وخرجا . وكذلك استجمع الرجل ذو الطرطور

نفسه وخرج بسبحته الطويلة مدلية إلى الأرض .وهو منحن بشكل غريب ولا يبرح ينظر إلى بعينه البراقة المجنونة . وكانت أنوار لا تزال مختفية عني، فتحركت عن ستار الضريح وأنا لا أزال أسمع صوت الرجال الأربعة يقرءون دلائل الخيرات بصوتهم المنموج الغريب . خلال نافذة عربية عليها غطاء خشبي مثقب تطل على صحن الجامع حيث يجلس المصلون .وفي الحائط الآخر أمامي ، وجدت نافذة مثلها تطل على شارع ضيق منخفض تبدو دكاكينه الصغيرة المضاءة بالكلوبات خلال ثقوب النافذة ، ويهب من ناحيتها هواء بارد مثقل برائحة العطور والبخور . ولست أدرى لماذا وأنا أستمتع إلى أولئك القراء وأشم تلك الرائحة ، خيل إلى أنني في كنيسة ، وداخلتني الرهبة رغم أنني كنت مدركة حتى تلك اللحظة أنني لم أدخل هذا الجامع إلا مدفوعة بالفضول المجرد.

لم آكد أنظر في الممر الضيق خلف الضريح هناك ، حتى رأيت أنوار بثيابها السوداء تمشي بجنبها ببطء وهي تحرك شفتيها بما لا أسمع ، وتمد يدها لتلمس سور الضريح كما رأيت المرأة الأخرى تفعل منذ قليل . ولكنه لم تك تلمحني مقبلة عليها حتى جذبت يدها سريعا ، وأسرعت في سيرها نحوى بابتسامة صغيرة ، ثم مرت خلفي وهي لا تزال تتمتم واختفت من حيث اتيت ،فواصلت أنا السير مارة تحت قمقم كبير متدل من السقف يعلوه الغبار ، ودرت حول الضريح حتى التقيت بأنوار ثانيا بجانب صندوق النذور ، وابنها لا يزال متعلقا بيدها ينظر حوله فاغر الفم جاحظ العين في رهبة.

رأتني أنوار أقف أمام الباب ناظرة إلى كتابة منقوشة في أعلاه بخط غريب بالصدف الأبيض ، فقالت لي وهي تجذبني من ذراعي:

-تعالي.تعالي .. مش حاتعرفي تقريها.

فلما رأتني لا أطاوعها ، مضت وحدها تختفي عن يمين الضريح ثانيا بابنها: أما أنا فرحت أتأمل الكلمات المنقوشة بالصدف وأرى من تداخل الحروف ما يغيظني ويرغبني في فك رموزها . ميزت أولا:كلمات(ادخل حمى القطب) ، ثم انتقلت إلى(من ضا) ..ولم أفهم لها معنى، حتى عثرت أخيرا على همزة تائهة وحدها وعرفت أنها(من ضاء) ، وبذلك سهل على أن أستنتج الكلمتين التاليتين وهما(الزمان به) .ولم يعسر على بعد ذلك أن أقرأ كلمتين اخريين وهما (عبد الوهاب) ،ثم قرأت الجملة كلها وهي:

(أدخل حمى القطب من ضاء الزمان به عبد الوهاب ترى الأنوار مشهورة).

وكان تحتها جملة أخرى قرات في أولها(بدا به الأمن والتاريخ) وهممت بأن أواصل حل غوامضها ولكنني كففت عن ذلك إذ انتبهت فجأة إلى شئ غريب في الجملة الأولى .. صحت بأنوار

التى لا آراها

-الله ..آنوار ! ده اسم ابنك مكتوب هنا .. اسم ابنك واسمك!.

فسمعت فى الحال وراء الضريح صوت شهقات متلاحقة مكتومة ، ووثبت لانظر فاذا بانوار واقفة فى آخر الممر المعتم وابنها فى يدها ،تضع يدها على صدرها مهتزة بضحكتها المتهافتة ،وهى الساعة متقطعة لاهثة متشنجة .وقد آتى ضحكها عقب ندائى إياها مباشرة ، قبل آن آنهى جملتى كأنها تعرف اننى سانجح فى قراءة الكتابة بعد حين وادهش.

عدت أقول لها:

-ايوه قولى لى كده .. بقى الشعرانى اسمه عبد الوهاب وآنا مش واخده بالى ! لكن اسمك انتى.

ولكن أنوار رفعت اصبعها إلى فمها محذرة إياى وهى تشير خلفى فنظرت ورأيت رجلين بالجلاليب يدخلان إلى الضريح وكل يحمل حذاءه فى يده ويتمتم، وسرعان ما اختفت أنوار وراء الضريح ، وغابت بابنها حينا ثم ظهرا من الناحية الأخرى منه ، فتحركنا نغادر المسجد . وقد فكرت أنا فيما رأيت ، فذكرت كيف أن آبا أنوار كان متصوفا فلابد أنه قد قرا كلمة (الأنوار) على ضريح ليلزم لها مثل هذا الأب الذى يملأ رأسها منذ طفولتها باسم الشعرانى ، لكى يزورها الرجل فى الأحلام وهى امرأة ناضجة . فلما حدثت أنوار بذلك ونحن من جديد فى شارع الخليج الضيق المعتم ، قالت لى ضاحكة:

-يعنى عمرك ماشفتى كلمة أنوار إلا هنا ؟ افتحى أى كتاب يعجبك تلاقى الكلمة فيه عشرين مرة .دنا حتى عندى كتاب للشعرانى نفسه أسمه الأنوار القدسية.

وسكتت أنوار بعد دفاعها وكنا قد وصلن إلى ميدان باب الشعرية بضوئه وضجيجه ، فواجهتنى أنوار بابتسامة خجول متطلعة كأنها تريد أن تعرف أثر الليلة علي .وكنت سأسافر إلى رأس البر بعد أيام لتمضية باقى الاجازة عند بعض أقاربى ، فافترقنا على أن نلتقى مرة بعد ذلك يكون فيها الوداع.

لقيت أنوار بعد ذلك مرة واحدة ولمدة قصيرة .فلما كان بعد شهر من ذلك- وأنا فى رأس البر حيث ذهبت لقضاء باقى الاجازة- كتبت لها أسألها عما تم بينها وبين زوجها ، فردت على برسالة شاكية تحمل فيها على الدنيا بما فيها ، ذاكرة ان زوجها قد أرسل خطابين آخرين يطالب بابنه ، وأن أمها لم تزال توبخها وتعذبها لنفورها عن زوجها ،فى حين أنها لا تريد أن ترى وجه هذا الزوج ، وتفضل أن يموت ابنها عن ان يأخذه أبوه ليربيه كما يشاء وينشئه «حمارا» مثله ،هكذا قالت أنوار بلهجة تدل على أنها تتعذب حقا.

ولكننى لم يتح لى الاتصال بانوار بعد ذلك لمدة عامين كاملين لاننى فضيت هذين العامين فى العراق . حيث انتدبتنى الوزارة بنا . على طلب منى ومساع سابقة . لأن أتولى تدريس التربية والأخلاق فى إحدى مدارس بغداد الثانوية ، ولم أحضر إلى مصر خلال هذين العامين . حتى انتهت مدة الانتداب فعدت إلى القاهرة منذ شهرين ، وكانت زيارة أنوار من الأعمال التى رأيت أن أبادر بالقيام بها.

ذهبت ذات صباح إلى ذلك المنزل الذى كانت تقيم فيه مع أمها بالعباسية ، ففتحت لى الباب امرأة لا أعرفها ، قالت عندما سألتها عن أنوار أو ست سنية أنها لم تسمع بهما ، وأننى لابد قد أخطأت فى العنوان لأنها تقيم فى الشقة منذ عامين ، فبينما أنا أغادر العمارة متعجبة من هؤلاء الناس الذين لا يستقرون فى منزل أبداً ، واجهنى بواب سودانى عجوز خطر لى أن أسأله لعله يذكر أنوار ويعرف أين ذهبت . وقد صح ظنى إذ نكش الرجل البالى فى أطلال ذاكرته حينا ثم وصف لى عنوانا فى شارع قريب قال إنه هو الذى انتقلت إليه ست سنيه وابنتها منذ أكثر من عام.

كانت عمارة فى شارع من تلك الشوارع التى لا يرى فيها إلا حيطان فى حيطان ، والتى تكرهها أنوار وان اضطرت إلى السكن فيها . وقد دلنى البواب على أن شقتهم بالطابق الثالث ، فصعدت من فورى إلى هناك على سلم.

ضغطت جرس ووقفت أنظر إلى الزجاج الخشن الذى يلمع وراءه نور بعيد ، وفى الحال سمعت صوتا نسائيا يصيح من بعيد قائلا «تعالى افتح يا عبده لحسن إيدى وسخة!» فلما مرت لحظات دون أن يفتح أحد، عاد الصوت يصرخ فى سخط «عبده»! وهو صوت أنوار بغير شك ، وان وقع فى أذنى غريبا شاذا لأننى لم أسمع ولا رأيتها غاضبة قط. ثم سمعت صوت أقدام عارية تدب على البلاد مسرعة ، واهتزاز النور على الزجاج قبل أن ينفتح الباب.

كانت أنوار ذاتها هى التى فتحت ، وهذه حقيقة انتبهت إليها بعد شئ من التدقيق وفى كثير من العجب . إذ كانت أنوار التى فتحت لى- بعكس أنوار التى عرفتها من قبل- زرية الهيئة قذرة كالخادمات، تقف حافية القدمين وسط بركة من المياه على بلاط الصالة، وهى تائهة بجسمها الصغير فى ثوب واسع باهت قذر، وشعرها منتفش حول رأسها ، وقد تدلت من يدها خيشة سوداء يقطر الماء منها على الأرض وعلى ساقيها . ظللنا حينا صامتتين وأنا أنظر إليها وأبتسم لكى تعرفنى ، وهى ترد نظرتى من وجه لا يزال يعكره الغضب بعينين عسليتين متسعتين بما فيهما من زعر صريح .وكان وجهها أصفر ممتقا ، وخداها غائرين ، وقد ازداد بروز العظام أسفل عينيها .، وأخيرا اهتز المعنى الغاضب فى وجهها ، ثم تباعدت شفتاها وتغضن ما حول فمها

بابتسامة لاتخلو من التكلف . وقد اصطبغ وجهها بلون الدما. وتلكأ معنى الذعر في عينيها المتعبتين . ثم فتحت الباب عن اخره تفسح لي وتمد يدها اليمنى لكى تصافحنى . فتذكرت انها تمسك بها الخيشة . فمدت يدها اليسرى وذكرت أنها قذره . فلوت إلى معصمها الذى سارعت بالضغط عليه إنقاذا لها. حالتها العامة تحذرنى من أن أحتضنها وأقبلها كما اعتدت أن أفعل.

نطقت أنوار بكلمات غير مفهومة تعبر عن الدهشة والترحيب . ثم أسرعت تتقافز بقدميها العاريتين حتى اختفت فى طرقة مظلمة فى أخر الصالة . حيث سمعت صوت حنفية. ثم عادت والمياه تقطر من يديها . ففتحت عن يسار الصالة غرفة مظلمة ودعتنى للدخول فيها . وقصدت إلى النافذة تفتحها وتلقى النور على طقم الفوتي الأزرق العتيق وقد أضيفت إليه هذه المرة عدة كراسى ذات لون بنى . ثم أتت فجلست أمامى على طرف كرسى وهى تحاول أن تخفى تحته قدميها العاريتين اللتين لم تسمح لى قط من قبل بأن أراهما خارج جورب ثقيل . لم تقل لى إلا «ازيك» مختصرة وديعة . ثم عقدت أصابعها فى حجرها . وثنت رأسهاعلى كتفها تنظر إلى البساط بوجهها الذى لا يزال معكرا من الضيق . وابتسامتها الثقيلة المتوترة.

إن هذه ليست أنوار القديمة . لقد كانت طيلة حياتها خجول حيية، ولكنه كان خجلا - سعيداً سليما . خجل إنسان يتهيب الحياة الخارجية ويحس أن فى باطنه خيرا منها . أما خجلها الآن فيشبه أن يكون خزيا لاخجلا-خزيا من هذا الباطن ذاته . وهذا الضيق الذى ينطق به وجهها ليس ضيقا مؤقتا مارا ولكنه نتيجة لتراكم الاحساسات كل يوم . بأن الغد لن يكون خيرا من اليوم. وأنا لا أذكر أننى رأيت على أنوار هذه الابتسامة التى تكاد تكون ذليلة . ولم أعرف فيها إلا تلك الضحكة العميقة التى كانت رغم ما بها من تهافت . سعيدة تدل على إحاطة وجهها بالمواقف فى استسلام.

غير أننى تغافلت عن كل هذا وسألتها عن أمها فقالت انها خرجت . ثم رحت ألومها على تنقلهم من المنازل بهذه السرعة . وأقص عليها كيف قضيت بالعراق سنتين . وكيف كنت آخرج للنزهة على ضفاف دجلة ولا أرى منظرا أو منزلا جميلا إلا ذكرته وتمنيت أن تكونى معى لتراه.لكن أنوا لم تتلق هذه الأنباء بحماسة كبيرة . ولم تزل صامتة تواجهنى بتلك الابتسامة البطيئة الكسيرة . الخالية من المرح كأنها مرسومة على وجهها. وقد لحظت لأول مرة فى تاريخ صحبتى لأنوار كيف انتصر السن على هذا الوجه . فرسم على جبينها خطوطا طويلة متوازية . وحفر حول فمه وأنفها أخدودين عميقين:

ثم أنها نهضت تقول بنفس ابتسامتها:

-أما آكمل تنضيف الفسحة واجى لك ..أصل الخدامة طلعت امبارح.

وخرجت متثاقلة تنحنى لتتناول الخيشة، ثم تخوض بقدميها الصغيرتين البيضاوين فى المياه على بلاط الصالة ، حتى تختفى فى الطرقة المظلمة .لقد حدث لانوار شئ . شئ خطير.

وبينما انا اجلس وحدى ناظرة فى أثر انوار . لحظت عند باب غرفة اخرى بعيدة . راسا صغيرا أسود الشعر يمتد فى حذر لينظر نحوى فى استطلاع . ويمتد معه قرب الأرض طرف عصا خشبية طويلة . فما كادت عين الغلام تلتقى بعينى حتى ارتد الرأس سريعا واختفى فى الغرفة . وكان هذا ابن أنوار بغير شك وقد تغيرت ملامحه فى هاتين السنتين تغيرا كبيرا وكنت قد رأيته يطل من الباب هكذا مرة أخرى ساعة دخولى ، وهو يخاف أن يظهر لى نفسه كأننى عفريت .

جلست أنظر إلى المياه الراكدة على بلاط الصالة وقد ازدحمت فى رأسى الأسئلة . ماذا حدث لأنوار وجعلها جافة مريرة هكذا ؟ ماذا صنع زوجها ولماذا لم يأخذ ابنه كما كان يريد؟ وأمها - ماذا كان سلوكها فى كل هذه المدة؟.

وفجأة سمعت صوت جلبة فى اخر الصالة ، فنظرت واذا بالغلام قد تجرأ أخيرا وبرز من حجرته البعيدة ، يتقافز فى الصالة متعثرا وبيده تلك العصا الطويلة ، التى تبينت وقلبى يخفق من شدة المفاجأة أنها ليست عصا كما ظننت ، وإنما عكاز ..عكاز خشبى طويل يضعه الغلام تحت إبطه الأيمن ويتقافز عليه بسرعة بمعاونة ساقه اليسرى ، وقد انحنى ظهره من المجهود ، وتدلت ساقه اليمنى ملتوية إلى الخارج وهى تتأرجح فى الهواء ولا تبلغ الأرض.

لم أصدق عينى أول الأمر ، فلما تحققت مما رأيت ، طغت على الدهشة والارتياع ..لقد كنت أنتظر أن أرى صبيا سليما يجرى فى المنزل نشيطا وثابا ، فاذا بى أرى حطاما ..والغلام لم يتعد الثامنة بعد ، ولم يتعلم السير إلا من قريب .. لقد دلنى مظهر أنوار على أن شيئا قد حدث، ولكننى لم أتصور أن يحيق هذا بابنها ، الذى تركته أخر مرة جزءا نابضا من حياتها.

ألجمتنى المفاجأة فلم أدر ماذا أصنع . هل أنادى أنوار وأسألها؟. إن السؤال عن هذه الأشياء التى يعرفها أصحابها وسئلوا عنها مئات المرات ، يقع دائما سخيفا مبتذلا ..ولكننى أريد بلهفة أن أعرف كيف حدث هذا ومتى.

لم تكن أنوار فى الصالة فى تلك اللحظة ، وأنا أنظر فى أثر الغلام الذى اختفى فى الطرقة المظلمة برجله الملتوية المتأرجحة ، ولكنها برزت أخيرا والخيشة ما تزال فى يدها ، فصحت بها من فورى فى شبه همس أناديها ، فدارت نحوى رأسها المشوش متسائلة ، ولما رأتنى أشير لها بالقدوم ألقت الخيشة إلى الأرض وأقبلت متثاقلة تقف على الباب فى انتظار .

قلت لها بصوت منخفض متلهف.

-إيه ده يا أنوار ؟ مال عبده؟.

فلم تبد تأثرا من السؤال كأنها كانت تتوقعه ، ثم قالت بابتسامة مكر خبيث.

-ماله؟.

-رجله مالها؟.

فعادت تقول بابتسامتها الملتوية كأنها تهزأ بى

--دى حاجة هايفة كده .

فصحت بها:

-أنوار! .

فاتسعت الابتسامة فى وجهها ، واهتز صدرها لأول مرة بضحكة غيرة تشبه ضحكتها القديمة ، وهى تنظر إلى السقف . ثم اختفى الضحك لم يبق منه سوى خطين مريرين حول شفتها العليا . قالت:

-أصلهم عملوا له عملية.

--عملية إيه؟.

-عملية فى رجله..

-امتى ؟.

-من سنة كده .

-لكن عشان إيه ؟ عملية إيه؟.

-أصله كان وقع ..على سلم..

وأتت الجملة الأخيرة محملة بشئ من الحزن الذى يناسب الموقف ولم تنتظر أنوار بل تحركت متباطئة إلى آخر الصالة ، حيث انحنت على الخيشة الملقاة وراحت تحركها فى دوائر واسعة بطيئة ، وقد ارتفع ذيل الثوب وكشف عن ظهر ساقيها البيضاوين النحيلتين.

أحسست فجأة بحبى لأنوار يفيض فى نفسى ويثور ، مقرونا برثاء شديد قارس .. إنه لأليم موجع أن أرى شيئا كهذا يقع لأنوار التى لم ترتكب فى حياتها إثما ولم تؤذ مخلوقا .. أن تهوى إلى مياه حياتها الأمنة فاجعل كهذه ، تخنق المرح فيها وتطرد النور .وكيف تكون الحياة بالنسبة لمخلوقة حساسة كأنوار ، وهى طول اليوم تبصر ولدها الذى تغذى معها على الريح والضوء ، يقفز بين أربعة جدران بساق ملتوية متأرجحة فى انتظار خمسين عاما مشابهة؟.

ولكننى لم أسترسل فى هذه الخواطر وحدى فى الغرفة الزرقاء الكئيبة ، إذ سرعان ما اهتز النور الخافت الذى ينعكس على أرض الصالة ورن جرس الباب ، فتركت أنوار الخيشة ومضت

لفتحه .وما كادت تفعل حتى سمعت صوت لهث ونهف ، وأقدام متثاقلة تزحف على أرض الصالة.
ثم دار همس خفيف بين أنوار والداخل وبرزت على باب الغرفة ست سنية . بالمانتو الاسود والطرحة السودا. المحكمة حول جبينها الأسمر وتحت ذقنها . فما كادت ترانى حتى رفعت حاجبيها كعادتها واقبلت تعانقنى وتقبلنى على الخدين.

أحسست بالارتياح لمقدم هذه السيدة ، لأنها ستنقذنى من الحيرة والارتباك اللذين أوقعتنى أنوار فيهما لأول مرة فى حياتها . ثم أن ست سنية لم يكن يبدو عليها شئ من اليأس أو المرارة ، بل كانت تبدو سعيدة لا ينقصها شئ .فجلست أجيب عن أسئلتها الخاصة بما رأيت فى ، وأنا أرى أنوار تواصل عملها الآلى فى الصالة ، حتى تنتهى ثانيا فى الطرقة المظلمة ، حيث أرى عبد الوهاب يبرز من جديد متأرجحا على عكازه يقصد إلى غرفته ، وخو يختلس النظر إلى بعينين جاحظتين من وجهه الأسمر الذى نضج قبل الأوان . عند ذلك نهضت فجلست قرب ست سنية ، وهمست أطلب منها فى توصل أن تحدثنى بما وقع فى أنوار ، فقالت .

- هى ماقالتلكيش ؟

- أبدا . لاخدت منها حق ولاباطل .

فمالت المرأة برأسها تتفقد الصالة ، ثم قالت بصوت تحاول أن تكسبه من الألم بغير نجاح كبير :

- بعيد عنك يابنتى .. بقى له سنتين على دى الحال ..

- دى بتقول سنة واحدة بس؟

- سنتين وحياتك ياحبيبتى . مافيش شهر بعد ماحضرتك سافرتى حصل اللى حصل .

- إيه هو اللى حصل ؟

فشرعت ست سنية تروى بصوت منخفض كيف أنهم بعد سفرى بقليل ، سافروا هم أيضا إلى قرية فى الشرقية قرب بلبيس ، لقضاء أسبوعين عند خالة لأنوار يمتلك زوجها عزبة صغيرة هناك . وكان بجانب المنزل حديقة مساحتها خمسة أفدنة مزروعة بأشجار المانجة ، منعزلة عن الحقول بسور ولايدخلها الفلاحون ، عهدت أنوار أن تاخذ ابنها عصر كل يوم ليتنزها فيها ويقطفا الزهور البرية التى تنبت فى الحشائش الطفيلية بين الزشجار.

نظرت ست سنية إلى الصالة ثانيا ثم استرسلت بصوت منخفض:

- وجت يوم العصر خدت ابنها ونزلت الجنينة زى العادة ، قامت فاتت ساعة واتنين وهم لسه مارجعوش ، لحد ما الشمس غطست والدنيا قربت تضلم .. شويتين وابص الاقيها ياكبدى يابنتى جاية تجرى وتتكعبل ، وهى حافية والدم بيشر من رجليها ، وشايلة الواد مسورق على درعتها. هى

حطته على سلم البيت من هنا ودى راحت مرمية عالأرض وسورقت هى رخرد .. طلع جوز اختى يجرى عالمركز جاب الحكيم وجه . وفى الليلة ذات نفسها خدود مصر يودود لرسومة . وأنا قاعدة مع أنوار أفوق فيها وأكلم فيها . وهى ياحبيبنى يخنى صفرة زى اللمونة وساكتة مابتكلمش .. تلت تيام وحياتك عندى وهى ساكتة لم تنطق بحرف.

وسكتت المرأة وقد بدا عليها شئ من التأثر الحقيقى ، فقلت أسألها :

– وعبد الوهاب ؟

- عملوا له عملية فى مصر ، وقعد نايم شهر فى المستشفى ورجله مجبسة . والآخر قام بها ملوية كده وقالوا لنا نجيب له عكاز..

- لكن ليه ؟ إيه اللى حصل ؟

– حصل المكتوب يابنتى .. أصل كان فيه فى وسط الجنينة دى حاجة كده زى ماتقولى بيت صغير ، جوز اختى عامله منه مخزن ومنه دروة لماكنة الرى بتاعة الجنينة .. والبيت له مدنة قديمة مهدودة ، اكمن أصله جامع وحصل فيه خلل قاموا سابوه وبنوا جامع تانى فى البلد . وبعدها جه جوز اختى زرع الجنينة حواليه وعمله زى مابقول لك..

- طب وبعدين ؟

– بعدين جت أنوار الله يجازيها بقى ، خدت الولد ومشوا لحد البيت المشئوم ده ، وسهيت عنه لحد مادخل ابصر منين وطلع ياضنايا المدنة أل عشان يدن المغرب .. أتارى المدنة خربانة وسلمها مهدود..

جت رجل البعيد على سلمة مكسورة راح واقع عالأرض من تانى دور والواقعة جت على رجله .. انكسرت ..

صحت بالمرأة وقد بدأت تثور فى نفسى ذكرى قديمة :

– يكونوش ياتيزة دخلوا يصلوا المغرب فى الجامع ؟

– إيش عرفك يابنتى؟

– إيه ! هم صلوا صحيح؟

– أنوار ماقالتش انهم صلوا ولاعملوا ، لكن عبده لما فاق فى الاسبتالية قعدت أقرر فيه لحد ماقال لى انهم اتوضوا فى الجنينة ودخلوا الجامع أل يصلوا المغرب . وقال كمان أن أنوار هى اللى قالت له يطلع يدن لكن أنوار لما سمعت كده قالت ده متهياله اكمنه داخ ومادريش بحاجة .

– لكن اتوضوا ازاى ياتيزة؟

– أصل الجامع زى ماقلت لك مركبين فيه ماكينة الرى، ويومها كانت الجنينة مسقية جديد ،

وفيه جنب البت حاجة رى بركة كده واسعة وعوبطة عشان نستلقى المبه المعين وهى نازلة.

والجامع ده ياتبزه جنبه شجر عالى'

من كل ناحية يابنتى ، مش جنينة منجه'

وهى أنوار عمرها كانت راحت البلد دى قبل كده ؟

-أبدا ياختى ! ولاحطت رجلها فيها قبل النوبة . ياريتها ماراحت ... وصمتت المرأة إذ سمعنا فى تلك اللحظة فحيحا فى الصالة ، وظهرت أنوار تحمل وابور جاز مشتعل وتدخل به إحدى الحجرات . ثم خرجت ثانيا ، وظلت حينا بين دخول وخروج ونحن صامتتين ، وآنا أقلب ماسمعت فى عقلى وأكون استنتاجاتى . وأتصور أنوار وابنها يتوضأن من ماء الرى فى حديقة المانجة ، فأريد أن أضحك رغم مابى من رثاء أليم . وأخيرا انقطعت حركة أنوار فى الصالة فاسترسلت ست سنية هامسة:

ومن يومها وحياتك يابنتى ماعتبت الشعراوى ولا مرة . اكمنه كان حارس الولد وسابه يجرى له اللى جرى .. حتى الصلا بقت تصلى فرض وتقطع فرض..

ورفعت حاجبها تبتسم ابتسامة احتكام واستشهاد ، فكرهت ما أرى فيها من جمود وبلادة حس وان كان قد مر على الحادث سنتان . فلما رأتنى لا أتكلم أردفت :

- حتى ياحبيبتى يابنتى من ساعتها نفسها انكسرت ومابقتش تقدر تقول لجوزها بم

-- جوزها ؟ هو فين جوزها؟

- الله ! هى يختى ماقالتلكيش ولا إيه ؟

- على إيه ؟

- مش جوزها ردها بعد اللى حصل لابنه.

-- ردها !

- امال احنا فين دلوقت ؟ ماحنا يختى فى بيت سى ابراهيم أفندى ! وراحت تروى لى كيف أن الرجل عندما سمع بما حدث لابنه حضر إلى المستشفى وراح يبكى على الغلام ، ثم فاتح الأم فى مسألة ردها فلم تمانع ، وخرج الولد من المستشفى الى بيت أبيه .

قالت ست سنية :

- وأنا الأول كنت قاعدة لوحدى ، وبعدين جالى فى الشقة بتاعتى خلو رجل ميت جنيه ، سبتها وجيت هنا على مالاقى لى شقة ثانية لكن أهى فاتت السنة ولسه مالقتش .. هم يختى الانجليز خلوا فى البلد شق فاضى ؟

وراحت المرأة تتكلم فى موضوعات مختلفة أخرى ، وهى تبدو على آتم حال من الرضا.

والقناعة . فعدت أنا إلى مقعدى الأول وثبت نظرى على الطرقة البعيدة المظلمة ، حيث ظهرت أنوار بعد قليل تحمل وابور الجاز ذا الفحيح ، فوضعته على الأرض وقعدت بجانبه القرفصاء تعالج « كباس» الوابور بشدة لتملأه بالنفس ، وهى تولينى ظهرها وقد برز بطنا قدميها الأبيضين حيث ارتكزت بردفيها عليهما . وكانت تبدو غير شاعرة بى كأنما فارقتهما حساسيتها المرهفة القديمة ، أو لعلها كانت شاعرة بى ولكنها تريد أن تفحمنى بأدلة على صغرها ، وتصر على أن تنجز أمامى هذه المهام الحقيرة لترينى ماذا صارت اليه حياتها الجديدة .." انظرى لقد صرت ست بيت مثالية كاملة ! » هكذا كان يقول لى شعرها المشوش وظهرها النحيل التانه فى ثوبها القذر ، وهى منكبة على الوابور ومعتصمة وراء ذلك الحجاب الثقيل من عنادها المرير.

أحسست أنه لم يبق لى ماأصنعه فى ذلك المنزل ، فقمت استأذن فى الانصراف ، وصحبتنى ست سنية الى الصالة وهى تدعونى للغداء ، فلما اعتذرت صاحت تنادى أنوار لكى تأتى وتسلم على . فسرعان ماسمعت صوت الماء يسيل من الحنفية ، ثم ظهرت أنوار وهى تنشف يديها فى فوطة قديمة ، وتتقدم نحوى باسمه لتصافحنى .

قلت لها وأنا أمسك يدها :

– خليتك بعافية ياأنوار .. ابقى خلينى أشوفك .. مش فاكرة عنوانى ؟

– آه امال

قالتها أنوار فى برود بابتسامتها الجديدة الميتة ، فأحسست بوخزة أليمة فى صدرى ، إذ أدركت أن قد قام بينى وبين أنوار إلى الأبد حجاب سميك يفصل بيننا .. وأن تلك الروح الوثابة التى عهدتها جذوة مشتعلة تتراقص فى الأماكن العالية وتذكيها النسمات ، لن تعود منذ اليوم إلا ذبالة هزيلة تحترق وحدها فى سجن بعيد من ظلمات يأسها.

قلت لها من أعماقى .

– ابقى تعالى صحيح ياأنوار .. نفسى أتفسح معاكى زى زمان ،

ونظرت بقوة فى وجهها ذى العظام البارزة استذكر الماضى من أنفها المدبب ، وشفتيها الحساستين ، وجبينها الأبيض العريض . فرفعت أنوار إلى عينيها العسليتين العزيزتين وقد أشرق فيهما نور مرتعش من المحبة والذكرى ، وانفرجت شفتاها مدى لحظة عن تلك الابتسامة والحيية المرتعشة القديمة ، فانعطف قلبى .. ثم قالت وهى تغض بصرها سريعا كأنما خجلت من التذكر :

– إن شاء الله .

ثم ألفيتنى دون باب مغلق ، اهبط السلم المعتم العتيق فى حذر ، وأحس خلال مشاعرى المضطربة المشتتة ، بشعور لاأدرى إن كان حيرة أم عظة.

ملف

بيلوجرافيا محمد عفيفى



اسم الشهرة: محمد عفيفى

الاسم بالكامل: محمد حسين عفيفى

تاريخ الميلاد: ٢٥ فبراير ١٩٢٢

جهة الميلاد : قرية الزوامل -مركز انشاص -محافظة الشرقية.

المؤهل الدراسى: ليسانس الحقوق ١٩٤٣-دبلوم الصحافة ١٩٤٥.

الحالة الاجتماعية: تزوج يوم عيد ميلاده ١٩٥٠ من السيدة اعتدال الصافى وأنجب ثلاثة أبناء : الدكتور طبيب عادل ،والمهندس نبيل وعلاء المحامى.

تاريخ الوفاة: ٥ ديسمبر ١٩٨١.

«الفتى الريفى»

ولد الكاتب الساخر محمد عفيفى فى قرية الزوامل- شرقية، ونشأ فى القاهرة.

فقد نزحت أسرته إلى القاهرة وأقامت فى حى روض الفرج فى شارع المقسى- شبرا مصر.

ولما تخرج فى الجامعة ..أقام بمفرده فى مسكن بشارع أحمد كامل قريبا من شارع الملك فيصل الآن بالهرم.

وعندما تزوج انتقل إلى مدينة حسن محمد القريبة من المسكن الأول.

ثم انتقل إلى حى الزمالك حيث أقام فترة قصيرة ، عاد بعدها إلى شارع الأهرام ،حيث شيد فيلا ،ما

زالت تقيم فيها الأسرة إلى اليوم.

«رحلات صحفية»

-بدأ حياته الصحفية بإصدار مجلة باسم «القصة» لم تستمر طويلا ، فاتجه إلى العمل بالصحف.

-التحق محررا بدار مسامرات الجيب ،وكتب فى المجلة التى كانت تصدرها باسم «إضحك».

-وانتقل منها إلى العمل محررا بمجلة« آخر ساعة» حين كان يصدرها محمد التابعى.

-ولما انتقلت ملكية المجلة إلى« أخبار اليوم» ، انتقل معها وأصبح محررا فى« أخبار اليوم» ابتداء من أول يوليه ١٩٥٠ حتى ٣١ مارس ١٩٦٤.

-وفى أول أبريل ١٩٦٤ انتقل إلى« دار الهلال» وظل يعمل محررا فى صحفها إلى ٣١ مايو ١٩٧٤.

-وفى أول يونيه ١٩٧٤ عاد إلى قواعده فى« أخبار اليوم» التى ظل يعمل بها حتى نهاية العمر فى ديسمبر ١٩٨١.

* أشهر الأبواب التى حررها فى الصحف هى:

-«هذا وذاك» فى« أخبار اليوم».

-«للكبار فقط» فى« الأخبار».

-يوميات و«ابتسم من فضلك» ،فى «أخر ساعة».

-بينى وبينك بتوقيع «واحد» فى« الكواكب»

-كان بيته بالهرم مقرا للسهرة الأسبوعية لجماعة «الحرافيش» نجيب محفوظ ، عادل كامل، توفيق صالح ، أحمد مظهر ،صبرى شبانة وإيهاب الأزهرى ، بهجت ، صلاح جاهين ،وغيرهم.

كاريكاتوريات

ويعتبر من بين مبتكرى أفكار الشخصيات الكاريكاتورية ، حيث كان عضوا فى لجنة الكاريكاتير بأخبار اليوم.

وجسد أفكاره بالرسوم الكاريكاتورية الرسامون : صاروخان ومحمد عبد المنعم رخا وعبد السميع عبد الله وزهدى وبهجت عثمان ومصطفى حسين ومحمود ورؤوف عيده.

أصدر العديد من المؤلفات ،التى كان من بينها القصة والرواية والمقالات:

-أنوار -مجموعة قصصية.

-«التفاحة والجمجمة» رواية.

-«بنت اسمها مرمر» -قصة.

-«فنتازيا تاريخية .

-«سكة سفر».

-«تائه فى لندن»

-«ابتسم من فضلك»

-«ابتسم للدنيا»

- «ضحكات صارخة»

-«للكبار فقط»

-«ترانيم فى ظل تمارا» رواية.

«أعمال درامية»

-تحولت بعض هذه المؤلفات إلى مسلسلات إذاعية وأعمال مسرحية وسينمائية.

فأخرجت «التفاحة والجمجمة» فى مسلسل إذاعى ومسرحية وفيلم سينمائى ، وكذلك قصة« بنت اسمها مرمر» التى أخرجت فى فيلم سينمائى.

فقد أنتج أحمد مظهر «التفاحة والجمجمة» لحسابه الخاص ، فى عمل مسرحى من إخراج السيد راضى قام فيه بدور البطولة فى شخصية المهندس أحمد، أمام سهير البابلى فى شخصية «زازا» ومحمد توفيق فى شخصية «المعلم طلبة».

كما أخرجها محمد أبو سيف فى فيلم سينمائى قام فيه حسن يوسف بتمثيل دور المهندس أحمد ، أمام إيمان فى دور «زازا» وأنور إسماعيل فى دور «كرشة».

وأخرجت قصة« بنت اسمها مرمر» فى فيلم من إخراج بركات ، وتمثيل محمود يسن وسهير المرشدى وصلاح منصور.

-كما ساهم فى كتابة برنامج «ساعة لقلبك» الإذاعى -وقد نال شهادة تقدير من الدولة تقدير لجهوده فى مجال الإبداع الفنى ١٩٧٨ بعد أن رشحته أكاديمية الفنون.

عبقرية العـوام

على عوض الله كرار

من مزايا الثورات الكبرى (كالفرنسية والروسية مثلاً) أنها - وعبر حرارتها المستمرة - تزيل ماعلق على أفئدة وعقول العوام من غبار وصدأ ، فتتفتق عبقرياتهم الفطرية المشتعلة ذاتيا بأحاسيس الجسد وغرائزه التى لاتستطيع - وهى تحت الركام - إلا تسريب عينات من عبقريتها عبر شئ ينتجه العوام ويستهلكونه مع بعضهم البعض كل يوم .. هذا الشئ هو اللغة.

وسآخذ لفظة واحدة من لغتنا الفصحى ، لأرى كيف استحدث لها العوام علاقة جديدة لفظة أخرى لاعلاقة لها باللفظة الأولى .. وهى لفظة (ضحك) .. والأخرى هى لفظة (كذب أو خدع) .. فالعوام يقولون : ضحكت عليه ، أو عليك .. بمعنى كذبت عليه ، أو عليك .. أو بمعنى : خدعته ، أو خدعتك .. وهذه اللفظة (ضحك) لاتكون بهذا المعنى المستحدث إلا إن وضعت فى سياق خاص جداً..

والضحك كفعل وممارسة هو من الأشياء التى لايستطيع الجسم اصطناعها ، فهو - فى الغالب - نتاج طبيعى لسلسلة من المفاجآت المشحونة بمفارقات متضادة .. وقد تكون هذه السلسلة مصطنعة أو حقيقية أو مخلوطة من شئ من الحقيقة ، وشئ آخر مصطنع .. وقد يكون هؤلاء الميتون من الضحك يعلمون منذ البداية إن كانت هذه السلسلة هكذا أو هكذا أو هكذا .. ومع هذا لاتكون الضحكة ضحكة إلا إذا انطلقت تلقائيا ، وبعفوية تامة ، واشترك الجسم كله فى انتاجها.

وأدخل إلى لب الموضوع :

فى دولة مركزية وقديمة جدا كمصر الملصوقة بمعظم ناسها بجانبى نهر النيل ، أقل أنهار العالم الطويلة إلتواءات واختباءات بين تلال متعرجة وغابات (خاصة فى جزئه المصرى) .. كان العوام - وعلى الدوام تقريبا - مقموعين ، ولا مكان لهم للهرب ، فالصحراء عن يمينهم ويسارهم ، والبحر من شمالهم والشلالات من جنوبهم .. ومن يعش فى قفص طبيعى كهذا تتفتق حيلته عن طرائق معيشية تتكيف مع ظروفه الخاصة ، طرائق تحقق له مواصلة الحياة بشرطها الأدنى(= البيولوجى) ، وكى ينضبط بؤسهم ، ويدخل حيز وعيهم المستتر ، اصطنعوا الفنون والآداب والألعاب البسيطة شكلاً والعميقة والمتسعة فى دلالاتها ، ومن هذه الفنون : السخرية ، وربما إنخلقت هذه اللفظة من (السخرة : أى العبودية) ، وكان الأولى هى صانعة التوازن النفسى المعيشى مع القهر الذى انبثق منه فعل السخرية الذى صار - فيما بعد - فنا له خصائصه .. وكأن عوام الناس اكتشفوا بالغريزة واحداً من قوانين نيوتن (لكل فعل رد فعل مساو له فى المقدار ومضاد له فى الاتجاه) .. نعم : لكل سخرة سخرية منها تساويها وتضادها.

أما عن لفظة (ضحك) ، فكيف جاءت لطبقات مغمورة لاتعرف سوى الكد والتعب والعمل ليل نهار تحت السخرة (المستترة أحيانا ، والظاهرة أحيانا) .. أظن أنهم - وكرد فعل - اصطنعوا خارج نطاق أجسامهم أسبابا ومواقف تدفع أجسامهم للرجرجة المتواصلة كزمن كفيل - فى حالة تكراره - بتذويب بؤسهم داخل دماء عروقهم ، وخلايا شحوماتهم ، وهذه الرجرجة الجسمانية الطبيعية سميت بالضحك أو القهقهة ، تماما مثلما كان يكتب أيام التقاليد الصيدلانية على علبة دواء من أدوية الشرب :(رج الزجاجة قبل استعمالها) ، فبدون هذا الرج للجسم يترسب الشعور بالبؤس فى مفاصل الجسم ، ومنحنيات الأحشاء ، ومع الوقت يتكلس هذا الشعور ويتحجر متحولا إلى عائق يحول دون تواصل ميكانيزمات تفاصيل الجسم الداخلية ، مما ينتج عنه اختلالات تضعف طاقاته الحركية ، فيلقى نفسه محاصراً بين قهرين لافكاك منهما إلا بالموت .

الضحك - إذن - فى الوعى المستتر عند العامة هو الأكذوبة أو الخدعة التى اصطنعوها من بؤس عالمهم ، وكان على الجسم أن يصدقها كى يضحك جداً ، ويجد حقيقى ، فالرجرجة - من آن لآخر - هو مايحتاجه الجسم الصغير ، يمثل مايحتاجه الجسم الكبير (= الوطن) .. وربما لهذا الذى ذكرت ، حققت أفلام التفه التافهة فى السنوات الأخيرة أرباحاً لايصدقها عقل.

«الثمن: جنيهان» رقم الإيداع ٩٢/٧٥١٢ الأمل للطباعة والنشر